

# كلمة التحرير

منذ ثلث قرن تماماً أطلق الشاعر محمد الفيتوري صرخته المشهودة :

تم تم  
إفريقيا نغم

وظل العرب يقولون ، أدبياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً : يجب الاهتمام بإفريقيا . البعد الإفريقي شديد الأهمية . العمق الاستراتيجي للوطن العربي في إفريقيا . ما أشبه تجربتنا بالتجربة الإفريقية وما أكثر الدروس التي يمكن أن تكون مستفادة .

وتحدث الأدباء والشعراء أحياناً عن سرّ إفريقيا وعن سحرها وغموضها ، وتغنوا بتوهج حجرها الأسود الكريم ، ولكنهم لم يكتروا ولم ينوعوا ، ولم يدخلوا في عمق الدغل الكثيف . وأصبحت الجامعة العربية بشوبه من الغيرة ، أتت متأخرة كالعادة ، فكانت هناك لجان لإفريقيا ، وتحدثوا عن صندوق للدعم ، وعن مشروعات فردية تقوم بها كل دولة على حدة ، ومشروعات جماعية .

وكانت إفريقيا عادة متمنعة تتجواب حيناً بتحفظ ، ولاتتجواب في أكثر الأحيان ، ويغلب عليها أحياناً خفرها ، وأحياناً شكوكها الدفينة ، وأحياناً ذاكرتها المتراكمة - وليست الدقيقة بالضرورة . . . . وكان من وراء ذلك كله سرّ كبير ، هو أن إفريقيا - بينها وبين نفسها - وضعت سلم أفضلياتها ، ربما من خلال ظروف كثيرة متشابكة ، ولم تكن العلاقة العربية الإفريقية في المراتب الأولى من هذا السلم ، اللهم إلا إذا غلا المهر ، وأخف الطلب واتصل النداء ؛ فعند ذلك يكون لك حادث حديث .

في المحاولات المختلفة التي جرت لخطب الود وجمع الشمل تحت وسادة مشتركة ، سياسية ، أو برلمانية ، أو اقتصادية أو ثقافية . . . . لم يكن الطرف

## نيس المحرير

العربي جداً بما فيه الكفاية ، ولكن أيضاً لم يكن الطرف الإفريقي ( مقتنعاً ) و ( معنياً ) بما فيه الكفاية - مع الاعتراف بما في هذا التعميم من تجاوز كشأن كل تعميم .

إنها مسألة محزنة . قد تكون لها أسباب تاريخية . وقد تكون هناك أصابع ( لعبة الأمم ) . وقد تكون هناك أولويات لكل جانب . ولكن ماهو ثابت أن المعوقات كثيرة ، وأن من أبرزها أن كل طرف على جانبي العلاقة يحاول أن يكون طرفاً فلا يستطيع ، إنه مشروع طرف . ولذلك لا يقوى على التجاوز والاختراق والمبادرة الفعالة .

وفي عالم الأدب يحن العربي إلى كل ماهو إفريقي ، ويسعى ويفتش ، ولكن الزاد المتاح قليل . في عالم الأدب يمكن القول إن الطرف العربي أعمق صبوة وأشد تعلقاً ، وغوايته تلاحقه ، في حين تبدو تضاريس كثيرة في الجانب الإفريقي مشغولة بمسودات ليلي أخرى ، كما تبدو مواقع أخرى مفتوحة ، تعرض قلبها للإصابة وترجو أن يصاب .

( الآداب الأجنبية ) تقدم عددها هذا عن الأدب الإفريقي ، لعلها تكون في ( جاهه ) الحاطبين ، وهي تعمي جيداً ، أن عروس الزنج المزدانة بقلائد الجمان ، عصية ، وبعيدة ، ومليشة بالأسرار . إذن لنقل إن هذا العدد ، الذي حكمه الذوق الفني قبل أي اعتبار آخر ، ليس سجلاً ولا مرآة ، ولكنه حزمة أغصان اقتطفت من شجرات متنوعة ، تطمع أن تجذب القارئ بشذاها أو بمرآها ، لعله يرشحها لأن تكون في جملة الحاطبين .

نحن هنا لالتفني الآخرين ، ولاتنافس ولانتقارن ، وإنما نضع يدنا في يد كل من بذل جهداً ، ونسعى ، حتى تنهيا ( للزقة ) أسبابها .

والفرص ، بعد ، ليست نهراً جارياً ، بل مواسم غيث لاتسهل دائماً استعادتها .



# القارة الإفريقية

## أصولها وتاريخها وحضارتها

محمد عدنان مراد

ARCHIVE مدخل:

لا يعرف المقيم وحتى الزائر للقارة الأفريقية ما يشده لهذه القارة العجيبة . فهل هو اعتدال مناخها رغم خط الاستواء ، امطارها الاستوائية الغزيرة كأفواه القرب سواؤها الصافية نهاراً ونجومها المتلألئة ليلاً ، انهارها الضخمة ، شمسها الأرجوانية التي تعكس في السماء ما هو موجود على الأرض ، غاباتها الكثيفة ، جبالها المكلفة بالثلوج وهي على خط الاستواء . مدنها الحديثة ، ريفها الجميل حيواناتها المستوحشة الساحرة دون رقيب . تقاليدها وعاداتها ، ورقصاتها وموسيقاها الإيقاعية التي لاتغيب عن السمع ، فلا عجب إذا حاول الأوروبيون البقاء فيها أطول مدة ممكنة .

أطلق عليها بعضهم تسمية ( القارة المظلمة ) ، في حين اعتبرها آخرون ( قارة المستقبل ) لأنها لم تستغل حتى الآن ، فهي كفتنة في ربيع العمر مملوءة حيوية ولكنها لا تزال نصف مكتشفة . لقد تفتحت حديثاً على العالم . فعمرها السياسي لا يتجاوز العقدين من الزمن ، وبدأ مع بداية الاستقلال ، وتعتبر اعوام الستينات اعوام القارة الإفريقية ، فقد اكملت جميع الشعوب الإفريقية تقريباً استقلالها السياسي ، وامتلات اروقة الأمم المتحدة بالوفود الإفريقية ، وجلس السود والسمر على مقاعد الأمم المتحدة وفي بلد التفرقة العنصرية ، بعد أن كان وجودهم في الأمم المتحدة مقتصراً على بعض الحرس من الشرطة الأمريكية . وحتى الحرب العالمية الثانية لم تكن فيها أية دولة مستقلة بالمعنى الصحيح فقد قضى الفاشست الإيطاليون على الدولة المستقلة استقلالاً فعلياً وهي إثيوبية عام ١٩٣٦ ، لذلك كان ظهور القارة على المسرح العالمي اعظم احداث هذا القرن . فبعد مسيرة طويلة على هامش الحياة ، انضمت القارة بطاقتها البشرية والاقتصادية إلى ركاب الحضارة وانطلقت من قمم الاستعمار بعد سجن طويل ، ورغم ان استغلال القارة بلغ ذروته في الحرب العالمية الثانية إلا أن ذلك فتح عيون الأفارقة على حقيقة قوتهم ، إذ اضطر المستعمرون إلى طلب المعونة من المستعمرين فقدمها هؤلاء عن طيب خاطر وبذلوا جهدهم لمعاونة المستعمر وفقدوا كثيراً من الضحايا في الحرب . وقد جند الأفارقة من عرب وزنوج وبانتسوا أكثر من مليون ونصف جندي عدا ملايين العمال والمستخدمين الذين عملوا في المصانع وفتح الطرقات وكل الاعمال التي تتطلبها الحرب . ومن موارد القارة وثرواتها المعدنية والاقتصادية استعاد الحلفاء الثقة بأنفسهم ، وكان الفضل للأفارقة في جلوس فرنسا على مائدة المنتصرين بعد هزيمتها المنكسرة في بداية الحرب .

ومع أن الحلف الأطلسي اعترف على لسان تشرشل عام ١٩٤١ « بحق



الشعوب في أن تختار نظام حياتها وحكومتها لنفسها » فقد حاولت الدول المستعمرة التملص من التزاماتها فوضعت العراقيل امام المسيرة الاستقلالية الافريقية . ولكن نشوب الثورات في كل من الجزائر وكينيا ( الماواو ) وانغولا وموزامبيق وزيمبابوي ، وغيرها أدى في النهاية الى الحصول على الاستقلال ، وفتحت ابواب القارة ، ودخلت للمسرح العالمي من الباب الواسع ، ومع الاستقلال بدأت تظهر المتناقضات في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فقد وجهها الاستعمار الوجهة التي لم تكن الشعوب الافريقية ترغب بها . فهو الذي حدد حدودها وفرض عليها نوع اقتصادها ، ولم تراع الحدود الموضوعة المتطلبات الضرورية لتشكيل حدود الدول ، والتي تمثل عادة في قمم الجبال وخطوط الوديان ومجاري المياه ، كما لم تراع الحدود النواحي العرقية والاجتماعية واللغوية . مما اربك حياتها واقتصادها الذي بني لفوائد استعمارية تخص المستعمر الأبيض وأدى الى الانقلابات التي تعاني منها اكثر الدول الافريقية حالياً ~~والتي~~ <sup>التي</sup> ~~استمضي~~ <sup>استمضي</sup> فترة ليست بالقصيرة لتتبلور الحياة الاجتماعية واللغوية في الدول الافريقية ضمن الحدود الدولية التي اتفق الجميع على عدم المساس بها . بعيداً عن الانتعاشات القبلية والدينية واللغوية . ولا يعود ذلك للتقصير في مستوى الشعوب الافريقية وتصميمها على الحياة بل للعراقيل التي وضعها المستعمر امام هذه الدول خلال فترة طويلة من الزمن تجاوزت في بعض الاماكن قرنين أو أكثر . وسترك الحديث عن النواحي السياسية والاقتصادية ومآتعيه القارة من مشاكل لا تحلها إلا الوحدات السياسية الكبرى والأسواق الاقتصادية المشتركة بعيداً عن الحدود السياسية التي خطتها مسطرة المستعمر ، وسنلقي بعض الضوء علي بعض النواحي الحضارية لهذه القارة وعن تشكيل مجتمعاتها واديانها ولغاتها . وبالطبع لا يمكن الامام بكل شيء في إفريقية ، فهناك أكثر من ١٥٠٠ جنس بشري يتكلمون أكثر من

١٥٠٠ لغة ، وهناك عدد لا يحصى من اللهجات ، ومئات من الأديان الوثنية  
عدا الديانات السماوية . ولذلك سنعمل على تقديم خريطة شاملة تعنى فقط  
بالتنوعات الرئيسية .

## مكونات رئيسية للمجتمعات الإفريقية

يمكن تقسيم القارة الأفريقية من الناحية العرقية إلى مجموعتين رئيسيتين  
كبيرتين هما :

أولاً - المجموعة القوقازية

ثانياً - المجموعة الزنجية

ARCHIVE

أولاً - المجموعة القوقازية :

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

أما المجموعة القوقازية فهي التي تنتمي إلى أصول القوقازية ، وتضم  
الشعوب الأفريقية ذات الأصول السامية والحامية المنتشرة على طول شواطئ  
البحر الأبيض المتوسط ، وترتبط بحضاراته من جهة وبحضارة العرب من جهة  
أخرى . ويتنمي إليها الشعب العربي السامي الذي يعيش أكثر من ثلثه في  
أفريقيا ، كما تضم الشعوب الحامية التي يطلق عليها اسم الشعوب الكوشية  
والتي تتكلم باللغة السنسكريتية ( الوجوه المحروقة ) ، مثل الشعوب الصومالية  
والبربرية والطوارق وشعوب الهضبة الحبشية من الكالا وارومو ، والقبائل  
السودانية كالبشارة والبجة ، والعفر ( الدناكل ) في جيبوتي . ونضم مجموعة  
الشعوب السامية أيضاً ما تبقى من سكان الهضبة الحبشية كالأهمره والتجراي  
والتجري ، وقد انحدر الأهمره على حسب ماتؤكد المصادر الحبشية من سلالة

القبائل الحميرية - السبائية التي اختلطت مع القبائل السوداء الإثيوبية القديمة ، ويعتقد بعض المؤرخين العرب ويؤكدون على الأصول العربية للبربر وأنهم أتوا من اليمن ، كما تؤكد قبائل ( الدنكا ) السودانية الكبيرة التي تعيش في جنوب السودان على أصلاتها العربية ، فهم أمويون أقاموا دولة قوية تعرف بدولة الزنج أو السلطنة الزرقاء . أما الشعب السواحلي الذي ينتشر على طول السواحل الأفريقية الشرقية فهو حديث ظهر بقسميه الشمالي والجنوبي من تزاوج العرب والشيرازيين بقبائل الموازيبا البانتوية التي قدمت من الكونغو في القرن الخامس عشر وكانت في يوم من الأيام من أكلة لحم البشر . وقد امتزج الحاميون والساميون بالشعوب الزنجية على حدود التماس بين هذين العرقين في اعالي النيل ومنطقة البحيرات وشكل مايعرف حالياً بالشعوب النيلية التي تعيش في جنوب السودان وشمال أوغندا ، وأهمها شعب الشيلك في جنوب السودان . كما انحدر المحاربون الساميون والحاميون المشهورون بطول القامة من الهضبة الحبشية وانجهموا جنوباً ووصلوا إلى مايعرف حالياً بجمهورية رواندا وبوروندي ، ومنهم شعب ( الواتوسي ) المشهور بطول قامات أفراد نساء ورجالاً ويصل الواحد منهم إلى أكثر من مترين ومثله المرأة ، وقد استعبدوا القبائل كالباهوتو والأقزام ولم يتخلص هؤلاء من سيطرة الواتوسي إلا بعد الاستقلال وبعد مجازر مأساوية .

وفي نفس الفترة التاريخية أي في نهاية الألف الأول من التاريخ الميلادي وصل إلى جزيرة مدغشقر الشعوب المعروفة بأسم ( هوفاس HOVAS ) والتي قدمت من ماليزيا وهي ذات أصول منغولية صفراء MONGOLOIDES ، وقد امتزج هؤلاء مع البانتوسكان الجزر مما اضعف خصائصهم الرئيسة إلا في وسط الجزيرة حيث لا تزال قبائل المارينا MARINA محافظة على خصائصها الماليزية ، وفي جزيرة ( مايوت ) التي تقع ضمن أرخبيل جزر القمر اكتشف أحد العلماء

الفرنسيين مخطوطاً عربياً قديماً يقول : « هذه قصة جزر القمر في العصور القديمة ، فقد روى لنا اجدادنا انه بعد عصر النبي سليمان بن داود جاء إلى جزيرة جازيدا ( القمر الكبرى ) رجلان عربيان من منطقة البحر الاحمر ومعهما زوجتاها واطفالهما وخدمتهما واستقروا في هذه الجزيرة ، وبعدهم جاء أناس كثيرون من افريقيا وزنجبار ليسكنوا الجزيرة » ، وهناك قصة يرونها اهل الجزيرة عن عرش بلقيس ملكة اليمن والموجود داخل فوهة بركان ( كارتالا ) الثائر دوماً ، ويقولون إنه يحمي العرش بثوراته .

### ثانياً - المجموعة الزنجية :

اما المجموعة الثانية فهي التي تعيش في جنوب الصحراء أي في تلك المنطقة من القارة التي تعرف باسم إفريقيا السوداء ، وتضم جميع الشعوب والأجناس البشرية السوداء ، ورغم انها ليست كلها من اصول زنجية إلا أنه اصطلاح على تسميتها بالمجموعة الزنجية والتي تضم عدداً كبيراً من المجموعات الكبيرة والصغيرة ويمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات أو أسر كبيرة هي :

#### ١ - مجموعة الأقزام Pygmoides

#### ٢ - مجموعة الزنوج Negroides أو ما يعرف بالزنوج الافحاح

Vrainebres

#### ٣ - مجموعة القبائل البوشمانية ( بوشمان ) Bushmanoides

١ - أما مجموعة الأقزام فيبلغ تعدادها حالياً حوالي مئتي ألف ، وهم من ذوي القامات القصيرة حيث لا يتجاوز طول الواحد منهم ١٥٠ سم ، مع الرأس المدور والشعر الأجعد واللون الداكن الأسود . وهم يعودون بأصولهم إلى منطقة البحيرات الكبرى ، والتي تعتبر في الواقع مركزاً رئيسياً من مراكز الضخ العرقي والانساني في افريقيا وذلك بسبب ملاءمتها للحياة الانسانية . إلا

أنها كثيرة المياه والأمطار مما يساعد على نمو الشجر بسرعة بسبب وقوعها على خط الاستواء أيضاً . وكانت هدفاً للغزوم من كل القبائل التي كانت تجوس المنطقة مما يجعل سكانها دائماً يتغيرون فالقادمون يحلون محل المهاجرين . وكانت القبائل تعمل على اقتناصهم لتسخيرهم في مختلف الاعمال كالصيد والاعتناء بالماشية وخدمة المحاربين ، فكان لكل محارب حتى وقت قصير مجموعة من الأقزام تقوم على خدمته وإطعامه . وقد اشتهروا بصيد الفيل بسبب تمكنهم من الوصول إلى جسمه وضربه في الأماكن الحساسة بالحرب المسمومة ، ويعود ذلك لقصر قامتهم . وقد وصلوا في هجرتهم إلى الغابات الاستوائية في تسوانا وجنوب غرب افريقيه ، وقد فقد قسم منهم خصائصه بعد اختلاطهم بالبانتو ، في حين احتفظت بعض قبائلهم مثل قبائل MBUTIS بصفات المميّزة . وتختلف ألوان الأقزام ، فمنهم من يميل إلى اللون الأصفر ومنهم إلى الأسود الداكن ومنهم من له خصائص الجنس المنغولي الذي قدم القارة قبل السود . ولا توجد علاقة بين أقزام افريقيا وبعض أنواع الأقزام في المحيط الهادي وآسيا ، ورغم قلتهم واشترائهم جميعاً بصفة القصر فهم أنواع كثيرة أهمها Bamabutti Ba — Binga وينتشر الأقزام في غابات الغابون - الكاميرون والكونغو ويعيشون على الصيد . ولا شك أن تفضيلهم للعيش في الغابات ناتج عن ضرورة حماية انفسهم من غارات القبائل الأخرى .

٢ - أما المجموعة البوشمانية ويطلق عليها في بعض الاحيان مجموعة الخوسان KHOSAN فتقسم هي نفسها إلى ثلاث مجموعات ( أو أسر ) : وهي :

البوشمان Bochman وهم صيادون ويتصفون بقصر القامة والأقدام الصغيرة وهم قريبو الشبه بالأقزام ، وجوههم سمراء منها ما يميل إلى الصفار ، وجلدهم اسود داكن مع بعض الصفار ، وشعرهم قصير وأجعد وعيونهم

صغيرة . وهم اصفى من المجموعة الثانية ( الهونتوت ) وأنفهم مسطح وهم يقسمون إلى ثلاثة مجموعات الفيا جنوبية - شالية - وسطى . وكل مجموعة تشكل نوعاً من القبيلة ولكل منها لغتها الخاصة بها ، وعدد البوشمان قليل لا يتجاوز الخمسين الفا ، وهم موزعون في منطقة الكاب وجنوب غرب القارة ، ويعيش البوشمان بمجموعات صغيرة تتألف من ٥٠ إلى ١٠٠ شخص ، يتكلمون نفس اللغة ولا يربي البوشمان الحيوانات وليسوا بمزارعين ويعيشون على الصيد .

الهونتوتوت Hottentots وهم مزارعون ويقتربون بخصائصهم من البوشمان وهؤلاء أطول وأقرب الى السواد من الصفار بسبب اختلاطهم القديم بالبانسو ، ويعتقد انهم جاءوا من تزاوج البوشمان بالشعوب الحامية ، ومن الحاميين اقتبسوا لغتهم وثقافتهم ويعيش الهونتوتوت حالياً في المناطق الغربية من جنوب افريقيا وحوالي نهر كتيون في شمال الكاب الواقعة في اقصى الجنوب ، وقد امتدت هجرتهم حتى وصلوا نهر ( كي ريفر ) ، وهم مقسمون إلى تسعة أقسام لكل منهم صفاته الخاصة ولغته ، والاعتقاد السائد أن البوشمان والهونتوتوت أي مجموعة الخوسان هم ورثة حضارة قديمة ويظهر ذلك في سلوكهم وحياتهم وفنونهم ( خاصة التصويرية ) . ويعتقد بعضهم أنهم قدموا من الشمال أي من منطقة البحيرات حيث وجدت رسوم بوشمانية على صخور جبال الحبشة وتنزانيا تماثل الرسوم والنقوش البوشمانية الموجودة حالياً في جبال ريتال بالقرب من هاري سميث في ولاية الأورانج الحرة والتي تصور كيفية صيد الحيوانات وكذلك رسوم معبرة لبعض حيوانات الغابة كالكركدن ، كما أن هناك نظرية تقول بأن أصولهم قدمت من اوربا عن طريق اسبانيا إلى شمال افريقيا وهم شعب الصيد الذي قام برسم آلاف اللوحات في جبال الحجارة ( الهوجار ) في الصحراء الجزائرية ، وقد غادروا منازلهم بسبب القحط والجفاف الذي

اصاب المنطقة قبل آلاف السنين .

أما المجموعة الثالثة البوشانية فهي : البير غداماس وهم قليلو العدد وهم في طريقهم للانقراض .

٣- مجموعة الزنوج ، وهي التي تعتبر اصل شعوب كل القارة السوداء ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام أو ( قبائل ) وهي

الزنوج NEGRES أو الزنوج الأقحاح True Negro ، ويعيش هؤلاء في غرب افريقيا ويتنازعون الأرض والسهول العشبية الشمالية مع الشعوب الحامية القادمة من شمال افريقية وفزان ، لذلك يختلط الجحسان في مناطق التماس هذه بشكل لا يمكن تمييزه كما هو الحال في امتزاج الزنوج الجنوبيين مع البانتو ، والزنوج على العموم مزارعون ، وهم اهل حضارة وهم القاعدة التي يحاول الرئيس سنغور الاستناد إليها في نظريته المعروفة ( بالزنجية ) ، على اساس امكانية تأليف دولة واحدة أو دولة اتحادية أو امة واحدة ذات نظام اتحادي منهم . ورغم اختلاف المؤرخين حول موطن الشعب الزنجي الأول إلا أن الرأي السائد هو أن الموطن الأصلي لهذا الشعب هو جنوب السودان ، وفي دراسة انتروبولوجية لعالم تشيكوسلوفاكي امضى فترة طويلة بين الشعوب السوداء نشرت في مجلة Solidarity التشيكوسلوفاكية اوضح أن الموطن الأصلي للزنوج هو جنوب السودان ، وقد انطلقوا في موجات متباعدة ولأسباب مجهولة اتجهوا نحو غرب القارة إلى المناطق الواقعة بين خليج غينية والصحراء . ومن المحتمل أن يكون ذلك سعيًا وراء العشب الصالح لغذاء الحيوانات وربما بعيداً عن الغابات الكثيفة التي تغطي منطقة البحيرات والتي تسرح فيها أنواع الحشرات السامة والثعابين الكبيرة وغيرها من الزواحف مما يجعل الحيوانات تهرب من المنطقة ولا تقترب منها وتفتش عن مناطق السافانا ذات الأشجار القصيرة المتباعدة والتي لا تجذب الشمس كثيراً عن الحيوانات ، وللزنجي الأصل

مميزاته الخاصة التي تميزه عن بقية سكان القارة السوداء ، فهو عادة ريع القامة قوي العضلات ، غليظ العظام ، ذؤانف مدور أو مفلطح وعيون كبيرة سوداء وبشرة سوداء لامعة تميزه عن الحامي ذي اللون البني الفاتح أو المحروق والقامة الطويلة ، وكذلك عن البوشمان والبانتمون ذوي الألوان السوداء الداكنة ، وعرف عن الزنجي حبه للعمل واتقانه الزراعة كما أن حضارته قديمة تشير الى تاريخه وتدفعه في مستقبله .

البانتو Banto ، وتعيش الشعوب البانتوية في جنوب خط الاستواء الذي يعتبر الحد الفاصل بين الشعوب الزنجية وشعوب البانتو ، ويتوزع هؤلاء إلى مجموعات عرقية كثيرة العدد تختلف في كثير من الخصائص ولا يجمعها سوى الأصول اللغوية . ويعتقد ان اصل شعوب البانتو من الجبال الجنوبية للكمرون وقد تركوها في القرون الأولى من الميلاد واجتازوا الغابات الاستوائية الكثيفة للكونغو بعد أن طردوا قبائل الأقزام أمامهم . وكانت لهم في هجرتهم اتجاهات ثلاثة : فالقسم الأول اتجه نحو كينيا وجنوب الحبشة والصومال واصطدم بالقبائل الهابطة من الهضبة الجنوبية لأثيوبية وتضم خليطاً من الحاميين والساميين وأوقف تقدمها ، واختلط قسم من هذه القبائل بالقبائل الصومالية التي كانت هي الأخرى في حركة دائمة من الشمال الى الجنوب ولذلك تظهر التأثيرات البانتوية بشكل واضح في جنوب الصومال وعلى خط الاستواء وعلى طول نهر جوبا ، وقد اثارت القبائل البانتوية التي وصلت سواحل كينيا الفرع بين السكان خاصة في المناطق الداخلية وقد وجدت بعض القرى مهجورة قريباً من ممباسا ويعتقد انها هربت من بطش هذه القبائل التي كانت تأكل البشر ، وقد وصل القسم الثاني إلى تنزانيا واثار الذعر أيضاً في مناطقها اما القسم الثالث وهو الذي هبط جنوباً في القرن الحادي عشر طارداً امامه القبائل البوشمانية التي كانت تغطي الأراضي التي تشكل حالياً زامبيا ومابين القرنين



السابع عشر والقرن التاسع عشر وصل قسم من هذه القبائل جنوب افريقيا واصطدم ( بالبوير ) الذين كانوا متجهين لاستيطان هضبة الأورانج والترانسفال . وبعد حروب طويلة ما بين ١٨٢٠ - ١٨٧٨ والتي عرفت باسم حروب الكفار Cafres خضعت القبائل البانتوية الجنوبية للبيض وطبقت عليهم سياسة الفصل العنصري Apartheid .

## اللغات الإفريقية وأسرها

اما اللغات المحلية فهي الاخرى متعددة ، وحسب تصنيف ( غرينبورغ ) في القرن التاسع عشر يمكن تعداد عشر مجموعات لغوية وكل مجموعة تقسم الى عدد كبير من المجموعات الصغيرة ، وعلى العموم فاللغات ذات الاصول المشتركة هي التي تحدد اجناس الشعوب ، فالأصول العرقية ليست مطلقة إذا لم تقتصر باللغة ، لذلك فالتصنيف اللغوي ينطبق بشكل كبير على التصنيف العرقي . واهم الأسر اللغوية هي الأسرة الكنفولية - الكردفانة ( نسبه إلى كردفان في السودان ) وتضم مجموعة اللغات المنتشرة بين نهر السينغال حتي كينيا ، ويطلق بعضهم على هذه اللغة ( اللغة السودانية ) ، وقد اطلق على المنطقة بين البحر الأحمر حتى المحيط أي من السودان حتى السينغال اسم السودان ، وظلت هذه التسمية حتى الحرب العالمية الثانية أو بالأحرى حتى الاستقلال . وتسمع هذه اللغة أيضاً في شال السودان وتصل إلى اسوان حيث يتكلم بها النوبة . وهذه اللغة فروع كثيرة مختلفة مثل لغات ( الولوف ) المنتشرة في السنغال ثم لغة ماندية MANDE في مالي واعالي خليج غينية كساحل العاج وغرب فولتا العليا وشرق السنغال وليبريا ثم لغة ( البمبرا ) المنتشرة في النيجر ثم اللغة ( الفولتية Valtique ) نسبة إلى نهر

الفولتا وتنتشر في المناطق الشرقية لانتشار لغة ماندية وقسم من فولتا العليا وشمال ساحل العاج - غانا - التوجو - داهومي ( بنين حالياً ) . ثم مجموعة كوا Kwa وتنتشر على شريط ساحلي ضيق في ليبيريا ودلتا نهر النيجر . ثم مجموعة اللغات بنوية - كونغو Benove conga ويعود إليهما القسم الأكبر من لغات ( البانتو ) ، ثم مجموعة لغات ( آدموا Adamoua الشرقية في الشمال من انتشار اللغات السابقة أي الكميرون والنشاد والسودان وجمهورية افريقيا الوسطى . ثم مجموعة اللغات النيلية - الصحراوية ( في تشاد - جمهورية افريقية الوسطى - السودان - كينيا - أوغندا - كونغو - مالي - النيجر ، ثم مجموعة اللغات الأفريقية - الآسيوية وتضم اللغات السامية والحامية - المصرية القديمة - البربرية - الكوشية التشادية ، وأخيراً لغة الخوسان التي يتكلم بها الهوتنتوت . وأكثر اللغات انتشاراً في جنوب شرق افريقيا من موزامبيق حتى الصومال هي اللغة السواحلية ، كما تنتشر هذه اللغة في الداخل وهي لغة حديثة ظهرت من امتزاج اللغة العربية والفارسية من جهة واللغة الأفريقية المحلية من جهة أخرى ، وتعتبر اللغة الأولى في ثلاث دول هي كينيا - تنزانيا - أوغندا ، وقسم من الكونغو حيث يطلق على أحد لهجاتها ( كينغوانا Kingwana . أما لغة انغالا NGALA فتشبهها أيضاً وتستعمل في غرب الكونغو . ثم لغة الهوسا التي تنتشر في كينيا غرب افريقيا في شمال افريقيا . وأهم اللغات المشتركة ذات الانتشار الكبير في الشمال اللغة العربية - البربرية - في شرق القارة - اللغة السواحلية - وفي غربها - الهوسا . وأغلب اللغات غير مكتوبة وهذا ما يؤدي إلى تحويلها هي نفسها أو تحويل الكلمات التي اقتبستها بحيث لا يمكن تمييزها .

ولم يحاول المستعمرون طيلة المدة الطويلة التي قضوها في القارة الأفريقية تطوير أي لغة من اللغات الأفريقية بل على العكس حاربوا اللغات الأصلية

والوطنية خاصة اللغة العربية التي كانت اللغة المشتركة لقسم كبير من السكان . ولانزال اكثر اللغات انتشاراً خاصة في المناطق الإسلامية بسبب اضطرار السكان لاستخدامها في الصلاة وقراءة القرآن . وقد حفظت اللغة العربية قسماً كبيراً من الآداب الإفريقية وتاريخ القارة فقد استخدمت كلغة للتسجيل في اغلب المناطق . وقد عملت الكتابيب في كل مكان على نشر اللغة العربية وكان يقوم على ادارتها ولايزال رجال الدين ، وقد اختص اهل موريتانيا بهذه المهنة ويطلق على رجل الدين ( مرابط ) ، وكانوا ولايزالون يستخدمون الصفائح الخشبية لتسجيل القرآن عليها . ولاشك أن اللغة العربية هي التي نشرت الثقافة والمعرفة في قسم كبير من القارة الأفريقية . كما استخدمها المكتشفون الأوائل للتفاهم مع الشعوب والقبائل التي كانوا يمرون عليها ، وكان سلطان زنجبار يزود هؤلاء بالتراجم . والصورة التي تمثل لقاء ليفستون مع ستانلي في قرية كازه Kازه في تنزانيا حالياً تظهر عدداً من الأشخاص الذين كانوا يرتدون الزي العربي . وقد رافق ستانلي احد الأدلاء الزنجباريين في رحلته لاكتشاف نهر الكونغو لحساب ملك بلجيكا . وعلى هذا الأساس لقي المستعمرون صعوبات كثيرة للتفاهم مع السكان عندما بدأوا يدخلون إلى اعماق القارة . وبما أن اللغة العربية كانت لغة المسلمين وعن طريقها كان المد الاسلامي في حالة مستمرة لذلك كان لابد من إيقاف اللغة العربية اعتقاداً منهم بأنه يمكن إيقاف المد الاسلامي . لذلك اخذوا في فرض لغاتهم فانتشرت اللغة الفرنسية في المناطق التي استعمرت من قبل كل من فرنسا وبلجيكا ، وأما الأنكليزية فقد انتشرت هي الأخرى في البلاد المستعمرة أو المحمية من قبل بريطانيا . كما أن كلاً من اللغة البرتغالية والإيطالية والأسبانية انتشرت في البلدان المستعمرة ، وكان لكل مستعمر طريقته فقد حاول الفرنسيون نشر لغتهم وثقافتهم في ادنى الطبقات عن طريق فرض التعليم باللغة الفرنسية

وأصبحت اللغة الرسمية في مختلف أنواع الإدارة . وعلى هذا الأساس تراجعت اللغات المحلية وانتشرت اللغة الفرنسية في مختلف الطبقات . أما الأنكليز فكانوا يعملون لجعل اللغة الأنكليزية لغة النخبة فقط ولم يكونوا بحاجة إلى الكوادر المحلية بل كانوا يستخدمون الجاليات الآسيوية كوسيط بينهم وبين الشعوب المستعمرة ، ولم يقف الأنكليز أمام تطور بعض اللغات المحلية خاصة اللغة السواحلية . وقد تبع الأسلوب الفرنسي كل من الإيطاليين والاسبان والبرتغاليين ، ورغم أن التقسيم المعروف بين ناطقين بالأنكليزية ( انكلوفون ) وناطقين بالفرنسية ( فرانكوفون ) لا يزال موجوداً إلا أن الأفارقة اخذوا يطورون بعض اللغات كل في بلده ، وبدأت هذه اللغات تزاحم اللغات الأجنبية ، وبدأت العودة إلى اللغة العربية خاصة في شمال افريقيا وفي كثير من الدول الأفريقية الإسلامية . خاصة أن أغلب اللغات المحلية متأثرة بشكل كبير باللغة العربية . ومن اللغات التي ظهرت حديثاً في افريقيا لغة سكان جنوب افريقيا البيض ويطلق عليها اسم لغة ( الأفريكانز ) وهي خليط بين اللغة الأنكليزية والهولندية واللغات المحلية . واقدم اللغات في افريقيا هي اللغة الأمهرية وتكتب بحروف خاصة تشبه الأحرف المسارية التي اكتشفت في اليمن ، وهي خليط من اللغة العربية الحميرية واللغة الظفارية في جنوب اليمن .

## الأديان

وتنتشر الأديان السماوية الثلاثة في افريقيا ، ولكن ورغم التبشير بهذه الأديان لا يزال قسم كبير من السكان يتبعون ديانات خاصة بهم ذات جذور عميقة في القارة الأفريقية . واكثر الأديان انتشاراً في القارة هو الدين

الاسلامي ، وقد وصل الاسلام للقارة عن عدة طرق ، أولها البحر الاحمر حيث وصل المهاجرون الأوائل الذين ارسلهم الرسول الى الحبشة ( مملكة اكسيوم ) واستقبلهم النجاشي وسمح لهم بالاقامة . وهناك اعتقاد لدى الصوماليين بأنهم اسلموا قبل العرب ، والعلاقات بين شاطئ البحر الاحمر قديمة ، وقد وصلت المسيحية ايضاً من هذا الطريق وكذلك اليهودية وذلك بسبب انتشار الديانتين في اليمن . وعندما كادت اليهودية في اليمن تقضي على الديانة المسيحية اندفع الاحباش إلى اليمن لانقاذ المسيحية كما اندفع القائد الحبشي المعروف باسم ( ابرهة الأشرم ) نحو الشمال للقضاء على عبادة الأوثان في مكة والاتصال بالرومان والتعاون معهم على حرب الفرس ، وقصته معروفة في القرآن عندما تراجع وهو على ابواب مكة حيث ارسل الله عليهم طيراً ابابيل ترميهم بحجارة من سجيل . وقد ظلت المسيحية الشرقية مزدهرة في الحبشة ولم يقترب العرب منها طيلة فتوحاتهم وقد قيل إن الرسول أوصى بالاحباش خيراً ،

أما الطريق الثاني لدخول الاسلام فكان سواحل البحر الأبيض المتوسط بعد أن احتل العرب شمال افريقيا واندفعوا إلى اعماق القارة خلال فترات متعاقبة فأسلمت بعض الامبراطوريات القديمة في غرب القارة واصبحت احدى الدعائم الاسلامية ، ومنها أخذ المد الاسلامي يتسع ويمتد حتى شمل القسم الأكبر من غرب افريقيا . وكانت تمبكتو من اهم المراكز الاسلامية في القارة وتاريخ الاسلام في هذه المنطقة هو تاريخ الدول والامبراطوريات التي ظهرت في المنطقة .

أما الطريق الثالث فكان من الشرق وعلى طول السواحل الشرقية لأفريقيا من القرن الأفريقي حتى مدغشقر وذلك عن طريق البحارة العرب الذين اخذوا يقيمون المؤسسات التجارية والمستوطنات على طول الشواطئ الشرقية للقارة الافريقية ووصلوا إلى مدغشقر وجزر القمر وزنجبار . وقد انتشر

الإسلام على خليج عدن وتم تأسيس دول إسلامية عرفت باسم دول الطراز الإسلامي . أما في الجنوب فقد دخل العرب في علاقات متعددة الأنواع مع القبائل في تلك المناطق حيث كان التجار العرب يقدمون المنسوجات والمواد المصنوعة ويأخذون المنتجات الأفريقية . ولكي يزيدوا في مبادلاتهم التجارية أخذوا ينظمون القوافل الكبيرة للدخول إلى أعماق القارة وبدأوا في بناء المستودعات التي تحولت إلى مستوطنات كان العرب يعيشون فيها ، وقد نقلوا معهم طراز حياتهم ودينهم وأخلاقهم مما أدى إلى إعجاب الأفارقة بهم ومع الزمن والتزاوج بدأ يظهر شعب جديد مختلط يدين بالإسلام ويتكلم لغة مزيجية (Sabir) . وأهم المستوطنات الداخلية كانت مدينة ( تابورا ) الواقعة حالياً في وسط تنزانيا ، ولم يحاول العرب خلق دولة في تلك المنطقة ومن المحتمل أن يكون مرد ذلك إلى عدم وجود العدد الكافي من العرب أو بسبب كونهم تجاراً . وعندما أخذ بعضهم يضغط على سلطان زنجبار بإيقاف التدخل البريطاني في المنطقة كان جوابه بأنه تاجر قبل أن يكون سلطاناً . وقد أسس العرب عدداً من المدن الساحلية كمدينة كلوه وماليندي ومباسا وزنجبار ودار السلام ، وكانت لهم روابط شتى مع الدول الإسلامية . وعندما وصل فاسكودغاما إلى مدينة كلوه في بداية القرن السادس عشر وطلب الجزية من السكان كان جواب سلطائهم بأنه تابع لسلطان مصر . وقد قبل الأفارقة الدين الإسلامي بسرعة بسبب ملاءمته لحياتهم البدائية وعدم وجود التعقيد فيه . وأهم من ذلك مساواته بين الألوان والعروق البشرية والسماح بتعدد الزوجات لأن النساء بالنسبة للأفارقة لسن فقط للحفاظ على النسل بل هنّ طاقة عمالية قوية . كما أن حرية العبادة في أي مكان بدون شروط جعل الإفريقي يألف الصلاة مادامت لا تحجز عليه حريته وتجعله مضطراً للذهاب إلى مكان العبادة . وما ساعد على انتشار الدين الإسلامي هو الأفارقة أنفسهم فبعد اعتناقهم الإسلام

اصبحوا من دعاة نشره في كافة انحاء القارة . وقد نجحوا نجاحاً باهراً ولا يزال الدين الاسلامي ينتشر على يد المبشرين الافارقة السود اكثر من انتشاره على يد الدعاة العرب البيض .

أما المسيحية فقد دخلت افريقيا منذ العصور الأولى لظهور المسيحية فأتى أول اتصال بين المسيحية وافريقيا من الشمال حيث الدول العربية أو بالاحرى المغرب العربي . وقد عرفت المسيحية الأفريقية في القرنين الرابع والخامس ازدهاراً كبيراً وقدمت للعالم المسيحي القديس ( سان اوغستين ) . وقد انتشرت المسيحية في وادي النيل ووصلت إلى بلاد النوبة حيث تأسست فيها ممالك مسيحية كما وصلت الحبشة عن طريق الرهبان السوريين . وفي القرون الوسطى كان هناك دول قبطية . وقد اساء غزوا الفندال للمسيحية ، وساعد على دخول العرب إلى شمال افريقيا واعتناق السكان للإسلام وهرب الرومان إلى ما وراء البحر في القرن السابع الميلادي . ومنذ ذلك الوقت انحصرت الديانة المسيحية في النوبة التي وقفت في وجه الغزاة المسلمين من الصوماليين والسودان . وربما كان لانعزال الحبشة وبعدها عن الطرق التجارية الكبرى وصعوبة اراضيها تأثير في احتفاظها بطابعها المسيحي في بحر من المسلمين .

أما بالنسبة للقارة السوداء أو بالأحرى الشعوب السوداء جنوب الصحراء فقد بدأت المسيحية في بادئ الأمر مع المستكشفين الذين بدأوا يرتادون المناطق الداخلية الوثنية ومع ذلك لم تنتشر المسيحية إلا في القرن التاسع عشر وكان انتشارها بطيئاً أيضاً . ويعزو اكثرهم عدم سرعة انتشار المسيحية في افريقيا إلى أن السود كانوا يربطون بين المستعمر حامل السياط والديانة المسيحية التي يمثلها المبشر ، وقد فطنت الكنيسة لهذه الناحية فأخذت ترسم رهباناً سود استطاعوا أن يقوموا بدور فعال في انتشار المسيحية . وعلى كل حال فقد انتشرت المسيحية

بعد انتشار التعليم وظهرت طبقة تعتمد عليها السلطات الحاكمة ، واصبحت المسيحية واسطة للوصول إلى السلطة . وظل قسم من هؤلاء حتى بعد الاستقلال يعملون في أعلى المراتب ومنهم سنغور الرئيس السابق لجمهورية السنغال التي تدين بالاسلام في اغليتها ، وكذلك نيريري . وتنتشر الكاثوليكية في المناطق التي كانت مستعمرات فرنسية وبلجيكية وأما البروتستانتية فتنشر هي الأخرى في مناطق الأنكلوفون هي والانجليكانية .

أما اليهودية فلم يكن لها دور فعال أو تأثير في القارة الأفريقية ولا توجد اليهودية حالياً إلا في اثيوبية حيث توجد جالية صغيرة يهودية تسمى ( فلاشا ) وهي قديمة جداً .

أما الديانات الوثنية فهي كثيرة الانتشار في القارة الأفريقية خاصة بين الأقوام السوداء في وسط وجنوب الصحراء ، وليست هذه الديانات سوى تقاليد افريقية لذلك كثر عدد الديانات واختلفت اتجاهاتها وكثر تعقيدها ومازال كثير من المعتقدات التقليدية قائماً بين السكان المعتنقين المسيحية أو اليهودية ، إن الديانات التقليدية وهي في معظمها زنجية افريقية الأصل وما زالت ممتدة إلى اعظم جزء في افريقيا ، وهي وإن كانت شديدة التباين في ظاهرها - كما هو الحال بالنسبة للجماعات البشرية ايضاً - فإننا نستطيع أن نعرّث بدون مشقة كبيرة على وحدة اساسية لها . والمثل على ذلك المعتقدات في كل من السودان والنيجر والكونغو وقد احتفظت تلك المعتقدات الدينية بكامل حيويتها في الجهات الريفية ولم تفقد إلا القليل من قوتها في المراكز الحضرية . وتشارك كثير من المجتمعات الدينية بالتعريف بالإله الذي تطلق عليه القبائل اسماء شتى فاسمه فارو Faro لدى البمبرة ونيامي Nyame ، ولدى الأشانبي اسمه ماوو Mawou ولدى الأيويز Ewes شوكو وكذلك لدى الايبو ، ويعتقد الأفارقة أن



الإله بعيد جدا لا يمكن الوصول اليه لذلك لا بد من وجود إله وسيط يشترك فيه النساء والرجال ويقدم هو المساعدة لهم ومثل هذه الألهة يقيم على الأرض . كما عرف عن الرجل الأسود انه مرتبط جداً بمجتمعه لذلك كانت الأديان الوثنية مرتبطة بالأجداد والأجداد هم اسياء احياء أو أموات وهم المحافظون على الحق والمعنويات وهم مقدسون ، والاحتفالات التي تسجل دخول اليافعين ضمن الحياة الاجتماعية تسجل هي الأخرى شكلاً مميزاً للتناسك في المجموعة العرقية وللطبيعة ايضاً التركيب في الديانات الأفريقية فهي التي تحيط بالانسان وتغلفه وهي اصل خلق الكون وتنسج حوها الحرافات التقليدية وكل العمليات السحرية والتنبؤ بالغيب وللسحرة والمنجمين دور كبير في الحياة الاجتماعية الوثنية .



ورغم أن العمر الحضاري للقارة مديد وقديم قدم ارضها إلا أن المعلومات عنه قليلة خاصة المعلومات عن الشعوب التي كانت ولا تزال تعيش جنوب الصحراء ، ويعود الفضل للمؤلفات العربية الكثيرة والرحالة العرب الذين اغنوا التاريخ بمعلوماتهم عن القارة الافريقية شرقاً وغرباً افريقيا ، وكذلك عن شرق افريقيا ، ومن اشهر من اعطى فكرة واضحة عن غرب القارة هو الرحالة مشهور ابن بطوطة الذي زار دولة مالي التي كانت تضم كل البلاد ما بين البحر والنيل . أما مناطق افريقية السوداء فالمعلومات عنها قليلة خاصة جنوب القارة . فالتجار العرب الذين دخلوها لم يتركوا أية كتابات عن الشعوب التي كانوا يتاجرون معها خوفاً من ان ينافسهم تجار آخرون إذا تحدثوا عن خيراتها . لذلك فالمعلومات الأوروبية الحديثة هي المرجع التاريخي هذه

نُتَظَق . وضمن هذا السياق تظهر حقيقة ثابتة وهي أن القارة لم تكن معزولة عن العالم كما يقول المؤرخون الغربيون بل كانت معزولة عن أوروبا فقط أو بالأحرى مقطوعة منذ وصول العرب لشمال إفريقيا بعد أن كانت متصلة . كما أن المعلومات التي قدمها الرحالة العرب لاندل على أن تلك القارة كانت مظلمة بعيدة عن الحضارات ، فقد وجدت فيها آثار حضارات على مستويات مختلفة . كما يعتقد كثير من الأنثروبولوجيين أن الحياة الانسانية الأولى ظهرت في هذه القارة .

إن أول ما عرف عن الحضارة الأفريقية هو مايتصل بالمناطق الشمالية الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط والتي كان لها اتصال مع الحضارتين الأفرقية والرومانية . وأقدم منها الحضارة المصرية التي تعتبر بحق هي حضارة إفريقية خالصة . فقد ترعرعت في وادي النيل وكان القائمون عليها ينتمون إلى القارة الأفريقية . أما الحضارتان الأخريان فيمكن اعتبارهما حضارتين مستوردتين من الخارج . ويمكن القول إن الدولة المصرية القديمة هي أول كيان سياسي منظم في تاريخ العالم ، كما ازدهرت حضارة أخرى في شمال إفريقيا وهي حضارة قرطاجة التي أسسها الفينيقيون عام ٨١٤ ق.م وقد قدموا من السواحل السورية يحملون معهم حضارتهم وخبرتهم التجارية والبحرية . ونمت مستوطنتهم بسرعة وبنت امبراطورية شملت اسبانيا ، وفي الوقت نفسه ظهرت روما وأدى ذلك إلى المنافسة بين الدولتين وكان ان انطلق القائد القرطاجي هانيبال إلى روما بجيشه البالغ عدده ٥٩ ألف جندي مع سبعة أفيال بعد أن عبر البحر إلى اسبانيا واجتاز جبال الالب . ورغم انتصارات القائد القرطاجي هانيبال الأولية إلا أن الرومان اجتازوا البحر وهاجوا قرطاجة واحتلوها عام ١٤١ ق.م ولكنها بعد فترة ظهرت كمدينة رومانية ، ودُمِّرت بعد ذلك على يد الفندال ثم أعيد بناؤها من بعدهم ولكنها أهملت بعد الفتح

العربي ، وكانت قرطاجة الأولى بفضل نشاط أهلها عاصمة لامبراطورية بحرية كبيرة بلغت مراكبها اعمدة هر كول ( جبل طارق ) الذي كان يعتبرها نهاية العالم . وفي عام ٥٧٠ ق.م وجهت المستكشف الفينيقي ( حانون ) للتعرف على السواحل الأفريقية الغربية وقام هذا برحلته إلى أن بلغ السنغال والغابون وما وراء خط الاستواء ، ويمكن القول إنها أول رحلة استكشافية للقارة الأفريقية . وفي طريق البر كانت القوافل الفينيقية تصل في ظرف ثلاثين يوماً إلى قرمنت وفزان والسودان ولم تقتصر علاقة الفينيقيين بالقارة الأفريقية على طريق شمال افريقيا بل إن الفينيقيين كانوا يعرفون السواحل الشرقية لأفريقية ويقال أنهم جلبوا النحاس والذهب للملك سليمان بالتعاون مع ملكهم حيرام من ( اوفير ) الأسطورية والتي يقال انها زيمبابوي . وفي العهد الروماني اصبح البربر اهل علم وصناعة واتسع نطاق الفلاحة بفضل الفينيقيين الذين كانوا يعلمونهم فنونها ، وقضت التصراعية على عبادة الأوثان ، وقد استطاعت روما احتلال كافة السواحل الأفريقية وقضت على مملكة كيلوبترا وماسينيسا في نوميريا فخضعت لها كافة البلاد من البحر الأحمر حتى المغرب ( الأطلسي ) ، وإن كان احتلال الرومان للمغرب جزئياً .

وهكذا أصبحت منطقة شمال افريقيا رومانية لمدة اربعة قرون بسبب الاستيطان الروماني في حين أن اليونانيين والفينيقيين لم يؤسسوا في افريقيا الشمالية سوى محطات ، كما خلق الرمان حضارة افريقية واقاموا مدناً ضخمة على الطراز اللاتيني لاتزال باقية اثارها في ليبيا وتونس ومصر مثل طرابلس لبيتيس ماغنا Leptis Magna وتيبسا Tebessa . ولكن الأزمات السياسية والاقتصادية هزت الامبراطورية الرومانية وزعزعت استقرار المقاطعات الرومانية ولاسيما الخلافات الدينية ، وزاد في ذلك هجمات القبائل البدائية التي كانت تمتلك عدداً كبيراً من الجمال يساعدها على سرعة الحركة . ثم اتى البربر

وخلفهم الفندال عام ٤٢٩ واحتلوا إفريقيا ودخلوها كمحررين وساعدهم السكان ولكن لم يستطيعوا إدارتها بالشكل الصحيح . وقد استعابها جوستينيان عام ٥٣٣ م وظلت تحت حكم الرومان حتى وصول العرب . اما في داخل القارة خاصة في منطقة النوبة في صعيد مصر ، التي كانت تعرف بمملكة ( قروه ) ، فلا يعرف اصولها التاريخية ولا يزال الغموض يكتنفها ، وقد عثر في تلك المنطقة على هياكل منتشرة في وادي النيل متأثرة بالفن المصري والفن الإثيوبي المائل في مملكة الكسيوم التي اسمها الصابئة . وقد ساعدت المسيحية على بناء الكنائس ذات الطابع المسيحي المحلي وتأسست دول مسيحية ، وكانت النوبة لاتزال مسيحية عندما زار ابن بطوطة دنقله ، كما اكتشف في صحراء الجزائر عدد كبير من النقوش المنحوتة أو المرسومة على جدران الكهوف ودلت على أن تلك الصحراء لم تكن خالية وربما كانت صالحة للسكن في العهود الجليدية التي كانت تعطي أوروبا وتالانها من العهود .

اما افريقية السوداء فلا توجد معلومات عنها في هذه الفترة عدا ماكتبه بعض الرحالة اليونانيين عن الساحل الشرقي وماكتشفت عنه الحفريات ( بالنوك ) من المنحوتات التي يرجع عهدها إلى ما قبل المسيح .

في عام ٦٧٠ أسس العرب مدينة القيروان بعد أن احتلوا مصر وبرقة وظلوا لعدة قرون في اتصال مع البربر حتى استطاعوا استيعاب البربر ونشر الدين الإسلامي فيهم . وتوالت على افريقيا دول عربية مزقت شمل افريقيا العربية ، والمرة الوحيدة التي توحدت فيها كانت أثناء حكم الفاطميين . وأخذت مصر دورا كبيرا بين اعوام ٩٦٩ - ١١٧١ م . وخلال هذه الفترة تعربت المنطقة بعد أن اسلمت خاصة بعد وصول قبائل بني سليم وبني هلال إليها بما يعرف بالقصص الشعبي ( تغريبة بني هلال ) . وحتى ذلك الوقت كان العرب لا يزالون وراء خط الصحراء وإلى الشمال ولم يجربوا النزول نحو

الغابات والسهول العشبية وكانت هناك امبراطوريات قديمة افريقية ، الأولى في الشرق وهي دولة اكسيوم التي كانت تضم اريتيرية واثيوبية ، وقد اعتنقت في القرن التاسع العقيدة التي تقول بالطبيعة الواحدة للمسيح . وظهرت عائلة السلومونيين ( نسبة إلى الملك سليمان ) عام ١٢٧٠ وكان هذه الدولة اتصالات مع الخارج وكانت تعرف باسم مملكة القديس يوحنا ( البريسترجون ) . وهنا بدأ البرتغاليون يصلون إلى القارة وهم في طريقهم إلى الهند ، وكان البرتغاليون يحملون بالوصول إلى هذه الدولة وطلب مساعدتها للقضاء على العرب والمسلمين . اما في الغرب اي مايعرف بالسودان فقد ظهرت سلسلة الامبراطوريات حتى وصول الأوروبيين في القرن التاسع عشر . وقد كان دخول العرب إلى افريقيا حدثاً هاماً بالنسبة إليها فقد غير معالمها وخلق مجتمعات حضارية جديدة . وأدى انتشار الاسلام إلى الربط بين شمال افريقيا وغربها ، وكذلك بين افريقيا الشرقية والغربية عدا العلاقات التي عادت بين اسبانيا والشمال الافريقي وقطعت خلال هذه الفترة العلاقات بين اوربا وافريقيا حتى الفترة التي بدأ فيها العرب بالتمركز على السواحل الأوربية . وقد استولى العرب الأوائل على المناطق الشمالية - الغربية من القارة في حين واصل الاسلام مسيرة بطيئاً عميقاً في بعض المناطق وسطحياً في بعضها الاخرين القبائل البربرية والطوارق وقبائل تيبو الحامية وعبر الصحراء ، واصبحت الدول حوله مسلمة وتتصل فيما بينها عن طريق الصحراء .

في القرن الحادي عشر انطلق المرابطون من ادنى السودان لفتح المغرب بعد أن نشروا الاسلام في الاقاليم الأهلة بالزنج من العراق الحامي المتوسطي وبالنيلين والنوبيين وفي البلاد الواقعة جنوب الصحراء من السنغال حتى وادي النيل الاعلى ، وقد ادى ذلك إلى دخول امبراطورية مالي التي كانت تحكم أعالي النيجر في الاسلام ، كما دخل امراء غانة وتبعهم حكام النكرورو وإن كانوا

قد احتفظوا ببعض العادات الوثنية . وقد ظلت امبراطورية مالي قائمة من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر وامتلات حدودها في بعض الأوقات حتى سواحل غامبيا وشملت النيجر الأوسط وسيطرت على المناطق المنتجة للذهب فزودت منه البلاد الاسلامية حتى أوروبا ولم تنقرض هذه الأمبراطورية إلا في القرن السادس عشر اثر غزو المغرب لها . وقد اشتهر حكامها بالعدل ونشر الثقافة الاسلامية واصبحت مدينة ( تمبكتو ) مركزا للثقافة الاسلامية الافريقية وكان ملوكها يلقبون باسم منسا أي الأمير اطور وقد زار الرحالة ابن بطوطة مملكة مالي عامي ١٣٥٢ - ١٣٥٣ واعجب بها وكتب عنها ، وقال إن شعب مالي قلما يحيد عن العدل ، ويفزع من الظلم أكثر من الشعوب الأخرى . ولاناخذ سلطانهم أي شفقة ورحمة بمن تثبت إدانته في اقتراف الظلم ، والأمن مستتب غاية الاستبواب ، ويأمن المسافرون أو المقيمون فيها حيث لا يخشى احدهم اللصوص أو قطاع الطرق . ومالي في التاريخ الأفريقي اسم رنان ارتبط بقوة السلطان وبريق الذهب . وفي القرن السادس عشر كتب القاضي السوداني محمود كعت يقول : « وكنا نسمع من اعوام عصرنا يقولون : سلاطين الدنيا اربعة ، خلا السلطان الاعظم ( يقصد الخليفة العثماني ) ، سلطان بغداد وسلطان مصر - وسلطان برن ( يقصد مملكة برنو حول بحيرة تشاد ) وسلطان مل ( يقصد مالي ) وقد قامت دولة مالي على اكتاف قبائل الماندنغو التي كانت مسيطرة لقرون طويلة على المنطقة الفسيحة الممتدة بين نهر النيجر والمحيط الاطلسي وتشكل هذه القبائل اغلبية السكان في كل من غينية ومالي . وفي تلك الرقعة الواسعة اجتمعت لدولة مالي في عصر ازدهارها ثروات جعلت صيتها يتردد عالياً في ذلك الوقت أي العصر الوسيط ، خاصة ماكان لديها من ثروة الذهب في بامبوكا وبوريه ونقاره وملح الصحراء في تفازه ومناجم النحاس في تكده . وقد وصف ابن بطوطة كيف يستخرجون النحاس . وكانت

مالي قد ورثت مملكة غانا الوثنية التي وصفها ابن خلدون بأنها « اعظم امة واضخم ملك » ، حتى باتت تعتبر بحق أولى حلقات التاريخ القومي لغرب افريقيا وأول تجربة أو أقدم ما عرف من تجارب الحكم الوطني الناجح بتلك البلاد . وقد اضعف الدولة الغزوات المراكشية عام ١٥٩١ . ولم تكتسب الدعوة الاسلامية حافزاً جديداً إلا في القرن الثامن عشر عندما انشأ ( التكارنة ) نظاماً ثيوقراطياً جديداً ( يقصد التكلور ( Touelour ) ) في فوتاجلون الواقعة في غينيا سنة ١٧٢٠ وفي سنة ١٧٧٦ اخضعوا الغول ( الغولاني ) الوثنيين للاسلام . كما خلفت امبراطورية مالي وفي المنطقة نفسها امبراطورية سونغاي في كاو ( اوصني ) من منتصف القرن الخامس عشر إلى القرن السادس عشر ، وعرفها المؤرخون العرب باسم كوكو وكان اشهر ملوكها واعظمهم شانا ( اسكيا محمد ١٤٩٣ - ١٥٢٨ ) . وكانت دولة اقطاعية كبرى ورثت مملكة الماندينغو ( امبراطورية مالي ) . وقد وفق فيما بعد - عثمان دان فوجو النكروري إلى ادخال الحوز في الاسلام واسس سنة ١٨٠٢ مملكة سوكوتو . وكان عمر وهو ينسب إلى قبيلة عثمان نفسها قد التحق ، فيما كان يؤدي فريضة الحج ، بالطريقة التيجانية فأقطعه رئيسها الأكبر السودان ، ولقد اخضع ابتداء من سنة ١٨٣٨ القسم الأعظم من السودان الذي اعترف لدن وفاته سنة ١٨٦٤ بالاسلام ديناً للدولة ، وكانت امبراطورية الحاج عمر والساموري Samory هي التي قضى عليها الفرنسيون عام ١٨٩٠ اثناء حكم خلفاء الحاج عمر . وقد ظهرت أيضاً في المنطقة سلسلة من الممالك اكثر تواضعاً وكانت تضم مدينة واحدة أو تضم بعضاً من جيرانها مثل مملكة بمباراسيفو Bambaras segau والبيول Peoul ومسينا Macina ومملكة الموسي في فولتا العليا .

وفي السودان الأوسط عند بحيرة تشاد انتشر الاسلام منذ القرن الحادي

عشر في كاتم ، ولكن دعائمه لم تنوطد في بورنو ( بونو ) وباجرمي إلا في القرن السادس عشر في حين لم يتم ذلك في ودائي إلا في القرن السابع عشر وكانت كل من بورنو وباجرمي قد استستا بعد ضعف قبائل اغوسا ما بين القرن الرابع عشر والقرن السادس عشر . اما في السودان الشرقي فقد دخل اهل النوبة وكانوا نصارى حتى القرن السابع عشر في الدين الاسلامي عن طريق مصر . ولكن الاسلام لم يحقق تقدماً كبيراً جداً إلا بعد الفتح المصري في القرن التاسع عشر .

وتعتبر دولة سليمان باشا دولة عربية ، فأبوه الزبير باشا كان يحكم باسم والي مصر منطقة بحر الغزال ما بين ( ١٨٧٠ - ١٨٨٠ م ) ، وقد استدعاه والي المصري وسجنه ، ولكن ابنه سليمان تولى مكانه واصطدم بغوردون البريطاني الذي كان يحكم السودان باسم مصر . وكان هذا يمهّد للسلطة البريطانية في المنطقة على اساس أنه يحارب الرقيق عام ١٨٧٩ . واتفق سليمان مع هارون سلطان درافور الذي كان هارباً من وجه الانكليز على محاربة تمودون . ولكن تمودون ارسل احد قادته المرتزقة وهو الايطالي جسي باشا لمحاربتهم فخاف سليمان باشا واعلن عن استعداده للاستسلام . ولكن اخاه في الرضاعة ( رباح ) وهو عربي من سنار رفض ذلك وصمم على محاربة الانكليز . وانفصل عن سليمان باشا مع اربعة آلاف جندي من افضل جنود الزبير باشا ، وقد استطاع اخضاع حاكم دولة كوتي الزنجية وصد هجوماً قام به سلطان ودائي عليه ، كما رفض متابعة المهدي بعد استلامه الحكم في السودان على اساس رفض السنوسيين للمهدي واتهامهم له بالزندقة . ثم اتجه رباح إلى تشاد بعد أن اخفق هجومه على سلطنة ودائي عام ١٨٨٧ وفي سنة ١٨٩٢ هاجم سلطان باجرمي واحتل عاصمته بوجوبعد حصار دام سبعة اشهر . ثم إن بورنو سقطت بين يديه عام ١٨٩٣ واستطاع بعد ذلك بناء امبراطورية



واسعة ممتدة مابين ودائي في الشمال وسوكوتو في الجنوب وإمارة ادماوو التي خضعت بعد ذلك للالمان والدولة المهدية في الشرق وقد ابقى سلاطين هذه البلاد ولكنه وضع معهم بعض المستشارين من قبله ، وكان رباح رجلاً متديناً وتابعاً للطريقة السنوسية لذلك حاول تطبيق الشرع الاسلامي في مملكته ، وكان لديه جيش مدرب بتعداد خمسة آلاف جندي مسلحين بالبنادق و٤٤ مدفعاً وكان يتمتع بحس قيادي ممتاز استطاع أن يتصرف في كل المعارك التي خاضها ، وكانت دولته مبنية على تجارة العبيد واخيراً اصطدم بالفرنسيين الذين كانوا يعملون على توحيد مستعمراتهم . وكانت مملكة رباح تقف في طريقهم وارسلوا له قوات كبيرة اتجهت من مختلف مناطق المستعمرات ورغم انتصارات رباح الأولية على القوات الفرنسية وقوات حلفائها من السلاطين هزم رباح في كوسوري Kousseri الواقعة على شاطئ نهر شاري في ٢٢ نيسان ١٩٠٠ . وقد دارت رحى معركة دهييه بين بيوت البلدة ولكن رباح قتل أثناء المعركة اثر اصابته بإحدى الرصاصات الطائشة . وهكذا انتهت دولة رباح التي كانت آخر مقاومة للعرب في تلك المناطق .

أما بالنسبة للمناطق الجنوبية لخط الاستواء فقد ظلت المعلومات مضطربة ولكن هناك دلائل تدل على وجود سلسلة من الدويلات أو اتحادات للقبائل في منطقة لوانغو Loango وفي حوض الكونغو . وتجمعت مثل هذه الدويلات في بعض الأحيان على شكل امبراطورية أو امبراطوريات مثل ممالك : الكونغو ، باكوبا ، بالوبا ، بالوندا التي ظهرت في اواسط النهر . وقد بلغت هذه الممالك اوجها بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر . واشهر الدلائل على وجود هذه الدول هو وجود المدن المبنية بالحجارة ولا يعرف متى هجرت هذه المدن ولكن يبدو أن انهيارها لم يسبق انتشار تجارة العبيد إلا بقليل . أما دول البانتو فالمعلومات أيضاً عنها غير مستقرة ولكن هناك ايضاً دلائل على

وجود سلسلة من دول البانتو ظهرت ما بين انغولا وموزامبيك ويعتقد أن شعوب البانتو أقامت بمساهمة الغزاة الحاميين أو المنحدرين من اعالي النيل ممالك ظهرت فوق النجاد بين البحيرات العظيمة وابتداء من القرن الخامس عشر واصلت شعوب أخرى من البانتو كشعب لوزي وسوثر وتونغوا ونتوتي زحفها إلى الجنوب الشرقي من القارة إلى ابعد من مملكة مونوموتابا Monomotapa مكتسحة شعوب الخوسان ، أما مملكة ( مونوموتابا ) فقد تولدت في القرن الخامس عشر من اتحاد مجموعة من دول البانتو ولا توجد معلومات كثيرة عنها سوى بعض الأوراق البرتغالية وبعض الآثار .

وفي عام ١٨٥٧ وصل بعض المبشرين ، وأولهم روبرت موف ، عن طريق جنوب افريقية ، وقد اجتمع المبشر المذكور بالزعيم الأفريقي . ( موسيليكاته ) وتم تأسيس أول بعثة تبشيرية عام ١٨٦١ . ومن اشهر من قاتل البوير والانكليز الزعيم الأفريقي المشهور ( شاكا ) الذي استطاع أن يؤلف اتحاداً من مجموعة من القبائل الصغيرة العائدة لقبائل أنغولي وأمبو M'bo ولا لا Lala وعرف باسم اتحاد الزولو الذي اشتهر افراده بشجاعتهم وقد اجتمع لشاكا اكثر من مائة الف محارب مدرب استطاع بهم أن يوقف تقدم البوير . ولكن ( شاكا ) قتل من قبل حاشيته بسبب قسوته ، وتولى مكانه اخوه ( دينغان ) عام ١٨٢٨ واستطاع هذا القضاء على احد جيوش البوير في شباط ١٩٣٨ ولكنه هزم امام ( بروتوريوس ) ، فاضطر للهرب إلى سوازيلاند ، ولكن الانكليز لحقوا به واسروه في معركة جرت عام ١٨٧٩ ، وقد قتل في هذه المعركة ابن نابليون الثالث الفرنسي . واصبحت دولة الزولو عام ١٨٨٧ محمية بريطانية ثم الحقت بجمهورية الترانسفال والنااتال عام ١٨٩٧ . ويعود حالياً شعب زيمبابوي وزامبيا إلى هذا الخليط من قبائل الشونا ، النديبله ، وانجولي ، والقبائل الأخيرة تشكل غالبية سكان ملاوي بعد أن استقرت في

القرن التاسع عشر على البحيرة ، وقبل ذلك ظلت فترة لا بأس بها تضرب في المنطقة ثم عبرت في تشرين الثاني ١٨٣٥ المجاري السفلية لنهر الزامبيزي . اما قبائل ( ماكولو ) فقد عبرت المجاري العلوية لنهر الزامبيزي بقيادة زعيمها زيبوتوان Zebituane وفرضت نفسها على بلاد البارونس Barotse كما فرضت عليها لغتها وتقاليدها وقضت على اللغة التي كانت سائدة والتي عرفت باسم ( سيكولو ) ، رغم انه لم يخضع لها سوى عدد قليل من القبائل ولا تزال هذه القبيلة محتفظة بتقاليدها ومجتمعها الخاص وبملكها ويعتبر انتقال الملك من عاصمته الشتوية إلى العاصمة الصيفية في مستنقعات البارونسي إحدى المناسبات الجميلة التي يسعى لرؤيتها السياح في جمهورية زامبيا . اما قبائل ( التونغا ) Tongas فتشكل حالياً الأغلبية النسبية في زامبيا واغلبهم مزارعون أو مربو الأبقار ، كما أن بعضهم أصبح الآن من كبار الملاك .

وحالياً تعد هذه القبيلة أكثر القبائل ملكية للأبقار . وعلى العموم فالبقرة بالنسبة لأغلب سكان جنوب ووسط وشرق إفريقيا ذات أهمية كبيرة وتلعب دوراً مهماً في حياتهم ، والغني يعد بعدد الأبقار التي لديه ، وتقدم الأبقار عادة كمهر . وتكتفي أكثر القبائل بحليب البقر كغذاء يومي لها مع بعض منتجات الغابة .

أما قبائل اللوزي The lozis فتعيش حالياً في منطقة البارونسي ، وتتكلم حوالي ٢٥ لغة ويعتقد أن اللوزي وصلوا إلى غرب ما يعرف حالياً زامبيا من الكونغو .

ومن المعتقد أنه منذ ألف إلى ألف ومائتي عام وفي المنطقة التي تعيش فيها حالياً قبائل ( التونغا ) في وسط زامبيا وفي وادي الزامبيزي ازدهرت تجارة بين سكان السواحل الغربية والعرب الذين كانوا يعيشون على سواحل افريقية الشرقية . وقد وجدت آثار الجرار والحاجات التي كان يستعملها التجار . وكان

هناك تبادل تجاري بين الطرفين ، إذ كان سكان الوادي يقدمون للعرب النحاس بوجه خاص . كما وصل التجار العرب إلى ملاوي ووسطوا سيطرتهم على القبائل الموجودة خاصة في منطقة زيمبابوي الحالية ، ودخل قسم من السكان الاسلام وكانوا يقايضون مع السكان المواد المصنوعة مقابل الذهب .

وقبل نهاية القرن التاسع عشر اخذت هذه القبائل المسألة تتعرض لهجمات البرتغاليين والخلاسيين القادمين من انغولا وموزامبيق وبالتعاون مع قبائل البمبا والنغوني التي كانت تسهل مهمة هؤلاء وتتعاون معهم لاقتناص الرقيق . وفي عام ١٨٥١ وصل دافيد ليغنستون إلى اعالي نهر الزاميزي واكتشف شلالات مكتوريا التي تعتبر اعلى شلالات العالم ويزيد ارتفاعها على مئة متر ، ويطلق عليها بعضهم ( شلالات العبيد ) ، وقد ارتاد ليغنستون حوض الزاميزي وجنوب بحيرة كاتنغا ، وتوفي في أيار عام ١٨٧٣ . ولاشك أن كلمة اكتشاف لا تخص سوى الأوروبيين الذين كانوا يجهلون تلك البلاد ، أما العرب فكانت لديهم معرفة كاملة فيها وجاسوا ديارهم وفي كل مكان وصلوا إليه قاوم اهلوه الأوروبيين عند وصولهم إليه .

وفي عام ١٨٩٠ وصل مبعوثو ( سيسيل رودوس ) ، الاستعماري البريطاني المشهور الذي كان قد فرض سيطرته على جنوب افريقيا بعد هزيمة البوير ، الزعيم الأفريقي ( ليوانيك Lewamika الذي وضع بلاده تحت الحماية البريطانية وسمى البلاد ( روديسيا ) .

وتنتشر قبائل ( بانتويه ) في كينيا مثل الكيكيو Kikuys الذين اشتهروا بشورتهم المعروفة و ( الماوماو ) وهم يشكلون الأغلبية القبلية في كينيا ، ويضاف إليهم قبائل لوس Luos والكامبا والكالنجين . ويعتبر الكيكيو من اذكى قبائل كينيا وأكثرهم استيعاباً للحضارة ، وهم حالياً يشكلون الاغلبية في المدن واصبح منهم كبار التجار والمثقفين بالاضافة إلى المزارعين . وتشكل قبائل

/الماساي/ ، رغم قلة عددها وانتشارها في دول عدة ، كتلة واحدة . وكانت القبائل جميعها تخافهم فهم محاربون شجعان طوال القامة والوانهم تختلف عن الوان بقية القبائل ، وهم رعاة لا يعرفون الزراعة والفلاحة ويربون الأبقار .

وكانت الأراضي المعروفة الآن باسم اوغندا لألف سنة خلت محطاً لسلسلة من هجرات الشعوب الحامية ( Hamites ) والنيلية Nilotes والحامية النيلية ( Nilo Hamites ) المقاومة من الشمال . وقد تسلط الغزاة على القسم الشمالي لأوغندا وهو القسم غير المأهول وفرضوا لغتهم وحاولوا ادخال مناهجهم الاجتماعية والسياسية .

أما المناطق الجنوبية الغربية فقد تعرضت هي الأخرى للغزو ، وقد أصبح هؤلاء في القرن السادس عشر الطبقة الأرستقراطية الحاكمة في منطقة مأهولة خاصة من شعوب ناطقة بلغة ( البانتو ) ، ونشأت بعد ذلك عدة ممالك منها : بونيرو ، بوغندا ، وانكولا ، ولكل منها شكل خاص في طريقة الحكم المركزي . وقد كان التمييز بين الحكام ورعاياهم أكثر وضوحاً في مملكة انكولا بينما في الممالك الأخرى زال ذلك التمييز نتيجة للترواج بين الطبقة الحاكمة والرعايا ، ولمدة قرنين من الزمن تقريباً كانت بونيرو أكثر هذه الدول قوة وشكيمة . ولكن في القرن التاسع عشر وصلت مملكة البوغندا إلى مصاف القيادة . وهذه المملكة هي التي اتصل بها التجار العرب كما كانت هناك علاقة وثيقة بين ملكها موتيسا وسلطان زنجبار وعلى العموم كان المستوى الحضاري لهذه المنطقة أعلى منه في الجنوب ، عدا الكونغو حيث كانت هناك ممالك كثيرة ظهرت خلال هذه المرحلة الطويلة ولكن كلها كانت أقل من مستوى ممالك اوغندا .

وتتمن اغلب الشعوب الأفريقية الشمالية التي هي خليط من الساميين والحاميين بفروعهم الشرقية والغربية الزراعة والفلاحة ، وهم ذوو حضارة

قديمة ، ولكن القسم الأكبر من الحاميين الشرقيين هم رعاة كالصوماليين والفاالا وشعب ارومو . ويفترق الصوماليون عن الفالا بأن كلا الجنسين طوال القامة ولكن الفالا اغلظ عظاماً ويمتهن كثير منهم الزراعة اما شعب ارومو الذي يعيش في جنوب غرب اثيوبية فهو يشبه الصوماليين من كل النواحي ولكن يتكلمون لغة خاصة بهم وهم أيضاً يمتنون الرعي . والشعب الصومالي شعب قديم عرف باتصاله مع مصر اثناء حكم الفراعنة فقد زارت الملكة حتشبوت بلاد الصومال وكانت تسمى بلاد (الينت ) وسجلت الرحلة على جدران المعابد البحرية في مصر . ولا يختلف مايرتديه الصوماليون حالياً عما كانوا يرتدونه عند زيارة الملكة لهم . وهناك نظرية بأن الهيكسوس (الملوك الرعاة) هم من الصومال . ومن بين الحاميين ايضاً شعب التيو وهم رعاة ايضاً ويعيشون في شمال جمهورية تشاد ويشبهون الصوماليين في اغلب صفاتهم . وتوجد في السودان قبائل البجة واليشارة وغيرهم ، ويسبب القشتيش عن الكلا فهم في حركة دائمة وراء قطعان الماشية من اغنام وابقار وجمال . ففي الشمال تربي الاغنام بكثرة اما في الجنوب فالبقر هو السائد وهم لا يعرفون الحدود الدولية والسبب الأكبر في الخلاف بين اثيوبية والصومال سببه هو الحركة الدائمة للرعاة بين البلدين ، فعلى طول الحدود تقع المراعي ، وكثيراً ما تجدد الرعاة بعيدين عن مواطنهم بأكثر من الف كم ويحدث هذا دائماً في مختلف الحدود في افريقية خاصة بين الصحراء والغابات حيث سهول السافانا في فولتا العليا - النيجر - مالي - كينيا الصومال - تشاد - ليبيا . ورعاة البقر من قبائل البيول يصلون في بعض الأحيان حتى منطقة فوتا ديجالون Fouta Digalon المرتفعة في غينيا وحتى آدمونا في الكمرون ، ويهبطون جنوباً حتى بحيرة تنغانيكا في تنزانيا ، أما رعاة البقر من البانتو فيصلون إلى جنوب وغرب افريقيا حيث يختلطون بالمزارعين وفي بعض الأحيان يقومون بزراعة بعض الأرض .

أما مدغشقر التي تردد عليها العرب في القرون الوسطى ثم البرتغاليون ثم الفرنسيون فقد تكونت فيها ممالك سكالافا ثم مملكة مارينا وكانت عاصمتها مدينة قنناريف ، وقد بسطت نفوذها في القرن التاسع عشر على ثلثي الجزيرة .

لم تكن هذه الأمبراطوريات والدول إلا ظواهر متصلة لتمرکز بمجمعات بدائية كانت تتخلق حول زعيم قوي . وكان دائماً السبب هو فكرة الحماية من خطر ما . ويبدأ التركيز بشكل بسيط ويكاد يختصر ثم يتوسع حسب الحاجة وحسب البيئة والإمكانات . وقد استطاع بعض القادة أن يصبح زعيماً قلياً كبيراً ثم يصبح ملكاً وزعيم امبراطورية . وعلى هذا الأساس بدأ كبار الملوك من الماندنغو والسونغاي وبورنو ، وكانوا يوزعون الأرض والأشخاص والحيوانات والأقنان والعبيد وحتى النساء على رجالهم المخلصين ، ويأخذون الضرائب كل منهم على طريقته الخاصة . وكانت هذه الضرائب تساعد على الاتفاق خاصة على الأمور العسكرية . ولم تكن هناك حاجات اجتماعية كثيرة للصرف عليها ولذلك كانت الدولة أو الشعب فيها مؤلفاً من الحماية والمحامين ومن كل الطبقات التي تبدأ من الفن إلى الملك . وكثيراً ما كان الملك يدير تجاره . ومنهم من كان يقود الحملات للحصول على الأموال من القبائل أو الدول الأخرى ، ومنهم من كان له صفات مقدسة أو يعطى لنفسه صفات مقدسة مما يجعله يتحكم في حياة القبيلة أو الدولة ويرثه ولده ويرث جميع ما يملك . ولدى القبائل الوثنية كان يرث نساءه مما يجعل بعضهم أن يكون لديه أكثر من مئة جارية . وعندما وصل المكتشف البرتغالي بيكر إلى أوغندا وجد نساء الملك لا يستطعن السير لفرط السمنة ، وقد ذكر ابن بطوطة أن ملك مالي منسا سليمان كان لديه زوجتان فقط ، ولكن كان عدد الجوارى حوله كبيراً . وكلما كبر الزعيم كبر معه بلاطه الذي كان يضم عدداً من أصحاب المراتب

والخادم ويقوم على رأسهم شخص يمكن أن يصبح هو الحاكم الفعلي . وكان للملك عادة نواب مسز ولون امامه ، وكانوا يديرون المقاطعات ويرسلون الضرائب للملك ، وكان الملك يسكن في المنطقة التي يفضلها ، وكانت العواصم موانئ تقبل عليها افواج القوافل الصحراوية وتنطلق منها .

وكانت عواصم الدول السوداء السودانية في الحقيقة واسطة الارتباط بين افريقيا السوداء وافريقيا البيضاء . ومن اشهر العواصم مدينة كومبي عاصمة امبراطورية (غانا) ، وكذلك مدينة (برنو) عاصمة السنوغي (مملكة برنو) ، وكذلك (دورا) عاصمة الهوسا ، و(كانو) ، ومدينة كوماسي عاصمة مملكة الأشاني ، ثم (مبالي) عاصمة مملكة الكونغو ، وأكثر المدن كانت مبنية من الطين وخشب الغابة ، وكان التعامل في المدن السوداء يتم عن طريق مبادلة الحلي الزجاجية كالحروز وقطع الملح والودع **والثبر (الذهب)** . وقد ذكر ابن بطوطة « أن الملح كثير هناك وبالمال يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة ويقطعونه قطعاً ويتبايعون به ، وقريه تغازا ( حيث مناجم الذهب ) على حقاتها يتعامل فيها بالقناطر المقتطعة بالذهب » . اما مجتمعات الادغال فكانت تعتمد في عيشتها علي أنتاجها الخاص ، فالفلاح الأفريقي منذ صغره يتعلم جملة الطرق الفنية المتبعة في مجتمعه ، فهو يحسن القيام بجميع الحركات الفنية المتصلة بوضعه في المجموعة ، فريش القبيلة يستطيع بناء منزله ووضع

اثائه ومباشرة اشغال الفلاحة بحقله وتربية الماشية ويصبح بالاضافة الى ذلك صياد أسماك ماهر وصانع سلات حاذق . واكثر ما اثار الأوروبيين عند وصولهم الى افريقيا هو وسائل المخابرات التي كان يستعملها السكان للاتصال فيما بينهم . وكانت الأخبار تنتقل بسرعة من قرية إلى قرية وكان الطبل اكثر الوسائل استعمالاً بين الأفارقة في المخابرات ، ولكنه لم يكن الطريقة الوحيدة فكان هناك الصفيير الذي كان لا يقل انتشاراً عن الطبل وخاصة بين سكان



تشاد . وكانت المخابرات تعتمد على ركنين : النغمات وتغير حسب اللغات واللهجات ثم الايقاع . ويعتقد أن ضاربي الطبول ينتمون إلى طبقة معينة تستعمل لغة مشتركة لا يفهمها احد سواهم ، وهم قادرون على تأويل كل رسالة صوتية مهما كان اصلها .

## الفنون الإفريقية

أما الفنون الإفريقية فهي من أكثر فنون العالم تنوعاً واختلافاً سواء من حيث العصور التي بدأت فيها ومن حيث الأماكن التي فيها ازدهرت . ويمكن حصرها في مجموعتين كبيرتين .

الأولى : ترعرعت في البلاد المتاخمة للبحر الأبيض المتوسط ، وهذه الفنون في الواقع بعيدة عن أن تكون إفريقية بحتة ولكن تأثيرات إفريقية دخلت عليها ويمكن أن نجد هذه الفنون في المدن العربية كفاس والقير وان وتونس والقاهرة . أما المجموعة الثانية فهي ما يعرف بالفن الإفريقي البحت أو بالأحرى الفن الزنجي الذي ترعرع في السافانا السودانية وفي الغابات الاستوائية بعيداً عن التأثير الإسلامي الذي لا يرضى بوجود الأصنام ولو كانت للفن . وستقتصر في احاديثنا على الفن الزنجي الذي ظهر في القرن الثالث عشر . ومع ذلك فالحفريات كثيرة ويمكن أن نجمع منها آثاراً للثقافة الداخلية تقسم منها ما هو متعلق بفن الأزمنة السحيقة مثل رسوم صحراء تاسيلي Tassili في كتنغا Katangea والرسوم البوشمانية . واقدام انتاج فني إفريقي يصل إلى القرن الخامس قبل الميلاد ( ثقافة نوك ) . ومع بداية العصر الميلادي يمكن معرفة الثقافة الزيمبابوية القرن السادس الميلادي ، وكذلك ثقافة ساو Sao في القرن التاسع . وفي القرن الثالث عشر ظهرت الأمبراطوريات الإفريقية

الكبيرة ( اليوروبا وينين ) . واعتباراً من القرن الخامس عشر ظهرت امبراطوريات الكونغو وداهومي و . . . الخ وقد انتجت هذه الممالك اعمالاً فنية عديدة وهامة حتى القرن التاسع عشر أي عندما وصل الأوروبيون ، ومنذ ذلك التاريخ بدأ الفن الأفريقي عملية التراجع .

وبالرغم من الأصالة التي يتمتع بها الفن الأفريقي القديم يبدو أنه تأثر كثيراً بالفن المصري القديم . وربما أيضاً بالفن الروماني القادم من شمال أفريقيا ، وقد وجدت قطع من الجرار الصيني في زيمبابوي ، كما تأثر الفن الأفريقي بالفن العربي خاصة في السودان . وتعرضت الفنون الساحلية في وقت متأخر للتأثيرات الأوروبية خاصة البرتغالية . اما فنون القبائل السوداء فقد نمت خاصة ضمن المجتمعات الدينية واستخدمت كمراسم دينية حين تظهر الأهمية الكبرى لاحترام روح الأجداد والأقنعة ذات التأثير السحري ، وفي الأمبراطوريات الكبرى أخذ الفن ينتج نحو الفن التزييني للأعمال اليدوية وللصناعات الخشبية مثل الصناديق وعلايين التدخين وسنادات الرأس التي تشبه المخدة . ويضع الواحد منهم عنقه عليها وينام لثلا يشوه جمال شعره . كما بلغ صنع الجرار حدوداً عالية من المعرفة . ويسبب كثرة الشجر فكانت كل الأعمال الفنية من الخشب ويرز في هذا المجال فنانون كثر . وافضل من نقش على الخشب هم شعب الدوغن Dogons الذي يعيش في مرتفعات البانديغارا في مالي ، ويحتفظون بثقافة خاصة بهم ويشعوروني على مستوى ممزوج بروح دينية زاهلة ومتصوفة . واشهر اعمالهم هي التي تمثل مجموعات من رجل وامرأة متلاصقين أو متقابلين ، وبعض اعضائهما موحدة . وتنقش هذه على الكتل الخشبية الكبيرة وتزين بالنقوش والجواهر . ويمكن اعتبار فن / الدوغن / نموذجاً للفن الأفريقي . وهم في الحقيقة رواد الفنون الزنجرية . اما الأقنعة فكانت من الخشب الطري ولذلك كانت سريعة العطب خاصة الأقنعة الطويلة

والتي تمثل الحيوانات ( الطواطم جمع طوطم ) كالفهد والتمساح ومنها ما نقش عليه كيفية خلق الكون .

أما النقوش الحجرية فنادرة وقديمة جداً مثل الفاب ( Ifes والكيسي Kissis ) ( أسماء قبائل ) . أما العاج فقد صنع بشكل جيد ومطلوب جداً . وقد اشتهرت بنين بعمل النقش على الأنياب ، وصنعت على شكل اقنعة صغيرة مرسومة باللون الأحمر - البرتقالي الخاصة بقبائل بابندية Babende . أما صناعة البرنز فلم تزدهر إلا لدى بعض الشعوب الأكثر تطوراً . وقد اشتهرت الأخيرة بالأطبقة النحاسية . ويعتقد أن شعوب البانتو عرفت الحديد واستخدمته وصنعت المسابك من أجل الحصول عليه كما عرف بعضهم صناعة النسيج واستخراج اللآلئ .

والدارس للفن الأفريقي من حيث مبادئه وأساليبه يجد أن هذا الفن ليس تكملته خارجية ، بل أنه منبعث من المجتمع يساهم في وصف مثله العليا . وقيمته ، والفنون الأفريقية كغيرها من الفنون إنما هي الفئحة تعبر عن الوضعيات الجوهرية الخاصة بالمجموع فهي وسائل اتصالات ذهنية واداة انسجام . وقد اشتهر في العصر الحديث الرسامون الزائريون ( الكونغو ) الذين رسموا الطبيعة ونقلوها نقلاً أميناً .

إن أفضل من عبر ببضع سطور عن تاريخ الحضارة الأفريقية وثقافتها القديمة والحديثة والمنابع التي اقتبست منها هذه الحضارة هو الرئيس السنغالي سنغور ، الذي يعتبر من كبار المثقفين الأفارقة عدا كونه من كبار المثقفين العالميين ، وذلك في البرقية التي أرسلها لإدارة مهرجان الجزائر لعام ١٩٦٩ ، الذي يعتبر بحق أول وأفضل مهرجان ثقافي للجامعة العربية ، وقد ضم مختلف العناصر الثقافية والحضارية للقارة الأفريقية . وتأتي أهمية هذا المهرجان من أنه جاء مباشرة بعد حصول أكثر الدول الأفريقية على استقلالها ، وتقول البرقية

« إنه يحس بأن الروح الأفريقية Africanite ستسيطر على جو المهرجان ، وقال إن القارة الأفريقية ماهي إلا حوار دائم بين عرب - وبربر ، وزنوج ، وأفارقة أي بين عرقين أصيلين يتم أحدهما الآخر ، وعلى هذا فبال تأكيد كانت قارتنا المعجوز مهد الحياة الإنسانية الأول ، وهي تحتفظ بكهوفها وحفائرها بتاريخ الحضارات الأولى وذلك بالرسوم والنقوش الموجودة في هذه الأماكن ، وهي تحمل دائماً على أرضها المآثر الأصيلة للحضارة المصرية القديمة كما تعرفت على بناء الحضارة الغربية الأوائل . وشاهد على ذلك آثار قرطاجة الرائعة وتيبازا: Typaza وفولوبيليس Volubilis ، وهي لانزال تحفظ في المعابد والكنائس القبطية في الثيوبية الحس المسيحي البدائي - وقد استقبلت على طول الشاطئ الواسع ، المد الإسلامي . وقد عرفت أخيراً كيف تستقبل ماتقدمه لها الحضارة الأوروبية ، والتي تمثلت في الاستقلال والصدافة التي استعادت مكانتها بيننا وبين أوروبا . ثم يذكر ستغور كيف ساهمت الحضارة الإفريقية بفن النحت ، ويقول : في هذه الأيام حيث يجرب الإنسان السير على القمر والتأكيد للإنسانية على اكتشاف الأفاق البعيدة في مجرتنا ، يمكن أن يظهر الاصرار على التمسك بثقافتنا وكأنه مفاجأة . وإن الفن والتقنية كانا دائماً مترابطين بشكل لا يمكن فصل واحدتهما عن الآخر ، فهما التوأمين للنشاط الإنساني الخلاق والنحات هو ابن الحداد .

إن كل شعوب قارتنا الأم أفريقيًا مدعوة للتنافس وإظهار ماورثته من ثقافة « مصادر وإبداع ، تقاليد ومآثر » كشواهد على حضارتها وفنها وأدبها . أليس هذا شيئاً طبعياً ؟ فرغم اختلاف الأجناس والعروق واللغات والأديان فالحضارة الأفريقية كما قال فوربينوس Forbenius « من الجزائر حتى الكاب ومن دكاكر حتى أديس إبابا تظهر الأوابد التي هي القواعد المثبتة لوحدتنا : تمثيل وانصاف نوك Nok وساو Sao ومسيلات اكسيوم واهرامات زيمبابوي

وبرونز بنين Benine وأيف Ife . المساجد الأندلسية في فاس . مخطوطات  
 تمبكتو ، وبقايا القصر الملكي في ابومي Abomey والأقنعة المقدسة للدوغن  
 Dogons واليمبرا Bambaras والباولية Baoules وغيرها من الابداعات  
 الفنية ، اغانيها وإيقاع رقصاتها ، كتابنا وفنانونا هم اليوم شواهد على قدم  
 وصلابة وديمومة الفن الإفريقي »

## المراجع

- الموسوعة البريطانية Eneyclapaedia Britanica
- الموسوعة الفرنسية Grand ( LAROUSE ) Encyclofedique
- العروق الأفريقية : Races of AFRICA
- تأليف : C. G. Seligman
- اطلس الشؤون الأفريقية An Atlas of african affaires
- تأليف : Andrew Boydand & Patrik van Rensberg
- مشكلة الحدود الإفريقية African Boundaru Problems
- تأليف : Carl Gosta - Widstand Uppsala
- تاريخ القارة الأفريقية 1918 - 1967 A History of Africa
- تأليف : أكاديمية العلوم السوفيتية معهد افريقيا ، موسكو ،

١٩٦٨ .

- افريقية والثورة : الرئيس احمد سيكوتوري
- غانا : تقاليد وثقافات ، بقلم عبد المنعم شمس وكامل عبد الحميد
- تاريخ الشعوب الاسلامية ، كارل بروكلمان .
- مجلة Natioanal Geograpie الاعداد : (١) المجموعة (١٦١) ،
- العدد (١) المجموعة ١٥٨ ، العدد (٥) مجموعة ١٦٠ ، العدد ٦٥

مجموعة ١٥٩ ، العدد ٦ مجموعة ١٥٦ ، عن كل من كينيا - اوغندا - زيمبابوي

- الصومال - الطوارق

- مجلة السياسة الدولية الاعداد ٢٧ - ٣٠ - ٦ - ٣٣ :

(١) - افريقية وازمة الحركة الوحدوية الدكتور بطرس بطرس غالي

(٢) - وجهة الاسلام في القارة الافريقية الدكتور عبد العزيز كامل

(٣) - الاقليات الآسيوية في شرق القارة الدكتور عبد الملك عودة

(٤) - خريطة الوحدة الافريقية بعد عقدها الأول احمد أبو شادي

- افريقية الجديدة - الحكومة التونسية

- رحلة ابن بطوطة





(١) بيير الكسندر، *Candide en Afrique*

ou le voyage d'ibn Batouta

(L Histor N6 Dec. 1983)

- هذه الدراسة هي تعريب موسّع ، ضُمّت معلومات إضافية للإيضاح والتوثيق . وبيير الكسندر كاتب البحث بالفرنسية واحد من كبار الباحثين في حضارات إفريقية . كان أول من أدخل دراسة لغات البانتو الإفريقية إلى الجامعات الفرنسية ومراكز البحث العلمي . وهو حالياً المدير - المستشار للمعهد الإفريقي الدولي ، ورئيس تحرير مجلة دراسات إفريقية و Cahiers d'Etudes Africaines ، أساذي المعهد القومي للغات والحضارات الشرقية . نشر في عام ١٩٨١ كتاباً هاماً بعنوان : الإفريقيون ، بالفرنسية . دار نشر ليدس .

كان « كانديد » الشخصية الرئيسية في حكاية لفولتير يظهر فيها أن الكمال غير موجود حتى في أفضل العوالم الممكنة الوجود . وأضحى بطل حكاية المفكر الفرنسي ، بعدئذ نموذجاً للإنسان البسيط البري . حيثما حلّ وأينما حط عصا الترحال . فهل كان ابن بطوطة « كانديد » في عالم الحقيقة ، الرجل الطيب البري . الباحث عن المعرفة في بلاد الشرق ، قبل أن ترنسم صورة كانديد في خيال الفيلسوف الفرنسي الفذ ؟

في العام ١٣٥١ م غادر الرحالة العربي المغربي ابن بطوطة مدينة فاس في المغرب الأقصى متوجهاً إلى مالي في غربي إفريقية . وكانت حصيلة الرحلة وما صادفه الكاتب فيها مذكرات وتقاوير واختباراً تنم عن حب الاستطلاع والسذاجة والبذل إلى الاعتراض وتحليلها النكتة الذكية البارة ، اجتمعت كلها في كتاب رائع بقي حتى اليوم شاهداً لا مُعادل له في الأهمية عن الحياة اليومية في إفريقية في تلك المرحلة من تاريخ العصور الوسطى .

#### ١ - عصر ابن بطوطة :

قبل ما يقرب من نصف قرن كان تلامذة المدارس من أبناء المستعمرين الفرنسيين ، ومن كان يتاح لهم مشاركتهم من أبناء البلاد في ما كان يدعى آنذاك إفريقية الغربية ، يتلقون دروس التاريخ من الكتب التي ألفها لهم أساتذة ذلك الجيل من أمثال لافيس وماكية وإيزاك ، تماماً كأقرانهم من التلاميذ الذين كانوا يدرسون في مدارس فرنسا نفسها ولا بد أن هؤلاء التلاميذ الذين أصبحوا بعدئذ رجال الإدارة والدولة في أوطانهم بعد استقلالها ، قد



حفظوا بصورة قائمة عن القرن الرابع عشر بما مرّ فيه من أحداث : حرب المئة عام ( وهي الحرب التي وقعت بين انكلترا وفرنسا ١٣٣٧ - ١٤٥٣ ) ، وليكلوز L Ecluse ( معركة بحرية انتصر فيها الانكليز على الفرنسيين عام ١٣٤٠ ) ، وكريسي ( معركة هزم فيها الفرنسيون وانتصر الانكليز عام ١٣٤٦ ) ، وانتصار حنا الطيب في بواتيه ( ١٣٥٦ ) ، وثورات الفلاحين ( أهمها في ١٣٥٨ ) والطاعون الاسود والوباء . كانت هذه الاحداث في تلك المرحلة من تاريخ فرنسا المضطرب هي التي تفرض دراستها على التلميذ الافريقي في عصر الاستعمار بينما كان القرن الرابع عشر الميلادي ( الثامن الهجري ) على العكس من هذا في افريقية الغربية . إنه عصر الذروة في تاريخ سلطنة مالي كما يطلعنا على ذلك شاهد عيان هو الرحالة العربي المغربي ابن بطوطة ، شمس الدين ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن يوسف اللواتي الطنجي الذي ينسب الى قبيلة لواته المغربية ، كما ينسب الى مدينة طنجة التي ولد فيها عام ١٣٠٤ م . وثوفي في فاس اوعلى مقربة منها ما بين ١٣٦٨ - ١٣٧٧ . وابن بطوطة هي شهرة له ولعائلته .

## ٢ - رحالة العصر :

حمل ابن بطوطة خلال حياته عصا الترحال والتجوال في كل ديار الاسلام وبلغ بلاد بعيدة خارج العالم الاسلامي وسار في طرق امتدت من شواطئ الاطلسي الى شواطئ المحيطين الهندي والهادي وبلغ اليمن والهند وآسيا الوسطى والصين ومربا فريقية الشرقية وجزر المالديف وسيلان والملايو وإندونيسيا . أما رحلته الى الصحراء والسودان الغربي ( ٧٤١ هـ / ١٣٥٢ م - ٧٤٣ هـ / ١٣٥٣ م ) فيبدو انها كانت آخر رحلاته الكبرى ، انسحب بعدها الى فاس ليدخل بلاط السلطان أبي عنان المريني في المغرب الاقصى .

وكان ابن بطوطه قد قام بأولى رحلاته الكبرى ما بين ١٣٢٤/٧٢٥ - ١٣٤٩/٧٣٨ ، وجاب فيها اقطار شبال إفريقيا ومصر والمشرق العربي وإفريقية الشرقية وجزيرة العرب واليمن وقصد القسطنطينية ثم عاد الى الهند . اما في الرحلة الثانية ١٣٥٠/٧٣٩ - ١٣٥١/٧٤٠ فقد وصل الاندلس وجبل طارق وغرناطة . وأما الرحلة الثالثة وهي تقع في اواسط القرن الثامن الهجري / القرن الرابع عشر الميلادي فهي موضوع حديثنا .

وبناء على طلب السلطان المغربي أملى ابن بطوطه لتخبر رحلته المشهورة « تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار » على الوزير الكاتب ابن جزي<sup>(١)</sup> . وقد أملى ابن بطوطه رحلته من ذاكرته بعد أن فقد ، فيما قبل ، كثيراً مما سجله إبان سفره وترحاله . ومع ذلك فقد كان دقيقاً لدرجة أنه يمكن تتبع طرق رحلاته على خرائط اليوم . ومنها رحلته الإفريقية التي انطلقت من منبته الى مالي عن طريق صحراء موريتانيا . أما عودته الى فاس فكانت عن طريق التيجز وصحراء الجزائر<sup>(٢)</sup> .

وقد وصف ابن جزي طريقة تأليف الكتاب فيما يلي : « صدر الأمر العالي ان يضم أطراف ما املاه الشيخ أبو عبد الله في تصنيف يكون على فوائده مشتملاً ، ولنبيل مقاصده مكتملاً متوخياً تنقيح الكلام وتهذيبه معتمداً ايضاحه وتقريره ليقع الاستمتاع بتلك الطُرف وليعظم الانتفاع بذكرها عند تحريده من الصدف » وقد تولى كاتب السلطان رواية الرحلة وتلخيصها وترتيبها وإضافة

(١) - محمد بن محمد ابن جزي : كاتب أديب غرناطي من الاندلس من قبيلة كلب

العربية ، له كتاب قوانين ابن جزي ، وهو من اساندة لسان الدين ابن الخطيب .

(المترجم)

(٢) كثر المستشرق الفرنسي مونتيال الرحلة الى غربي افريقية استناداً الى خط سير

ابن بطوطه .

بعض الأشعار اليها وتحقيق بعض أجزائها مستعينا بكتب الرحلات المعروفة في ذلك العصر ولا سيما رحلة ابن جبير ثم سهاها : « تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » لم تأت أية ترجمة لابن بطوطة في كتب معاصريه الا في كتاب الدرر الكامنة للمحافظ وفي مقدمة ابن خلدون (١) ولذا فلا نعرف عن شخصية ابن بطوطة الا ما يمكن قراءته خلال السطور في رحلته ذاتها . ولكننا ، بما كتبه عنه بعض المعاصرين ، نعرف ما كان له من احترام وتقدير عند الناس « فهو الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق جوال الارض وخرق الاقاليم بالطول والعرض » كما وصفه ابن جزي . لقد كان حقاً رحالة العصر في زمانه ، مثل كانديد جواب الافاق البري . في خيال فولتير . حتى لقد تصوره بعض دارسيه من الاوربيين مثل جتلمان من العصر الفيكتوري ، أي كالرجل المهذب الكيس بلحية تغطي الوجنتين ومعطف طويل ذي تربيعات ملونة كالذي كان يرتديه رينال الاولستر في شمال ايرلندا .

<http://Archivebeta.Sakhr.com>

كان ابن بطوطة فقيهاً بحسن القضاء ، كسب من عمله قاضياً حيثما كان يتوقف في مسار رحلته قوت يومه ونفقات سفره . لم يكن انثولوجياً عالمياً في الاقسام والشعوب ، ولا صحافياً مستطلعاً للاخبار ولا مستكشفاً قاصداً الاستكشاف ، لم يكن سوى رحالة جواب آفاق . كان قريباً من معاصرينا بأحكامه المسبقة وبوجدانه الطيب وإشاراته غير المباشرة عن طريق ملاحظاته . تؤخذ عليه سذاجته في تقبل الاشياء ، ولكن شهاداته تكتسب بذلك قيمة خاصة عندما يزودنا بأخبار صادقة عن دول الاسلام السودانية في ذلك العصر كسلطنة مالي وغيرها ، وعندما يطلعنا على جوانب من الحياة الثقافية وتفاصيل من مظاهر الحضارة التي لم تتغير بعض ملامحها حتى ايماننا هذه . ولفت بعض

(١) درس عدد كبير من الباحثين ابن بطوطة وكتبوا عنه ( انظر المراجع )

الباحثين المختصين<sup>(١)</sup> الانتباه الى لغة رحلة ابن بطوطه بصفتها وثيقة لغوية فهو يقول «زمنطوط البحر» ويعني لصوص البحر ، وهو يقصد بالبيت الغرفة ، وبالددار البيت ، وبالنوبة الدوز ، ويدعو النوار الزهر ، وحب الملوك الكرز ، ويسمي صهاريج الماء مصانع . وقد انقطعت أخبار ابن بطوطه بعد كتابة هذه الرحلة ، وكل ما يعرف عنه بعد ذلك انه ولي القضاء في بعض مدن المغرب . ولعله تعب أخيراً من الارتمال والاسفار فأثر الطمأنينة والاستقرار .

### ٣ - مكانته العلمية<sup>(٢)</sup>

وقد اكتشف الرحالة بورخوت ( Burchart ) مختصراً لرحلة ابن بطوطه وكان اول ما اثار انتباه الاوساط العلمية الاوروبية اليها منذ القرن الثامن عشر ؛ ثم ترجم المستشرق كوسجارتن ( Kosegarten ) أجزاء من مخطوطة ثانية قام بترجمتها الى اللاتينية ، الى ان تمت ترجمة الرحلة بكاملها الى الفرنسية على أيدي المستشرقين الفرنسيين دوفرييري وسينغيتي ونشرتها الجمعية الآسيوية ضمن امهات الاعمال الشرقية الهامة التي قامت بنشرها منذ اواخر القرن الماضي . وقد طبع النص العربي بمقابل النص الفرنسي المترجم اليه في خمسة مجلدات خصص آخرها للفهارس المنظمة والمشروحة ، استكمل اصدارها في العام ١٨٩٣ .

وقد نشر المستشرق الانكليزي جب Gibb ملخصاً للرحلة بالانكليزية عام ١٩٢٩ . قدم له بمقدمة مركزة تحدث فيها عن الرحلة وعصره .

---

(١) الدكتور علي المتصر الكتاني ، رحلة ابن بطوطه ، تحقيق وتقديم ، ج ١ + ج ٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت الطبعة الاولى ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م . رجع العرب الى هذه الطبعة لضبط مفردات النص ولاتقاس الشواهد .  
(٢) هذه الفقرة من المقال إضافة من العرب .

كما ترجمت رحلة ابن بطوطة الى الألمانية والبرتغالية والتركية وغير ما  
وكتب عنه جغرافيون ومستشرقون أوروبيون من أهمهم ريتز Ritzler الجغرافي  
الألماني ، أما الرحالة الانكليزي كولي ( Cooley ) فقد كتب عام ١٨٤١ يقول  
« ان رحلات ابن بطوطة لا تقل أهمية عن رحلات ماركو بولو . لكن العالم  
الرحالة سيتزن وهو من كتب عن بلاد الشام في القرن الماضي قد كتب  
يقول :

« أي رحلة أوربي حديث يمكن ان يتباهى بأنه من صرف من عمره زماناً  
يعادل نصف عمره في البحث عن بلاد بعيدة وذلك بشجاعة لا تتزعزع امام  
المشاعب التي لا تحصى ؟ أية أمة أوربية يمكن ان تذكر قبل خمسة قرون من  
ابنائها رحالة جاب بلاداً أجنبية بمثل هذا الاستقلال في الفكر وهذا النفاذ في  
الملاحظة وكتب ملاحظاته كما فعل الشيخ هذا المراكشي الذي اشتمل كتابه على  
مجلدين ؟

١ ملاحظاته حول بلاد مجهولة في إفريقيا والسيح وبلاد الزنج لا تقل  
أهمية عما نجده عند ليو الأفريقي . جغرافية بلاد العرب وبخارى وكابل  
وقندهار لها أهميتها في مؤلفه ، وحتى ما كتبه عن الهند وسيلان وسومطرة  
والصين .

ويختم سيتزن قائلاً :

« يجب ان يقرأ عمله بعناية وينبغي ان يطلع عليه بخاصة الانكليز الذي  
يهتمون بالهند واحوالها »<sup>(١)</sup> .

وقد اجمع كبار المستشرقين الذين عنوا بالجغرافيا العربية على تقدير أهمية  
الدور الذي قام به ابن بطوطة تقديراً عالياً وعلى وضعه في سوية ماركو بولو  
الرحالة الإيطالي الشهير . فالمستشرق السوفياتي كراتشكوفسكي يعتبره آخر

(١) عن مقدمة ديفرهمري لترجمة رحلة ابن بطوطة .

جغرافي عالمي من الناحية العملية اي انه لم يكن ناقلاً يعتمد على كتب الآخرين بل كان رحالة انتظم محيط اسفاره عددا كبيرا من الاقطار ، وقد جاوز مقدار تجواله مائة وخمسة وسبعين الف ميل ، فهو بهذا ينافس معاصره الذي سبقه في الرحلة ماركو بولو الرحالة البندقي الايطالي ( ١٢٥٤ - ١٣٢٣ ) الذي دفعه حب الاسفار الى اجتياز كل اسية عن طريق منغوليا وعاد عن طريق سومطرة وعهد الى كاتب له في إخراج مذكراته إخراجا أدبيا في كتاب رحلة ماركو بولو . اما المستشرق الفرنسي ر . بلاشير فيقرر ان لكتاب رحلة ابن بطوطة أهمية فائقة في التعرف على العالم الاسلامي في القرن الرابع عشر الميلادي . ففي هذا الكتاب الذي يكثر فيه الاستطراد وتختلط فيه الاساطير مع الحكايات البعيدة عن التصديق والوصاف المتكررة تكتشف فيه أيضاً معلومات تاريخية دقيقة ومفيدة ولاسيما منها المتعلقة بعقائد وعبادات و اخلاق السكان كما رآها هذا الرحالة الذي يتفوق عنده حب الاستطلاع على حدة الذكاء .

اما كارل بروكلمان في تاريخ الشعوب الإسلامية ، فيؤكد أن المعلومات الطوبوغرافية التي قدمها ابن بطوطة وهي اوثق واكثر جدارة بالاعتناء من تلك التي نجدها عند ماركو بولو ، لأن ابن بطوطة وهو المغربي المسلم ، كان يحسن الى جانب العربية التركية والفارسية ، وكان ذا دراية بالاحوال الاجتماعية والثقافية في العالم الذي وصفه<sup>(١)</sup> .

إن المزايا التي يتحلّى بها مؤلف ابن بطوطة دفعت عددا كبيرا من الباحثين المرموقين الى الاستعانة بها يتضمنه من تقارير دقيقة ومنهم لسترنغ في كتابه الهام عن بلاد الخلافة الشرقية ويارتولد اشهر من بحث من المستشرقين في تاريخ الترك وآسية الوسطى في زمن الحضارة العربية الاسلامية . وقد نشر عمر حسين الخشاب اول طبعة للكتاب بالعربية في القاهرة عام ١٣٢٢ هـ ثم نشرت

(١) راجع عبدالرحمن حمدة ، أعلام الجغرافيين العرب دمشق ١٩٨٠ ص ٤٥٥ .

الرحلة في عدد من الطبقات صدرت عن عدد من دور النشر العربية ، من اجودها الطبعة التي حققها ونشرها الدكتور علي المنتصر الكتاني (١٩٧٥) .  
قد اعد المستشرق الفرنسي المعاصر فنان - المنصور مونتيل نشر الطبعة الفرنسية المترجمة عام ١٩٦٩ ، بأربعة اجزاء أيضا بعد ان كرر رحلة ابن بطوطة وزار الاماكن التي وصل اليها الرحالة العربية المغربي .

#### ٤ - مملكة مالي :

في العام ١٣٥٢ كان قد مضى على سيادة مالي على السودان الغربي قرن من الزمان . وقد تم ذلك على يدي مؤسس الاسرة الحاكمة من آل كيتا ما بين ١٢٣٠ - ١٢٥٥ . وقد امتدت سلطة اسرة كيتا هذه عرضا على كل البوادي والسهوب السواحلية الواقعة جنوبي الصحراء الكبرى حتى حدود الغابات الغنية ، وطولاً من الاطلسي الى وادي النيجر الاوسط . وبالمفهوم الجغرافي المعاصر تغطي هذه الرقعة بلادا تمتد بين موريتانيا وتشمل دول السنغال وغامبيا وجمهورية مالي وبين شالي غينية وساحل العاج وغانا وتشمل جزءا كبيرا من جمهورية الفولتا ومن غربي النيجر ومن شمال غربي نيجيريا .

أما السكان فينتهي معظمهم الى قبائل تشترك في المجموعة اللغوية الماندية ، ومنها لغات : المالنكة ، البامبره ، وسراكونه - سونكنيه وخاسونكه ، ويضاف اليهم ضمن نفس المجموعة بربر الصحراء ( الطوارق ) ومنهم الولف والبل والسفني والصنوفة والدجن وغيرهم .

وللغة العربية مكانة ثقافية عالية تعادل مكانة اللاتينية عند شعوب اوربا الوسطى ، فهي لغة الكتابة والتجارة والدبلوماسية والادارة العليا . أما الاسلام فهو الدين الرسمي في قصر السلطان وفي مجتمع الكبار وفي التجارة والمعاملات الدو . ولكنه لم ينتشر بين عامة الناس وحتى بين الحاشية القريبة من « المنسى » السلطان سليمان . وبقي الدين هناك مختلعا بممارسات بعيدة عن الدين الصحيح صدمت ابن بطوطة وهو المسلم التقي الفقيه .



١ - صفحة من مخطوطة النص الذي أملاه ابو عبدالله ابن بطوطة على الكاتب ابن جزي في ١٣٥٦ . وهي النسخة التي بنيت عليها الطبعة التي اصدرتها الجمعية الاسبوية الفرنسية بالتصين العربي والفرنسي عام ١٨٥٣ .



كانت قوة المملكة تستند الى تجارة الذهب وتصديره حيث كان يستخرج من مناطق الغابات الجنوبية ويبحري تبادله مقابل الملح المستخرج من ممالح الصحراء في الشمال . وكما كانت مملكة غانا الوثنية التي دمرها في ١٠٧٦ م سلاطين المغرب المرابطون ، كانت مالي هي المورد الاساسي للذهب في المغرب ومنه كان يصدر الى اسبانيا وبلاد أوربة الغربية . اما تصدير العبيد نحو افريقية الشمالية والى بلاد المشرق العربي فقد كان يجري منذ زمن لكنه لم تكن له اهمية اقتصادية تقارب الاهمية الاقتصادية للذهب . ومع ذلك فهذه التجارة كانت بائعهايين ، لان مالي نفسها كانت تستورد بعض العبيد من حوض البحر المتوسط : وهي تجارة من نوع الكماليات كالاسلحة والاقمشة المشرقية والاوربية النفيسة والكتب العربية والمطورات . اما الخيول المغربية فهي تعدو كونها من الكماليات إذا ما حسبنا مقدار تفوق المنسى أي عاهل مالي بما كان يستند اليه من قوة الفرسان .

قبل رحلة ابن بطوطة ببجيل واحد وقع حادث يبرر وزن مالي في اقتصاد البحر المتوسط وهو توجه المنسى كان كان موسى الى الحج الى مكة في العام ١٣٢٤ م . وقد أنفق في طريق رحلته وهو في مصر مبلغاً كبيراً من الذهب أدى الى هبوط سعر الذهب بنسبة ٢٠٪ .

كان لمالي وزن بين دول المنطقة لكنها لم تكن قوة . كانت تقيم فيها طوائف من التجار من اهل شمال افريقية والاندلس من المسلمين العرب والبربر ومن غير المسلمين كاليهود . وقد استقر هؤلاء التجار في مدن مالي ، ولكن لم يكن يقيم تجار من مالي في بلاد افريقية الشمالية . اما النقل عبر الصحراء فكان امتيازاً للبدو من الشعوب البيضاء ممن لم يكونوا من رعايا المنسى سلطان مالي أو انهم كانوا يدينون له بشيء قليل من الولاء . . .

واخيراً على صعيد مختلف في الظاهر لكنه بالواقع مرتبط بالسابق ، كان

في مالي عدد كبير من شيوخ المسلمين وفقهائهم وهم غالبا من اصل اجنبي اي من غير أهل مالي ، وعلى الاغلب من اهل المغرب . ولم يكن لهذا الوضع ما يظلمه في ماوراء الصحراء حيث يكون وضع السكان السود عيودياً بالدرجة الاولى . كان اقتصاد المملكة المالية مزدهراً لكنه مرتبط على نطاق واسع ويخضع لمراقبة الساسرة والوسطاء وممارسي الطب الذين حل السائح الرحالة ابن بطوطة بينهم واضحو مخبرين له ومصدرا لمعلوماته .

#### ٥ - دافع الفضول الوحيد :

غادر ابن بطوطة فاس وبلاد السلطان خلال شتاء عام ١٣٥١ وراح يرتب سفره الى سجلماسة<sup>(١)</sup> في تيفلاث في الجنوب الشرقي من جبال الاطلس . سجلماسة التي لم يبق منها سوى الانقاض ، كانت آنذاك محطة تجارية هامة على الحدود عند حافة المصطبة التي مائتزال تصل الحدود الجزائرية - المراكشينة بمالي الحالية . وقد اعددت للرحلة الإبل التي لجمت أربعة أشهر لتعويدها على متاعب الرحلة ، ثم انضم في شهر شباط ١٣٥٢ ( ٧٤١ هـ )

(١) مدينة اندثرت وفي موضعها اليوم قرية تسمى الريصاني وأثارها تسمى مدينة الحمراء . وقد ذكرها البكري اكبر جغرافيين الاندلس ( ٤٠٥ - ٤٨٧ هـ ، ١٠١٤ - ١٠٩٤ م ) في كتابه المسالك والممالك : « الطريق من مدينة فاس الى سجلماسة ، من مدينة فاس الى صفروى وهي مدينة مسورة ذات انهار وأشجار ومنها الى الاصنام ومنها الى موضع يقال له أمغاي مرحلة كبيرة نحو الستين ميلا ومنها تدخل في عمل سجلماسة بين انهار وأنهار ثلاث مراحل الى سجلماسة . ومن سجلماسة تدخل الى بلاد سودا الى غانة وبينها وبين تلك المدينة شهران في صحراء غير عامرة الا بقوم ظاعنين ولا يطمئن بهم منزل وهم ينو متوفة من صنهاجة ليس لهم مدينة يأوون بها الا وادي درعة وبين وادي درعة وسجلماسة مسيرة خمسة ايام .

الى قافلة يقودها دليل محترف من بربر الصحراء من قبيلة مصوفة . وبعد مسيرة خمسة وعشرين يوما وصل ابن بطوطة دون أية متاعب الى المملحة الكبرى في تغازي ، ( التي تركت في ايامنا هذه عندما اتجه المشتغلون باستخراج الملح الى مملحة اخرى هي تاودينة وتبعد مسافة مئة وخمسين كيلومترا الى الجنوب ) ، لكنها لم تعجبه مطلقا . يقول :

« . . هي قرية لاخير فيها ومن عجائبها ان بناء بيوتها ومسحدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ولاشجر فيها . انها هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الارض ، فيوجد منه الواح ضخام متر اكية كأنها نحت ووضعت تحت الارض ، يحمل الحمل منها لوحين . ولايسكنها الا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح ويتعيشون بما يجلب اليهم من تمر درعة » ( الكبير الحجم والفاخر ) وتمر سحلية ومن لحوم الجمل ومن أنثى ( الذرة ) المجلوب من السودان . ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح ويبيع الحمل منه في إيوالاتن بعشرة مشاقل الى ثمانية وفي مدينة مالي " بثلاثين مثقالا الى عشرين وربما انتهى الى اربعين مثقالا . وبالملح " يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعاً ويتابعون به . وقرية تغازي على حقارتها يتعامل فيها بالقناطر المقنطرة من التبر . واقمنا فيها عشرة ايام في جهد لان ماءها زعاق . وهي اكثر ذباباً » .

(١) الدَّرعة اسم واد واقليم في نوميديا يبدأ من جبال الاطلس ويمتد جنوباً على مسافة مئتين وخمسين ميلاً . انظر : الحسن الوزان الزياتي ، وصف افريقيا ، ترجمة الدكتور عبدالرحمن حميدة ، ص ٤٩٠ .

(٢) هي جَنَّة ، وهو اسم للمملكة ولعاصمة مالي . التي كانت تدعى نياي وهي قرية كبيرة على نهر سنكراني قرب مقرنة مع النيجر . المرجع السابق ص ٥٣٩ .

(٣) للملح اهمية دوائية وطبية لتركيب الوصفات الطبية الشعبية .



قبة تمثل غزالاً فن بامبورا - السنغال

٢ - صورة طلسم سحري مما كان شائعاً في السودان وغربي افريقية كتب بحروف عربية وهويشير الى مبدأ قدرة المربع السحرية ذي الاصول التي تعود الى الحضارات الشرقية القديمة لكن الصورة وخطوطها تبدو سودانية الملامح .

هذه التفاصيل حول سعر صرف الملح بالذهب تساعد على فهم أهمية المسالحي في تاريخ السودان الغربي وعلى إدراك بواث الصراع في سبيل استملاكها ما بين المغاربة والصحراويين من جهة الذين كانت لهم اليد الطولى آنذاك . وبين السودان من جهة أخرى ، وكيف كان ذلك عاملاً دائماً من عوامل النزاع الذي انتهى في عام ١٥٩١ الى القضاء على آخر مملكة كبرى في السودان الغربي وهي سونغاي دون أن يؤدي ذلك الى إغناء فاهرها المغربي . إن تجارة الملح الصحراوي استمرت حتى الحرب العالمية الثانية ولكن لم يبق منها اليوم الا بقايا .

ويشكو ابن بطوطة ، بعد هذه الملاحظات الدقيقة حول التجارة ، من سوء مذاق الماء ومن الذباب والقمل ، « حتى يجعل الناس في اعناقهم خيوطا فيها الزئبق فيقتلها » ، لكنه يسجل بمرور كثرة كمأة الصحراء البيضاء وهي بطعم الثوم ومشهورة بتأثيرها في تقوية الرغبة الجنسية . وعند الخروج من تغازي تأخر احد افراد القافلة ويدعى ابن زيري إثر نزاع نشب مع ابن خاله ابن عدي فضل وتاه ثم هلك في الصحراء ولم يظهر له خبر . وقد حرص ابن بطوطة بعدئذ ألا يتعد عن بقية افراد القافلة ، ومن بئر الأقصاب (تاسر هلا) وهي احساء ماء تنزل القوافل عليها في المحطة الاخيرة قبل الخروج من الصحراء يرسل كشاف خاص يدعى التكتيف<sup>(١)</sup> يكلف باعداد ما تحتاج اليه القافلة من المياه ويكرتي للناس الدور للإقامة عند وصولهم . فإذا ما هلك هذا الرجل في الطريق « ضحية الجن والارواح » التي تسيطر على المنطقة كانت القافلة محكومة بالهلاك . فلا يعلم عندئذ أحد بالقافلة . لكن ابن بطوطة وهو من اهل الخضسر ، على الرغم من مخاوفه وما يعبده من مآخذ وما يردده من نقد ، يستسلم كالكتيرين غيره الى ما في الصحراء من جاذبية وسحر فكان يراها

(١) التكتيف اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه اهل القافلة .

مشركة ينشرح الصدر فيها وتطيب النفس ويطمئن الانسان بأمنه من السراق .

#### ٦ - رجال بلا غيرة :

فقدت ولاته في أيامنا هذه كل ما كان لها من أهمية . لكنها كانت في العام ١٣٥٢ مركزاً تجارياً فعالاً ، وهي مدخل إلى سلطنة مالي ولها مسؤول هونائب السلطان فربا حسين ، الحاكم العسكري الذي ينتمي الى طبقة النبلاء . ومنسحبون يمثل السلطنة وهو من طبقة العبيد ، وكلاهما من السود . ولم يكن تصرف هذين الموظفين الكبيرين مريحاً للسائح المغربي ، كما أزعجه سوء معاملة الجالية البربرية .

« ولما وصلنا جعل التجار امتعتهم في رحبة وتكفل السودان بحفظها وتوجهوا الى الغرب وهو جالس على بساط في سقيف وأعوانه بين يديه بأيديهم الرماح والقسي وكبراء مسوفة من ورائه . ووقف التجار بين يديه وهو يكلمهم بترجمان على قريهم منه احتقاراً لهم فعند ذلك ندمت على قدومي بلادهم لسوء أدبهم واحتقارهم للأبيض . »

إن عدم المقدرة على تفهم شأن السياحة واضح هنا فالضابط السوداني من البامبرة او المالنكة وقد يجهل العربية حتى وإن كان مسلماً ، لكنه لكونه سودانياً لا يتوجه مطلقاً في خطابه الى عامة الناس . والقاعدة المتبعة حتى اليوم تتطلب منه نقل كلامه بواسطة « لسان الرئيس » أي الناطق بلسانه الذي يردد بصوت مرتفع وبلغته الخاصة ما كان سمعه بصوت خفيض .

وفي اليوم نفسه تصادف وقوع حادثة غريبة هذا السائح النهم الذواق الذي خصص مساحة كبيرة في كتابه لذكر ملاحظات تتعلق بالغذية وللادلاء باعترافات عن متاعب هضمية . فعندما دعي الى ضيافة المنسحبون أراد

الامتناع عن تلبية الدعوة باديء ذي بداءة لكنه اضطر الى الرد عند إرادة  
الاصحاب من رفاق الرحلة . لتتابع ما يرويه ابن بطوطة :

« ثم إن مُشرف إيوالاتن ويسمى مشاحو منسديون استدعى من جاء في  
القافلة الى ضيافته ، فأبيت من حضور ذلك ، فعزم الاصحاب عليّ أشد العزم  
فتوجهت فيمن توجه . ثم أتني بالضيافة وهي جريش أنلي (الذرة) مخلوطاً  
ببسير من غسل ولبن وقد وضعوه في نصف قرعة صبروه شبه الجفنة فشرب  
الحاضرون وانصرفوا فقلت لهم :

ألهذا دعانا الأسود ؟ قالوا نعم وهو الضيافة الكبيرة عندهم . فأيقنت  
عندئذ أن لاخير يرغمي منهم وأردت أن أسافر مع حجاج إيوالاتن » .

وهنا نجد انفسنا مرة أخرى أمام سوء فهم ثقافي : إن تقديم هذا الحساء  
هو بمثابة نوع من الطقوس - كتقديم الخبز والملح للضيف عند البدو - ومن  
الخطأ النظر اليه كالنظر الى وليمة . ويستمررون هناك في افرقية حتى اليوم في  
تقديم هذا الطبق التقليدي في أوعية من نبات القرع المزينة على أحسن صورة  
ويصعدون أمام الإغراء باستخدام الأواني الحديثة المطلية المناقصة لها .

ومن جهة أخرى فإن سكان أولاتنه ، إيوالاتن ، من البربر ، صدموا  
قناعاته المبنية على أحكام مسبقة في أمور منها ما يتصل بوضع النساء في  
المجتمع :

« . . . لنسائنها الجمال الفائق وهن أعظم شأنًا من الرجال ، وشأن هؤلاء  
القصور عجيب ، وأمرهم غريب . وأمّا رجا لهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب  
أحدهم الى أبيه بل ينتسب لحاله . ولا يرث الرجل الآ ابناء . أخته . دون  
بنيه . وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد المغرب من اليهود . وأمّا  
هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ  
القرآن . . . » .

ويعضي ابن بطوطة مستغرباً ناقداً :

« وأما نسائهم فلا يحتشمون من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات ومن أراد التزوج منهن تروج لكنهن لا يسافرن مع الزوج ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعها أهلها . والنساء هناك يكون هن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب وكذلك للرجال صواحب من النساء الاجنبيات ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعهما صاحبها فلا يتكر ذلك » .

وعندما يفسر الاثنولوجي في القرن العشرين ذلك فإنه يفسره كما يلي :

البنوة هنا تتبع نظام النسب إلى الأم ، والزواج بإقامة في كنف أهل الأم وفي خدمتهم . وهي ملامح اجتماعية مانزال آثارها ظاهرة عند الطوارق . ويتشبه الباحث بما توصل اليه على هذا الشكل . لكن ابن بطوطة لم يكن مسروراً أبداً في مواجهة - " : تتصل بتلك الظاهرة الاجتماعية واضطر الى اتخاذ موقف متشدد منها :

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

يقول :

« دخلت يوماً على أبي محمد بن يندكان المسوفي الذي قدمنا في صحبته فوجدته قاعداً على بساط وفي وسط داره سرير مغطى عليه امرأة معها رجل قاعد ومما يتحدثان . فقلت له : ماهذه المرأة ؟ فقال : هي زوجتي . فقلت وما الرجل الذي معها ؟ فقال : هو صاحبها . فقلت له : أنرضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع ؟ فقال لي : مصاحبة النساء للرجال عدنا على خير وحسن طريفة لانهم فيها ولسن كساء بلادكم . فعجبت من رعونته وانصرفت عنه فلم أعد إليه بعدها واستدعاني مرّات فلم أجبه . » .

٧ - في عاصمة مالي :

ما ان تخلف الرحالة حجاب الارض من مشاعب السفر ، وطرح المفاجآت الى آثار دهنه واستغرابه حتى استأنف السير متجهاً إلى عاصمة



مالي مع ثلاثة من المرافقين فحسب ، لأنه لا حاجة للسفر في رفقة لأمّن تلك البلاد وطرقها ، لكنه لا يعطينا ويا للأسف تفاصيل عن خط سيره ، مما كان ربّما يساعدنا على تعيين تلك العاصمة بدقة ، وهي التي يغلب الظن على أنها « نيامي » على نهر السنكراتي ، وهو رافد لنهر النيجر من الجهة اليمنى ، على الحدود الفاصلة ما بين جمهوريتي غينية ومالي. لكن مالي القديمة اندثرت . وسار بعدئذ في طريق مخوفة بالأشجار ، ويسكن ان نتعرف من وصفه لها على أنواع منها : سجار البواب الضخمة ( التي قد يبلغ قطر جذع الواحدة منها عشرين متراً ) واخترق حقولاً وسهولاً خصبة وصف لنا بعض منتجاتها وخيراتها والمسافر في هذه البلاد لا يحمل زاداً ولا أداماً ولا ديناراً ولا درهماً ؛ إنما يحمل قطع الملح وحليّ الزجاج الذي يسميه الناس النظم وبعض السلع العطرية التي يعجبهم منها القرنفل والمصطكى وهو اللبان ، وينصح بالامتناع عن أكل الرز المحلي لسوء هضمه ويقول ان القوتي خير منه ، (وهو نوع من النجيليات ، نباتات من وحيدات الفلقة تشمل النباتات الحبيّة والعلفية ) ، ويصنع من حبوبها الصغيرة التي تثبت بصورة عفوية حساء أو مغلي طيّب المذاق ) .

وقد قابل بعدئذ في طريقه مجموعة من المسلمين العرب او من اهل شمالي افريقية من الخوارج الإباضيين ، ويدعون محلياً صُغُنغوكما التقى بجماعة من أتباع المذهب المالكي ، وهو مذهب رائج في إفريقيا الشمالية وهؤلاء يدعون عنيّاً توري - وهذان الاسمان ما يزال يحملهما الكثيرون من عشائر المانديين أو المانديع . وبعد مسيرة اثني عشر يوماً وصل أخيراً الى نهر النيجر الذي يدعوه نهر النيل وهذا خطأ يمكن تفسيره بحقيقة كون مجرى النيل يتجه نحو الشرق . ولم يمكن التعرف على مجرى النهر علمياً حتى القرن التاسع عشر . ثم يروي لنا هذه الحادثة التي تدل على سوء تفهم سياحي . يقول :

« .. وقد نزلت يوماً إلى النيل ( يقصد نهر النيجر ) لقضاء حاجة فإذا

بأحد السودان قد جاء ووقف فيما بيني وبين النهر فعجبت من سوء أدبه وقلة  
حيائه ، وذكرت ذلك لبعض الناس فقال : إنما فعل ذلك خوفاً عليك من  
النمساخ فحال بينك وبينه .

وبعد أن قطع السانح مرحلة قصيرة أخرى وصل أخيراً ( في الرابع عشر  
لجهاذي الأولى عام ١٣٥٣ ) إلى العاصمة مالي حيث استأجرت بيتاً في حي  
« البيض » وكانت شهرته في الفقه قد سبقته وقدم اليه الزائرون مرحبين وعلى  
رأسهم القاضي السلطاني الكبير الذي جاء اليه محملاً بالهدايا ، والرحالة يذكر  
له ذلك بما يفدقه من المديح على القاضي الكريم وصفاته النبيلة . ومن جاء  
لزيارته إمام المسجد الكبير والوجهاء والأدباء من السودان وعرب من المتزوجين  
المقيمين في البلاد وفيهم الترجمان الخاص للسلطان ، وهو بالواقع رئيس  
المنشدين . لكن هذا الاستقبال الحار ينتهي بأصاية ابن بطوطة بالنمساخ بصورة  
خطيرة . . .

وما أن استرد عاقبته حتى قضى لتقديم نفسه إلى عامل البلاد المنسى  
سليمان . ومنسى لقب معناه السلطان . وهو يصفه بإيجاز بقوله :

« . . هو ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء » . لكن السلطان وضع  
بتصرف الزائر منزلاً وخدماء وأجرى له مرتباً ومنحه ما يعادل مائة وثلاثاً وثلاثين  
أونصة من الثبر ، الذهب . لكن هدية الضيافة التقليدية التي تلقاها لم تكن  
من الملابس الفاخرة والأشياء الثمينة كما كان ينتظر ، إنما كانت تتألف من  
« ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقرى مقلي بالغرقي وقرعة ( زبدية ) من  
اللبن الرائب » وفي تقديم هذا الطعام عند السودان إكرام كبير . من السلطان  
الذي أراد مشاركة ضيفه بالطعام المشترك المعتاد . لكن ابن بطوطة لم يقدر  
الالفة الكريمة حق قدرها ووجد فيها انتقاصاً من شأنه وعبر عن سخطه قائلاً  
« وطال ته جبي من ضعف عقولهم وتعظيمهم لهذا الشيء الحقير . . . »

## ٨ - أفعال منكرة :

وعند استقباله في قصر السلطان ضيفاً مكرماً يطلع الرحالة على المراسم السلطانية ويقدم لنا وصفاً تفصيلياً لها بما فيها من آداب السلوك المرعية في المناسبات الاحتفالية وما يختلط فيها من طفوس وممارسات دينية ( الصلوات ، تلاوة القرآن ، خطبة الجمعة . وبينما يجد ابن بطوطة في ذلك غرائب يستحف بها أحياناً فإن القارئ المعاصر المهتم بثقافة المنطقة يندهش بمظاهرها رائعة ولكن لم يبق منها حتى أيامنا إلا آثار قليلة جداً . ومنها ما كان مرعباً من آداب السلام على العواهل والعظماء قبل نحو عشرين عاماً مما يذكر بها حدثنا عنه الرحالة المغربي النقاد :

« .. والسودان أعظم الناس تواضعاً لملكهم وأشدهم تذلاً له ويخلفون باسمه فيقولون « منسى سليمان كي » فإذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقيّة التي ذكرناها فوزع المدعو ثيابه وليس ثياباً مخلقة ونزع عمامته وجعل شاشية وسخة ودخل رافعاً ثيابه وسراويله التي نصف ساقه وتقدّم بذلة ومسكنة ، وضرب الأرض بعرقه ضرباً شديداً ووقف كالراكع يسمع كلامه . وإذا كَلَّمَ أحدهم السلطان فردّ عليه جوابه كشف ثيابه عن ظهره ورمى بالتراب على رأسه وظهره كما يفعل المغتسل بالماء وكنت أعجب منهم كيف لاتعمى أعينهم » .  
ومن هذه المناسبات الاحتفالية التي وُصفت في « الرحلة » ما كان يقدمه المنشدور - بارعون من عُروض في الأعياد الدينية للمسلمين كالعيد الكبير ( الاضحى ) وعيد الفطر عند انتهاء شهر الصوم في رمضان :

« .. ويجلس الفرارية والقاضي والحطيب على العادة ويأتي دوغا الترجمان بنسائه الأربع وجواريه وهي نحومة عليهن الملابس الحسان وعلى رؤوسهن عصائب الذهب والفضة فيها نقايع ذهب وفضة . وينصب لدوغا كرسي - دوغا هو ترجمان السلطان كبير الشعراء والمنشدين يدعى غالباً معلّم

الأسن أولسان الملك ، يجلس عليه ويضرب الآلة التي هي من قصب وتحتها قُرَيْمَات . ويغني بشعر بمدح السلطان فيه . ويذكر غزائمه وأفعاله . ويغني النساء والجواري معه ويلعبن بالقسي . ويكون معهن نحو ثلاثين من غلمانهن ، عليهم جياب الملف والحمرو في رؤوسهم الشواشي البيض وكل واحد منهم متقلد طيلة يضربه . ثم يأتي أصحابه من الصبيان فيلعبون ويتقلبون في الهواء كما يفعل السندي ولهم في ذلك رشاقة وخفة بديعة . ويلعبون بالسيف أجمل لعب ، ويلعب دوعا بالسيف لعباً بديعاً ، وعند ذلك يأمر له السلطان بالإحسان . . .

. . . وإذا أتم دوعاً لعبه جاء الشعراء ويسمون الجُرُلَ واحدهم جالِي ( بلهجة المالكة - باميرة : منشد ) . وقد دخل كل واحد منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الششاق ، وجعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر كأنه رأس الششاق ويقفون بين يدي السلطان يثلك الهيئة المضحكة فيشدون أشعارهم . وتذكر لي أن شعركم نوع من الوعظ يقولون فيه للسلطان إن هذا النبي الذي عليه جلس فوقه من الملوك فلان وكان من أحسن أفعاله كذا ، وفلان وكان من أفعاله كذا ، فافعل أنت من الخير ما يذكر بعدك ، وأخبرت أن هذا الفعل لم يزل قديماً عندهم قبل الإسلام فاسمعوا عليه .

ولم ينقطعوا بالحقيقة عن تقديم مثل هذا العرض منذئذ : ويمكن للسائح (أو الأثنولوجي) في القرن العشرين أن يصادف حتى الآن مما سبق ذكره في المقطع السابق مشاهد عروض رقصة السيف . وهي من الألعاب الشائعة في منطقة مان على ساحل العاج ، والأقنعة وأغطية الرأس المزينة والمثلة لرأس طير الطوقان الضخم أو رأس الطير أبو قرين وهو طائر ضخم أيضاً يعيش في الغابات وتناسبه المناطق الحارة ، وهو ما نشاهده حتى أيامنا هذه في مالي ؛ أما ترديد المدائح والشعارات التقليدية الموروثة فهو شائع في كل إفريقية الغربية .

## ٩ - طريق العودة :

دخل ابن بطوطة الى مالي في حزيران ١٣٥٢ الموافق للرابع عشر من جمادى الأولى ٧٤١ هـ وانتهت اقامته فيها في شهر شباط أو آذار من العام ١٣٥٣ الموافق للثاني والعشرين من المحرم ٧٤٣ هـ . وقد عاد هابطاً بهر النيجر ماراً بمدينة تمبوكتو ، حيث أهدى اليه نائب السلطان الفاربا المقيم فيها غلاماً من العبيد . ثم زار مدينة غاو وتلفظ وتكتب كُوكُو ، كاغو- ، أو غاغو . وهي مدينة كبيرة على النيل من أحسن مدن السودان واكبرها وأخصبها فيها الارز الكثير واللين والدجاج والسمك وفيها القفوص العنابي الذي لانظير له وتعامل أهلها في البيع والشراء بالدع وكذلك أهل مالي . ويزنى بالدع وهو نوع من الصدف الصغير من أرخبيل جزر الملديف في المحيط الهندي حيث يتعامل به كالنقد .

ARCHIVE

<http://archivebeta.93khrg.com>

ومن غاوي تابع طريقه براً حتى مناجم النحاس في الأيير - تكدا .  
ويصف لنا في الرحلة طريقة تعدين النحاس واستخدامه في التعامل النقدي في نص يعتبر و . تاريخية هامة :

ويحفرون على النحاس في الارض ويأتون الى البلد فيسكبونه في دورهم ؛ يفعل ذلك عبيدهم وتخدمهم فإذا سكبوه نحاساً أمر صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف بعضها رفاق وبعضها غلاظ . فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمئة قضيب بمئقال ذهب ، وتباع الرفاق بحساب ستمائة وسبعمئة بمئقال ذهب . وهي صرفهم يشترون برقاقها اللحم والخطب ويشترون

(٢) ديار تكدا مبنية بالحجارة الحمر ، وماؤها يجري على معدن النحاس فينغير لونه

وطعمه بذلك . انظر رحلة ابن بطوطة ، نشر الكتاني ، ج ٢ ص ٧٩٨ .

بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح<sup>(١)</sup> . . . ثم يجتاز الرحالة الصحراء ماراً بموقعي الهجّار والتوات ومما من منازل قبيلتين من البربر وانتهى طوافه ونحواله بالوصول عائداً الى سجلماسة في ١٣٥٣ .

#### ١٠ - الحسنات والسيئات :

وبالإضافة الى ما ذكره ابن بطوطة عن أحوال مملكة مالي في كتاب رحلته مما سبق ذكره فإن الكتاب يتضمن طرفاً وملحاً من أخبار المنسى القضائية . وهو أمر لا يستغرب من فقيه عمله الأساسي هو القضاء . وما صنفه من أفعال السودان الحسنة ومن مساوئ أفعالهم .

فمن الافعال الحسنة التي يعدها : انتفاء الظلم « فهم ابعد الناس عنه وسلطانهم لا يسمح أحداً في شيء منه . ومنها شمول الامن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب . ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضاوي ، ولو كان القناطين المقنطرة ، إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه [ وفي فرنسا كان الايكوسيون وحدهم في نفس العصر معفين من حق وراثه الطاريء ] . ومنها مواظبتهم على الصلوات والتزامهم بها في الجماعات وضرهم أولادهم عليها ، وإذا كان يوم الجمعة ولم يكرر الانسان الى المسجد لم يستطع الدخول ليصلي . ومن عاداتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجاده فيسقطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب الى المسجد . وسجاداتهم سعف شجر يشبه النخل ولا تمر له . ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة . ومن أفعالهم الحسنة عنايتهم بحفظ القرآن العظيم

(١) هذا النوع من « العملة » النحاسية كان معروفاً في مصر الفرعونية في الاول

الاول قبل الميلاد . ( المغرب )

وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا تفك عنهم - بحفظوه .. وروى واقعة في هذا الصدد قال :

« مررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفي رجله قيد ثقيل ، فقلت لمن كان معي : ما فعل هذا ؟ أقتل ؟ ففهم عني الشاب وضحك . وقيل لي إنما قيد حتى يحفظ القرآن عن ظهر قلب . »  
أما مساوي أفعالهم التي لأمهم عليها فمنها :

كون الخدم والجواري والبسات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات . . . ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات وتعري بناته . وقال : « قد رأيت في ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا ومعهن بنتان ناهدان ليس عليهما ستر »

ومن هذه المآخذ التي عدها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأديباً ومنها ما ذكره من « الأصحوخة في انشاد الشمر » ومنها أيضاً أن كثيراً منهم يأكلون الجيف ولحم الكلاب والحمير . وهو يجحد في ذلك مخالفة للقواعد الشرعية . . . .

## ١١ - بين العلم والاستعلام :

وأخيراً تبقى نقطة لا بد من جلاتها ، ولكنها قد لا تنجلي أبداً . وهي أن نعرف مدى براءة المقصد في هذه الرحلة التي يتضح من التقارير والمعلومات التي نقلتها مقدار « سذاجة موقف كاتبها تجاه المظاهر السياحية والمؤسسات الثقافية المحلية التي صادفها وتحدث عنها »

فقبل أن يغادر ابن بطوطة متوجهاً إلى مالي كان قد عاد إلى المغرب ( ١٣٤٩ ) من رحلة سابقة امتدت حوالي ربع قرن في بلاد « دار الاسلام » فهل كان الدافع الى هذه الرحلة الافريقية هو مادفعه في السابق الى التنقل والترحال ! لأنه من المؤكد ان الرحلة جاءت تنفيذاً لأمر السلطان المغربي أبي

عنان كما يذكر ابن بطوطة ذلك صراحة . لقد كانت الحصومة على أشدها - كما رأينا - ما بين المغرب والسودان من أجل السيطرة على ممالك تَغَازَى ، وكانت للمغرب مصالح في السودان الغربي تتمثل في جاليات من التجار وجماعات من الفقهاء والزهاد كانت منتشرة في البلاد الواقعة جنوبي الصحراء . وبعد قرن من الزمان أصبحت هذه الجاليات بمثابة الأنصار للمغرب في بلاد السودان التي كانت آنذاك بلاد الذهب . وقد أقام ابن بطوطة عند أناس من بني جلدته من تجار المغرب وفقهائه . وهذا أمر لا غرابة فيه : وابدئ اهتماماً خاصاً خلال رحلته بمصادر الثروة ، فتوقف عند المالح ووصف تجارة الملح الهامة في ذلك العصر ، وبحث عن مصدر الذهب وذكر أنه يؤتى به من عند أناس منعزلين بصعب وصول الغرباء اليهم ، كما أنه عمد إلى رسم طريق عودته لتتسنى له زيارة مناجم النحاس ، ويشير إلى تجارة النشة الممتازة العبيد من بلاد بَرْنُو ، التي « تقع على مسيرة أربعين كيلومتراً من أكندا ، أهلها مسلمون ، لهم ملك اسمه إدريس ، لا يظهر للناس ولا يكلمهم إلا من وراء حجاب ، ومن هذه البلاد يؤتى بالجواري الحسان والفتيان والنياب المسجدة »

فالاهتمامات الاقتصادية تبدو واضحة ومفهومة عند سائح فقيه كما يمكن أن نتفهم مايؤليه من اهتمام للسياسة الداخلية في بلاد مالي وهو الرجل المرموق في البلاط المغربي . ففي وصف الانطباع الشائع عن الحكم في مملكة مالي يقول : « كان السودان يكرهون منسى سليمان لبخله ، وكان قبله منسى مُغَا ، وقبل منسى مغَا ، كان كريماً فاضلاً يحب البضيان ويحسن اليهم » . وقد تحدث ولكن دون تفصيل عن مؤامرة حيكمت ضد السلطان قادتها ابنة عمه - زوجته ، وهي شريكته في الملك كما هو الامر في كثير من الممالك الافريقية . « وقد غضب السلطان على بنت عمه قاسا ، اى الملكة ، شريكته في الملك على عادة السودان ، وكان اسمها يذكر مع اسمه على المنبر فسجنها



وولّى مكانها زوجته الأخرى بنحو ولم تكن من بنات الملوك . وقد نجت الملكة من عذوبة اشد قسوة بالتجائها الى بيت خطيب المسجد الكبير الذي ربما كان من عناصر الاتصال مع العالم العربي بحكم ثقافته العربية الإسلامية ، ومن اولئك الرجال الذين عملوا على توثيق الصلات بين السودان والمغرب مما ظهرت نتائجه في القرن التالي ( القرن الخامس عشر ) ، حتى ارتبط مصير المغرب وغربي افريقية عندما انطلقت اساطيل المغرب واسبانيا نحو العالم العربي في مطلع العصور الحديثة .

فما كانت أهداف رحلة ابن بطوطة في تلك المرحلة من تاريخ المنطقة فهل كان الرحالة الكبير يقوم بمهمة سياسية في بلاد مالي ؟ هل كانت له مهمة استطلاعية الى جانب الهدف العلمي والثقافي ؟ ومهما يكن فإن ابن بطوطة في « رحلاته » الخالدة يبقى اعظم من كتب عن افريقية الغربية قبل قدوم المستعمرين الاوروبيين .

ARCHIVE  
http://Archivebeta.Sakhrit.com

### مراجع للبحث والاستزادة :

« C. Defremery, B. R. Sanguinetti, voyages d'Ibn Batoutah 4 vol. Paris,

تضم النص الى جانب النص الفرنسي . ( 1858 — 1853 )  
آخر طبعة نشرها :

vincent Al — Mansour Monteil ( 4 vol. Anthrwpas, ( 1969 )

:Ibn Batouta, Voyages, Paris, Maspero 3 vol. ( 1982 ).

ر . بلاشير ، ه . درمون ، منتخبات من آثار الجغرافيين العرب في العصور  
الوسطى باريس ( ١٩٥٧ )

كراتشكوفسكي الادب الجغرافي عند العرب ، لينينغراد (١٩٥٧) ، ترجمة  
صلاح الدين عثمان هاشم ، في جزأين (١٩٦٣) .

الامير مصطفى الشهابي ، الجغرافيون العرب دار المعارف ، أقرأ القاهرة  
١٩٦٢

ابراهيم احمد الندوي ، ابن بطوطة في العالم الاسلامي دارالمعارف ، إقرأ  
القاهرة ، العدد ١٧٩ .

عبدالرحمن حميدة ، اعلام الجغرافيين العرب ، دار الفكر ،  
دمشق ط ٢ - ١٩٨٠ .





يعتقد كثير من الناس خطأ أنَّ القارة السوداء ابتداءً من جنوب الصحراء وانتهاءً بمدينة الكاب تفتقر إلى مختلف أنواع الفنون ، وعلى الأخصّ الفنون الأدبية منها ، فنادرًا ما يترامى إلى مسامعنا صوتُ كاتبٍ أو شاعرٍ صادر عن تلك القارة الصامتة .

ويعود ذلك إلى أن عدد المهتمين بشؤون الادب الافريقي قليل جداً ، فالأوربيون مثلاً لم يهتموا سوى بالصناعات اليدوية الافريقية باعتبارها تحفاً تمتاز بمسحة جمالية خاصة .

ثم بدأ بعض الأوروبيين يهتمون بالموسيقى الإفريقية فأخذوا يدرسون أصواتها وخصائصها .

وبعد ذلك بدأ الأوروبيون يعنون شيئاً فشيئاً بالأدب الإفريقي ، ولكنهم في البداية وجدوا صعوبة في ذلك إذ أن أغلب الآثار الأدبية الإفريقية غير مكتوبة ، وإنما تناقلتها الألسن جيلاً بعد جيل ، ولذلك فإن تلك الآثار لم تجد لها طريقاً تسلكه إلى الفارات الأخرى فظلت محصورة في النطاق الإفريقي البحت .

وبعد بدء انحسار الاستعمار الأوروبي عن أغلب الدول الإفريقية في بداية الستينات وتعاضم الشعور الوطني لدى الأفارقة أخذ الأدب الإفريقي ينتقل تدريجياً من النطاق الإفريقي الضيق إلى نطاق عالمي أكثر شمولاً ، ذلك لأن كثيراً من الشباب الإفريقيين وفدوا إلى مختلف الجامعات الأوروبية فاطلعوا على التراث الأدبي العالمي ، وبخاصة الأدب الفرنسي والانكليزي . مما زادهم قدرة على التعبير عن واقعهم الإفريقي بأسلوب أدبي رفيع المستوى استطاع بالفعل أن يفرض وجوده على الساحة الأدبية العالمية .

وعلى الرغم من أن معظم الأدباء الأفارقة المعاصرين قد كتبوا أغلب نتاجهم الأدبي باللغتين الفرنسية والانكليزية . فإنهم قد استطاعوا بحق أن يعبروا بصدق عن أحاسيس الشعوب الإفريقية فقدموا لنا نتاجاً أدبياً إفريقياً متميزاً .

وهذه لمحة عن أشهر أدباء القارة الإفريقية المعاصرين ومقتطفات من نتاجهم الأدبي يمكن أن تعطينا فكرة واضحة عن خصائص الأدب الإفريقي الذي ظل مجهولاً حقبة طويلة .

## فردينان أويونو من الكامرون .

ولد فردينان أويونو عام ١٩٢٩ ، أنهى تعليمه الثانوي في الكامرون ، ثم تابع تعليمه في مقاطعة بروفانس في فرنسا فانتسب هناك الى كلية الحقوق وحصل على دبلوم في المحاماة ، ولكنه كان في الوقت ذاته يعشق الادب فأنجبه الى الكتابة ولاقت مؤلفاته الادبية بالفعل رواجاً كبيراً وإقبالاً جماهيرياً واسعاً ليس في إفريقيا فحسب وإنما في العديد من الدول الاوربية . ويعتبر فردينان أويونو من اوائل الادباء الافارقة الذين خاضوا تجربة كتابة المسرحية . ولقد عرضت له عدة مسرحيات في عددٍ من مسارح باريس الشهيرة . من اشهر مؤلفاته رواية « حياة خادم أسود » ( من منشورات جوليارد - باريس عام ١٩٥٦ ) ، ورواية « الزنجي العجوز والوسام » عام ١٩٥٦ ، واخيراً رواية « الطريق الى اوربلا » عام ١٩٦٠ وهما أيضاً من منشورات جوليارد - باريس .

مقتطفات من رواية « الزنجي العجوز والوسام » :

### أصدقاء ميكا

قرر ميكا ذلك الزنجي العجوز أن يصرف زوجاته في ذلك اليوم الى بيوت أهلهن لانه أراد أن يحتفل بعيد ميلاده السبعين ، ويعتبر ذلك بمثابة وسام يعلق على صدر كل رجل زنجي ، فهذا العمر بالنسبة الى الزنجي هو عمر الحكمة . وفي المساء دعا العديد من اصدقائه للاحتفال بهذا العيد . ومن بين هؤلاء الاصدقاء نذكر / نوا / العجوز ، وهويقارب / ميكا / سنأ ولكنه للأسف لايعرف بالتحديد عمره الحقيقي لان والديه لم يسجلاه في سجل الولادات عندما أبصرت عيناه النور لأول مرة . وهناك نيتي الذي جاء الى قرية ميكا منذ خمسة وعشرين عاماً بحثاً عن العمل فوجد مبتغاه في قطف الكاكاو في

حقول ميكا الذي ربطته به صداقة حميمة ، ولهذا كان ميكا يطلب دائماً من نيتي مشاركته طعام العشاء .

ونذكر أيضاً مغوندو وهو ابن اخت ميكا ، ومع أنه لم يتجاوز الثلاثين من عمره فإنه لم تبق شعرة واحدة فوق رأسه وتسري شائعات في القرية مفادها ان مغوندو عندما ولد كانت أسنانه بأكملها ظاهرة في فمه .

ومن ضيوف تلك الحفلة ايضاً إيفينا . وهو خادم سابق لدى البيض الذين صرفوه من الخدمة بعد ان فقد آخر سن في فمه وهذا دليل عجز وشيخوخة ، ولعل زوجته قررت الطلاق منه لذلك السبب عينه .

ولم يجد إيفينا المسكين امامه سوى الاعتراف بالامر الواقع ، فقرر الاعتزال في قرية /دوم / ، وهي قرية ميكا فتراه طيلة اليوم جاثياً فوق الاعشاب يستمد الدفء من أشعة الشمس أو هو ينتظر الموت بعد ان سئم الحياة .

كل هؤلاء الناس اجتمعوا من كل صوب وحدهم لمشاركة ميكا فرحته في تلك الليلة السعيدة وهو يحتفل ببلوغه سن الحكمة ، وقد جلسوا جميعاً حول قنديل من البترول يتسامرون ويضحكون .

### بولامبا من زائير

ولدت عام ١٩١٣ في مدينة بورا ، درس الفلسفة ثم اتجه الى العمل الصحفي ، وهو وزير سابق للإعلام في زائير ، ويعتبر أمير الشعراء الزوج . ولقد وصفه ليوبولد سنغور ذات مرة بأنه فلاح زنجي ينتسب الى المدرسة السريالية ، فقصائده مليئة بالصور الرائعة . ومن أشهر مؤلفاته نذكر « محاولات أولى » عام ١٩٤٧ وه أناشيد لبلادي « عام ١٩٥٥ » ومشكلات تطور المرأة الإفريقية « ، ومن الكتاب الثاني اخترنا هذه القصيدة :

## الطفل

صوتك العذب يتردد صده .  
في السهول والوديان  
في الغابات والجبال  
وينفذ الى اعماق النفوس  
فيثير فيها كوامن الاشجان .  
ويضفي على مشاهد الطبيعة الرائعة  
المهابة والجلال  
أنت وحدك تصور أحزانها وآلامها  
وتعبر عن حينا وأملنا .

دعنا لنا خير معز وصديق حميم  
يساكننا في الفرحنا وأتراحنا

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

## داديه

وهو من ساحل العاج ، ولد عام ١٩١٦ في مدينة أسيبي عمل فترة طويلة معلماً في مدارس ساحل العاج وشغل منصب مدير معهد الفنون الجميلة في أبيدجان . يعتبر داديه شاعراً وقاصاً ومفكراً مرموقاً ، يمتاز أسلوبه بالعدوية والسهولة . وتشبه قصصه أمثال لافونتين ، وتنطوي رواياته على أفكار فلسفية عميقة . ومن أشهر مؤلفاته « انهضي يا افريقيا » وهي مجموعة شعرية من منشورات سيغرز باريس ١٩٥٠ و « أساطير افريقية » عام ١٩٥٥ و « الصفحة السوداء » وهي مجموعة قصصية عام ١٩٥٥ ؛ وفي عام ١٩٥٥ أيضاً اصدر رواية شهيرة بعنوان « كليمة » كما اصدر في عام ١٩٥٦ كتاباً بعنوان « ودارت الايام » و « يوميات زنجي في باريس » وهي رواية اصدرها عام ١٩٥٩ . وفي

عام ١٩٦٤ أصدر كتاباً نقدياً بعنوان « سيد نيويورك » . ومن روايته المذكورة نقتطف المقتطع التالي :

### حياة مزارع

إنك ترى يابني ان هناك مجالا واسعا للعمل ، فكل يوم أكافح النباتات المتسلقة والاعشاب والعوسج والمطر والرياح والشمس والحشرات والقردة التي تغير علينا وجميع الحيوانات الضارة ، ولذا وجب عليّ ان اكون يقظا ليل نهار . واذا ماهيت الريح بشدة قلت في نفسي ان هذه الريح سوف تسقط ازهار شجر البن ، وسيكون المحصول في ذلك الموسم رديشاً . واذا ما تأخر سقوط المطر هددت المجاعة أنحاء البلاد . . . .

وهكذا ترى يابني أن إنشاء مزرعة ليس بالأمر اليسير وإذا كنت لا تملك مالا فليس من يعد لك يد العون وعليك ان تعمل وتجد حتى لا تكون عائلة على احد .

### ليوبولد سيدار سنغور من السنغال<sup>(١)</sup>

له عدة دواوين ومؤلفات ومقالات ، وفيما يلي نموذج من كتابته .

### الاصالة الافريقية

يخطيء كثير من الاوروبيين عندما يقولون ان الافارقة الزنوج يؤمنون بالسحر ويقدرّون السحرة ويعطونهم أرفع المراتب الاجتماعية والقيادية في مدنهم



وقراهم . ولاشك ان مثل هذا القول افتراء ناجم عن نظرة التعالي التي يتصف بها الرجل الاوروبي تجاه السود ، والحقيقة أننا إن حللنا بنزاهة معتقدات الزنوج الافارقة ودرسنا بشكل موضوعي ما يقومون به في المناسبات الدينية والاجتماعية وجدنا أن الزنجي الافريقي لا يؤمن على الإطلاق بالسحروانها يؤمن بالروحانيات تماماً كما يفعل الشرقيون ، فالزنوج الافارقة يؤكدون ان الامور الحسية في هذه الحياة ليست سوى مظاهر مادية للقوى الحقيقية التي تحرك الكون وتحكمه بقوانين ثابتة وجدت منذ ان وُجد الكون . ولذلك فان الافارقة الزنوج يؤمنون بالحدس او ما اصطلاحوا على تسميته بالحاسة السادسة كأداة اتصال بين نفوس البشر وافكارهم . ولعلّ الحادثة التالية تثبت لنا ذلك .

في احدى القرى الافريقية النائية كانت احدى النساء تنتظر بفارغ الصبر عودة ابنها من فرنسا حيث كان يتم دراسته ، إذ ان اخباره كانت منقطعة منذ زمن بعيد ، ولم تكن الام تعلم مكان وجوده ولكنها كانت تُصرّ على القول ان ابنها ما يزال حياً .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

و ذات صباح ، استفاق اهل القرية على صوت تلك المرأة وهي تغني وترقص فرحاً ، وعندما سألوها لماذا تفعل ذلك أجابت : « ابني سيعود اليوم إلينا » على الرغم من أنها لم تتلق أية رسالة منه تُشعر بموعد عودته . فسخر البعض منها ظناً منهم أنها تهذي وأشفق البعض الآخر عليها ظناً منهم أنها فقدت عقلها فعادوا الى بيوتهم بينما ظلت تلك المرأة تغني وترقص فرحاً .

وعند الظهر دهش جميع اهل القرية عندما علموا أن ابن تلك المرأة قد عاد بالفعل الى تلك القرية قادماً من فرنسا ، فلم يجدوا امامهم سوى تقديم التهاني لتلك المرأة . ومنذ ذلك الحين بلّوا يؤمنون بالتخاطب أني بتناقل الخواطر والوجدانيات من عقل الى عقل على البعد من غير الوسائل الحسية المعروفة .

## كامارا لاي . من غينيا

ولد عام ١٩٢٨ من أسرة تنتمي إلى الطبقة العمالية ، تلقى علومه الأولى في المدرسة القرآنية في كوناكري . وبعد أن أنهى دروسه الابتدائية والثانوية انتسب إلى المعهد التقني في العاصمة الغينية حيث تخرج منها بتفوق ، ثم ذهب إلى أوروبا بقصد العمل وهناك اطلع على أهم كتب الأدب العالمي فعشق الأدب ، وعاد بعد ذلك إلى كوناكري مكرساً معظم وقته للكتابة والتأليف على الرغم من كونه عضواً في المؤسسة الوطنية للأبحاث العلمية . ومن أشهر مؤلفاته نذكر « الطفل الأسود » عام ١٩٥٣ ، و « نظرة الملك » عام ١٩٥٤ ، وكلا الكتابين نشر في فرنسا .

ومن كتابه « الطفل الأسود » نقتل هذا المقتطف :

## ARCHIVE

يوم العمل الأول

اليوم هو من الأيام التي سأحلم ذكراها طيلة حياتي فبالأمس بلغت العاشرة من عمري ، وفي صباح هذا اليوم وجدت والدي منذ الصباح الباكر واقفاً أمام سريرتي يعمل على إيقاظي قائلاً لي : « انهض يا بني ، فلن تنام اليوم كباقى الأيام الماضية حتى الظهر ، بل ستذهب معي إلى العمل ، لقد بلغت سن الإنتاج » وكم كانت فرحتي كبيرة لدى سماعي تلك الكلمات ! فلقد كنت بالفعل في ذلك اليوم ومنذ زمن بعيد لا أطيق تلك الرثابة القاتلة التي أصبحت عليها حياتي ، إذ كنت لا أعمل شيئاً . فلا مدرسة في قريتي اذهب إليها ، ولا نوادي رياضية أمضي فيها أوقاتي ، وكل ما كنت أقوم به هو جمع بعض الأخشاب لوالدي ، فبدأ الملل يتسلل إلى نفسي ، ولهذا ما إن سمعت كلام والدي هذا حتى انطلقت من السرير بسرعة البرق وارتديت ثيابي بسرعة أكبر وقلت لوالدي : « ها أنا مستعد للعمل »

كانت والدي مائزلة نائمة حين تناولنا بعض الطعام وقليلًا من الماء وانطلقنا باتجاه المزرعة . كان ذلك اليوم يوم حصاد فأعطاني والدي منجلا صغيرا وعلمني كيف نطف سنايل القمح ، وكنت سعيداً بذلك .

وبعد ساعات طويلة من العمل الشاق تحت أشعة الشمس بدأ والدي يشعر بأن التعب قد غلطني وبأن لساني قد جف من العطش . وبدأت مظاهر الاعياء تظهر على وجهي فكان ان ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة ، علمت بسرعة انها علامة الرضا والفخر والاعتزاز ، فهذا هو اليوم الاول الذي اعمل فيه ، وهذه هي المرة الاولى التي أشعر فيها بتعب العمل ومشاقه .

وأقبل والدي يقدم لي كوباً من الماء ، ولكنه قال : « إياك ان تشرب كثيراً ، خذ جرعة واحدة لإرواء عطشك فالأكثر من شرب الماء أثناء العمل يضر كثيراً ويجعل الكسل يسيطر عليك كما قال لي : « اخلع قميصك فقد بلله العرق ، فمن الخطر أيضاً أن يعمل الإنسان وهو يرتدي قميصاً مبللاً . »

وفعلت ما نصحتني به والدي ، وبعد ان أخذت قسطاً قليلاً من الراحة عدت الى العمل بنشاط أكثر وباندفاع اكبر واكملت جميع المحصول مع والدي . وعندما بدأت الشمس تميل الى المغرب جمعنا القمح وملكنا طريق العودة الى المنزل فرحين سعداء ونحن ننشد الاغاني المفرحة . حقاً انه يوم لن انساه ماحييت .

### عثمان ساميين وهو أيضاً من السنغال

ولد في مدينة كازامانس السنغالية عام ١٩٢٣ من أهل يعملون في الصيد . تخرج من المعهد التقني في داكار ، ثم عمل لمدة اربع سنوات في ايطاليا والمانيا كعامل ميكانيكي ، ولكنه أصيب بعد ذلك بكسر في عموده الفقري جعله عاجزاً عن الحركة تماماً ، وقبل ان يعود الى وطنه السنغال جاب العديد

من الدول الأوروبية واطّلع على تراثها الادبي ، وصبحت حياته بعد ذلك حياة نأمل عميق كرسها للكتابة والتأليف .

حصل في عام ١٩٦٣ على جائزة مهرجان تور السينمائي لأفضل سيناريو عن الفيلم القصير بعنوان « سائق عجلة » وصوّر هذا الفيلم في شوارع دكاكر ، ورواية « زنجي يعمل في رصيف للسفن » أصدرها عام ١٩٥٧ ، ورواية « بلدي وشعبي الطيب » صدرت في باريس عام ١٩٥٧ ، وأصدر أخيراً رواية « أطراف غابة الله » عام ١٩٦٠ . ومن روايته : « بلدي وشعبي الطيب » نعرض هذا المقطع :

### موطني

كم احب ارض وطني ! وكم اعشق تراب بلادي ! لقد تجوّلت في بلاد  
أوربية عديدة ، ولكنني لم أجد أحمل من بلدي وعاشت شعوباً أوربية كثيرة  
ولكنني لم أجد أطلب من الشعب الإفريقي : في جميع انحاء اوربا التي زرتها  
شعرت بالغربة ، فلم أجد الأمان الا فوق ارض بلادي . ولهذا قاومت جميع  
الاعراض التي كانت تشدني للبقاء في اوروبا ، ورفضت الابتعاد عن وطني  
الحبيب فعدت اليه سعيداً لأقبل ترابه المقدّس . وكم يحلوني دائماً زيارة مسقط  
رأسي في قلب افريقيا لاسترجع ذكريات طفولتي التي لاتنسى . وكم مرّة  
شاهدني اهل قريتي وأنا أتجول وحيداً بين المزارع ، ذلك لانني اعتبر ارض  
بلادي كامراً أعشقها فتبادلني هي بدورها الحب والحنان إن تربة وطني هي  
جسد حبيتي وأشجار غاباته أشبه مائكون بصفائرها ، والنسمات اللطيفة هي  
بمشابة أنفاسها العطرة ، وصوت الريح هو صوتها العذب الذي يتناجني  
ويواسيني ولذا فإنني أتساءل هل يمكن لي الابتعاد عن تراب وطني ؟ وهل يقوى  
أحد على ان يعيش بعيداً عن حبيبته .

## أدب الزنوج الأمريكيين

في الولايات المتحدة الأمريكية الآن حركة أدبية زنجية تطلق على نفسها اسم « النهضة الزنجية » ، وترمي هذه الحركة الى تأكيد كرامة الرجل الأسود وليس ذلك تبعاً لتشابهه القريب أو البعيد بالعالم الأبيض ، بل لمجرد كونه « زنجياً » وترمي أيضاً الى تأكيد حرية التعبير بالنسبة للزنجي كما هو في حالته الراهنة ، وكما كان عليه في الماضي . ومن أهداف هذه الحركة أيضاً الدفاع عن حقّه في العمل وفي الحب وفي المساواة وفي الاحترام ، وهي تضطلع بنشر ثقافة الرجل الاسود ووصف ماضيه المفعم بالآلام ، كما تضطلع بإبراز اصله الافريقي .

وتتضم هذه الحركة عدا من الأدباء نذكر منهم لنغستون هيوغ وكلود ماك كاي وكونني كالن ورييه ماران .  
إن « البيان » الذي اصدره هذا الفريق الصغير يعبر احسن تعبير عن شعور الزنوج بعزيمتهم وكرامتهم يقول هذا البيان :

« نحن بنساء الجليل الزنجي الجديد نريد التعبير عن شخصيتنا وأصالتنا الزنجية دون اي شعور بالتحجل أو الخوف ، فاذا كان ذلك يروق للبيض كنا سعداء به ، وإذا كان لا يروقهم ، فلسنا نبالي بذلك البتة . نحن نعلم علماً اليقين أننا على جانب كبير من الجمال ومن القبح في الوقت نفسه . إن العيلة تنوح وتضحك ، فان يحل لهم سماعها نُصبّ بذلك فرحاً عظيماً وإن لم يحبوا سماعها فلا يهمننا ذلك البتة . نحن نبي معابدنا كما يحلو لنا ، ونقف بأنفء وإباء وقد تحررنا من الذل والعبودية . »

هؤلاء الأدباء ثوريون لاني اسلوبهم فحسب بل هم ينتسبون الى تيارات مختلفة . إن صرختهم هذه التي يطلقونها جديرة بأن تلفت أنظار العالم بأسره

الى قضيتهم العادلة ، واذا أضر هذه الصرخة يتشتت تدريجياً الى جزر الانتيل  
والى كوبا وهاييتي وغيرها في انحاء العالم .

### لنغستون هيوغ ( ١٩٠٢ )

لنغستون هيوغ شاعر أمريكي خلاصي أبوه رجل أبيض وأمه زنجية ، ويعتبر  
من اعظم الزنوج المعاصرين ، لانه مبتكر حقاً في أسلوبه وفي مواضيعه . أما  
قصائده فرائعة ببساطتها وسلاستها ، وهي صادقة ومؤثرة لانها تخرج من  
صميم قلبه ، وماخرج من القلب حل في القلب .

لقد جمعت هذه القصائد بين الدعاية والحزن ، وبين الرقة والتهديد .  
وهذا ما يجعلها قريبة الى نفسنا . إنه يحدّثنا عن الأم الشعب الزنجي في  
أمريكا فيهبّ مشاعرنا « وهو الى الجانب ذلك يحدّثنا الرق القديم في » حكايات  
العمة سوزان « ويصف لنا قلق الزنوج الذين يعيشون وسط حضارة الرجل  
الابيض في قصيدته « الشعور بالخوف » ويعبر عن حنينه الى افريقيا الضائعة في  
قصيدته الرائعة « أرضنا » . وهو يطالب كذلك في قصيدته المؤثرة « النجوم »  
باسترداد مكانته في المجتمع ، إذ يقول فيها كلمته الخالدة : « وأنا أيضاً أمثل  
أمريكا » .

أما آثاره الهامة فهي سيرته الذاتية « البحر العميق » ورواية طويلة عنوانها  
« الساذج » وأخيراً القصائد التي نظمها بشكل أناشيد وبشكل « الروحانيات  
الزنجية » وهي تروي لنا الحرب من الروتين اليومي بقصد الانطلاق نحو السماء  
طلباً للسعادة الأبدية أو تصف لنا السأم والعزلة والجوع وكآبة الحب في هذه  
الدنيا ، وهي تعبر في أغلب الاحيان عن عواطف الحزن والكآبة .

## الخوف

نحن نبكي ونثرَ وسطَ ناطحات السحاب  
تماماً كما كان أبأؤنا وأجدادنا يكون ويثنون  
وسط أشجار النخيل في افريقيا الحبيبة  
ذلك لأننا نشعر بأننا وحدنا

\*\*\*

نحن بحاجة الى أرض تشعّ بالبهاء  
تحت أشعة الشمس الالهية ،  
الى ارض مياهها مضمخة بالطيب  
يبدو فيها الشفق وكأنه وشاح أخضف  
مصنوع من نسج مشرّ ألوانه ووردية وذهبية  
ولسنا بحاجة الى أرض باردة لاحياة فيها

\*\*\*

نحن بحاجة الى أرض تكثر فيها الغابات الكثيفة  
أشجارها مثقلة بالبيغاوات الثرثرة  
وأوراقها تسطع بالألوان الفاقعة البهية  
ولسنا بحاجة الى أرض قاحلة  
طيورها رمادية اللون باهتة

\*\*\*

نحن بحاجة الى أرض تفيض بالحب والفرح والغناء  
ولسنا بحاجة الى أرض يعتبر الحب والفرح فيها ذنباً وكفراً

\*\*\*

فيا صديقتي الحلوة لنهرب من هذه الارض اللعينة  
لنهرب يا صديقتي الحبيبة الى ارض آباءنا وأجدادنا !

• • •

وأنا حينما أصبح مؤلفاً موسيقياً بارعاً  
سوف ألحن لك قصيدة تصف بزوغ الفجر في الألباما  
قصيدة تفيض باعذب الألحان والأنغام  
تتصاعد من الارض كالضباب من المستنقعات  
وتساقط من السماء تساقط قطرات الندى  
قصيدة أضع فيها أشجاراً باسقة رائعة  
يُشْتَمُّ منها أريج **ابن الصنوبر**  
وشذا الصلصال الأحمر بعد تهطل المطر  
وأصور تلك الوجوه المحمّرة كشقائق النعمان  
وهاتيك التواعد المفقولة الشديدة السمرة  
سأفعل هذا كله حينما أصبح مؤلفاً موسيقياً ،  
أنغنى بجمال الطبيعة وأصف بزوغ الفجر  
في الألباما . . .

### حكايات العمّة سوزان

رأس العمّة سوزان مليء بالحكايات  
وقلب العمّة سوزان يفيض بالحكايات .  
في ليالي الصيف ، وعلى شرفة بيتها  
تضم العمّة سوزان بين ذراعيها طفلاً زنجي  
تُحيطه بالعطف والحنان وتروي له حكايات



العبيد الزوج  
الذين يسرون في اللبالي الخالكة  
العبيد الزوج  
الذين ينشدون آلامهم وأحزانهم

\* \* \*

حكايات العمة سوزان تحكي مأساة الزوج  
فيصغي اليها الطفل والحسرة تفيض في قلبه  
فهو يعلم تماماً ان حكايات العمة سوزان صورة صادقة للواقع

### لعبة الخيل الخشبية

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhr>

طفل ملون (غير أبيض) في العبد  
أين مقصورة الزوج  
على لعبة الخيل هذه  
ياسيدي ، لأنني أريد الصعود ؟  
هناك في الجنوب الذي اتيت منه  
البيض والملونون  
لا يستطيعون الجلوس جنباً الى جنب  
هناك يضعوننا في مؤخرة السيارة  
ولكن هنا لانرى مؤخرة  
في لعبة الخيل هذه !  
فأين إذن الحصان  
المخصص للطفل الزنجي ؟!

## النجوم

هناك حيث مجموعة النجوم  
انفضت فوق شوارع / هازلم /  
وحيث نسمة النسيان التي تشكل الليل  
ستنفض المدينة كلها  
لدى سماعها أغنية الأم لطفلها حتى ينام  
مد يدك أيها الطفل الزنجي وخذ نجمة  
من اعماق نسمة النسيان التي تشكل الليل  
لا تأخذ  
سوى نجمة واحدة .

وأنا أعتقد أنك تشيدي  
أنا ألهج الرضيع

<http://Archivebeta.org/khrit.com>

الذي يرسلونه إلى المطبخ

للتناول الطعام

حينما يأتي الضيوف .

ولكنني أضحك حينذاك

لأنني أتناول ما يكفي من الطعام

لأستعيد قواي .

ولكن غداً

سأبقى جالساً إلى مائدة الطعام

حينما يأتي المدعوون .

فلا يجرؤ أحد

ليقول لي

حينذاك :

« اذهب الى المطبخ لتناول الطعام »

ومن ثم سيصرون كم انا جميل

فيشعرون بالحجل .

ذلك لاني انا أيضا أمثل أمريكا .

### كلود ماك كاي

ولد كلود ماك كاي في الجامايك من أسرة قروية ، وهو من أشهر الادباء الزنوج الامريكيين ، بدأ حياته الادبية بنشر ديوان عنوانه « أناشيد جامايكا » ، وقد عقد العزم على عدم قطع علاقته ببلده الشعبية على الاطلاق ، وهو على النقيض من النخبة الزنجية المثقفة التي كان شغلها الشاغل تكوين طبقة مستقلة موجهة تماما نحو النموذج الامريكي الابيض . إنه يعيش ، شأن لنغستون هيوغ حياة مستقرة ، ولم يكن ذلك بدافع الضرورة فقد حصل بالتتابع على منحة أخرى للدراسات الزراعية في /الاباما/

وهو يعيش هذه الحياة المتقلبة بدافع حب الاطلاع ، ذلك انه يريد ان يطلع على كل ما يمت الى اخية الانسان بصله في جميع بقاع العالم . فلكي يعيش ماك كاي في / هارلم / ، بلد الزنوج في نيويورك ، أدار مطعماً وقام بغسل أنية المائدة ، ولكي يطلع على جميع أنحاء أمريكا اضطر الى العمل كبخار على ظهر سفينة تبحر قرب الساحل وكعامل في القطارات الحديدية الضخمة - البولمان - . واخيرا لكي يتعرف على هذا الكوكب الذي تعيش فيه اشتغل كوفاد فوق سفينة شاحنة ومضى فيها بعيدا حتى وصل الى روسيا . كما اشتغل سنة كاملة في لندن في احدى المطابع وقام بتحقيقات صحفية لجريده عمالية ،

وعمل في مينائي مرسيليا و/برشلونة/ ومن هذه التجارب المتعددة انبثقت قصائد ورواياته .

ذلك لأن / ماك كاي / لم يكف عن نضاله في سبيل العودة الى « أصالة الرجل الزنجي » . وقد شارك في الولايات المتحدة في تحرير « بيان الأدباء الإفريقيين » الذي اتينا على ذكره ، بالتعاون مع جماعة من الأدباء المشهورين أمثال لنغستون هيوب و/جان تومر ، وكونتي كالن وستيرلنغ براون ، كما ناضل في جريدة « المنفذ » التقدمية .

لقد تردد في باريس على الأوساط الفكرية التي صدرت عنها حركة الزنجية . أي وضع الزنوج أو طبيعتهم ( La négritude ) .

وها هو ينشر قصائده بعنوان « صور من هارلم » . ويعتبر / كلود ماك كاي / بخاصة رائد « الرواية الواقعية الزنجية » الأمريكية ، وذلك في روايته « بيت في هارلم » و« بانجو » حتى يمكننا القول إن لغتهم النابضة بالحياة . واستخدام هجنتهم المحلية وتصوير طباع شخصياتهم بصدق ودقة وبراعتهم في سرد الأحداث . والتنويه بالقضايا الاجتماعية والعنصرية ، ونقد أخضارة الأمريكية تشكل مكتسبات كلود ماك كاي على صعيد التجديد الأدبي ، سواء أجا في المجال الروحي أو الثقافي على يد النخبة البورجوازية من البيض أو السود . ولاشك بأن تأثير هذا الأدب سينعكس بالتأكيد وأن بصورة غير مباشرة على العديد من الروائيين الزنوج الناطقين باللغة الفرنسية أمثال عثمان سوس وجوزيف زوييل وسببين عثمان وغيرهم . والنص التالي الذي نقدمه للقراء يطرح مشكلات هامة ويعالج قضايا الساعة وهو مقتطف من رواية عنوانها « بانجو »

## إنكم لعلی ضلال مبین « أبها المثقفون الزنوج »

[ التقى راي طالباً زنجياً من المارتينيك . وفي نظر هذا الطالب أن اكبر فخر لجزيرته أنها شهدت ولادة الامبراطورة جوزفين ، وهو يرى أن هذا الحدث التاريخي أصفى على المارتينيك أهمية جعلتها تتفوق باعتزاز على جزر الانتيل كلها ]

- لادامي هذا الفخر العظيم ، يقول راي . إن هذه المرأة لم تكن من الملونين - لا ولكنها امرأة مولدة بيضاء ، اي بيضاء مولودة في المستعمرات الاوروبية القديمة . وفي المارتينيك نحن مولودون بيض اكثر منا زنجياً . نحن فخورون بالامبراطورة في المارتينيك . هنالك المجتمع الراقى يتميز بصفاء ذهنه ولباقة تصرفه ويتكلم لغة فرنسية فضيحة سليمة ليس لها أية علاقة بلغة مرسيليا العامة .

وسأله راي إن كان سمع الناس يتحدثون عن رواية « باتوالا » للمؤلف رونية ماران ، فأجاب أن السلطات منعت بيع رواية باتوالا في أرض المستعمرة ، وبدأ أنه يوافق على هذا الاجراء فسأله راي ان كان ذلك صحيحاً ، فهو لم يسمع احدا يذكر هذا الامر .

- إنه كتاب مضر وخطر جداً ، يقول الطالب في معرض دفاعه عن منع هذا الكتاب .

ويجب راي : يتوجب علينا ان نبدي رأينا في الحضارة طبقاً لموقفنا العام من الشعوب البدائية وليس وفق حالات استثنائية . فلا يحق لنا ان نتجاهل حقيقة أن أجدادنا كانوا عبيداً .

في الولايات المتحدة يعتبرون زنوج الشمال أرفع منزلة من زنوج الجنوب ومن سكان جزر الانتيل الذين يكتسوا مظهر الحضارة الراق . نحن الزنوج المثقفين نتحدث كثيراً عن الرجوع الى الجذور ، وإني أتساءل كيف الوصول

الى ذلك .

وقال الطالب :

- أنا أقرّ مبدأ العودة الى الجذور ولكنني لا اوافق على العودة الى الحالة الهمجية .

- إن الغوص حتى جذور شعبنا والبناء فوق ارضنا الخاصة لايعني العودة الى الوحشية والهمجية . بل يعني العودة الى معين الثقافة بالذات الى تراثنا الخالد .

- لا ادرك تماماً ما تقول .

- إنك تشبه في ذلك معظم مثقفينا الزنوج الذين يتحدثون كثيراً عن

« الاصول » . إن تربيتكم التي تلقيتموها هي التي توحد بينكم ، فهم يلقونكم ازدراء شعبكم الخاص ، أنتم تطالعون كتب التاريخ المحشوة بأراء البيض المسترة الخاطئة ، هؤلاء البيض الذين غزوا الشعوب الملونة إن هذا الغزو يحرك شعوركم تماماً كما يحرك شعور فتى ابيض ينتسب الى امة عظيمة بيضاء . وحينما اصبحتم كباراً اكتشفتم بدهشة وصرارة ، أنكم لانتتمون ولا يمكن ان تنتموا الى العرق الابيض ، وكل ما تعلمتموه أو أنجزتموه لن يساعدكم على فتح مجالس البيض المغلقة دونكم ، ولن يمنحكم الفرص الكاملة التي تسنح للرجل الابيض . عبتاً اصبحتم من رجال العصر الموهوبين والمثقفين . إن صفة « اللون » ترافق دائماً أسماءكم . وانتم بدلاً من ان تقبلوا هذه الصفة بزهو وشجاعة يشعر العديد منكم بالسخط والكآبة ، أنتم الخلاسيون بخاصة . إنكم أيها المثقفون الزنوج لعلى ضلال مبين ، فلا يمكنكم ان تهتدوا الى طريقكم إلا بالعودة الى اعماق شعبكم .

يجب ألا نتخذوا : حذو الشبيبة المثقفة المتعجرفة من البيض ، فهي

تنتسب الى مجتمع أبيض مطمئن ومعتمد على فتوحاته الامبريالية . هذه الشبيبة المغمورة بالخيرات تسمح لنفسها بازدياد الطبقة الكادحة . فلو كنتم مخلصين في مفهومكم لتقدم العرق . لفتنتم عن نهاذج لكم لدى أشخاص بيض يتسبون الى طبقة اخرى ولدرستم الحركة الثقافية والاجتماعية عند بعض الشعوب المنصفة . ويحذركم ان تلقوا جانباً بجميع الروايات الاوروبية التي تنم عن شي من الذكاء ولاريب ، ولكنها لا تخلو من الملل ، وأن تطالعوا تاريخ الفلاحين الروس ونضاهم وحياتهم الوضيعة الشاقة والدؤوب . ويحسن بكم ان تطالعوا حياة الروائيين الروس الذين وصفوا حياة الفلاحين حتى الثورة الروسية . ولا بد لكم أن تطالعوا على كل ما انجزه غاندي من اجل الطبقات الهندية الشعبية . عليكم ان تهتموا بلغتكم المحلية وبلهجاتكم ، فان لم تفهموها كلها فلا بد ان تشعروا بالتواضع والخشوع امام بساطة جماعتها بدلاً من الاستخفاف بها .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

### كونتي كالن

يحتل كونتي كالن مكاناً خاصاً بين شعراء النهضة الافريقية ، وهو اكثرهم حينئذ الى وطنه الام افريقيا . تعبّر قصيدته « تراث » اروع تعبير عن قلقه واضطرابه كما تظهر مواطن السحر والجمال في افريقيا . حقاً انه ينطق بلسان كل زنجي امريكي حينما يتساءل :  
 إفريقيا ، ماذا تمثل في نظري ؟ أنا الذي تفصله ثلاثة أجيال عن هاتيك الاماكن التي احبها آبائي وأجدادي .  
 لقد اصبحت افريقيا في نظرهم شيئا مثاليا ولكنها نفتقر الى الاصاله ، فهي اشبه ماتكون بكتاب مزين بالصور للاطفال تمثل الطيور

المغرّدة . والسنوريات والثعابين والاوزان والزئوج العراة الذين يرقصون  
وسط الغابات الكثيفة .

يعتبر كونني كائن اكثر الشعراء الزئوج تصوفاً ، ويقوده الالم في  
النهاية الى الصلاة والتأمل في حين ان الالم يؤدي الى التمرد والعصيان  
عند مالك كاي ، كما يؤدي الى التهديد والكأبة والسخرية اللاذعة عند  
لنغستون هيوغ وستيرلينغ براون .

### تراث

إفريقيا . . ماذا تمثل في نظري ؟

هل تمثل الشمس بألوانها النحاسية والقرمزية ؟

أم هي تمثل نجمة الغابة الكثيفة

أم الرجال الأشداء الذين لفحت الشمس أجسامهم

أم هي موطن النساء الزنجيات اللواتي ولدتني بينما كانت طيور

الجنة تغرد  
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

إفريقيا ، ماذا تمثل في نظري ؟

لا فرق عندي ، ان هي مثلت كتاباً أتصفحه بلا انتباه حتى يأتي

النعاس ،

أم مثلت السنوريات المختبئة داخل القصب وهي تنتظر فريستها

على ضفة النهر

إنّي افضل سماع الطيور المغردة

ورؤية قطعان الغابة التي تعود الى حظيرتها عند المساء

### رونية ماران

هذا الاديب الزنجي ولد في المارتينيك ، وقد نذر نفسه لوصف الزئوج

ببساطة كما كانوا تماماً دون تشويههم ، فهو يذكر صفاتهم كما يذكر عيوبهم ، فهم



عاديون في عاداتهم وتقاليدهم ، وشعراء في معتقداتهم . إنهم يفكرون ويتفقدون أسيادهم الأوروبيين بمنطق لا يعرف الشفقة .  
حقاً كان رونية ماران من رواد « حركة الزنوجة » فقد كتب عدة روايات تحليلية : « رجل لا يختلف عن الآخرين » و « قلب منقبض » .

### مقتطف من مقدمة رواية « باتوالا »

هذه الرواية موضوعية تماماً ، فهي لا تحاول ان تشرح الحوادث ، بل تكتفي بالمشاهدة ، وهي لا تبدي سخطاً ولا ثور بل تسجل فقط . في احدى الليالي المقمرة . كنت اصغي من الشرفة الى احاديث هؤلاء المساكين وانا مستلقي على مقعدي المريح . فقد كانوا يتألمون ويضحكون من الألم .  
حقاً كان متسكبر على حق حين كتب صفحة خالدة عبر فيها عن سخطه وغضبه تحت ستار من السخرية اللاذعة :  
<http://Archivebeta.Sakhrnt.com>  
إنهم سود من أحمص قدميهم حتى رأسهم ، وهم فطس الانوف حتى ليتعذر علينا ان نشفق عليهم .

وهم اذا ماتوا جوعاً بالآلاف كالذباب ، فذلك انهم يحرقون اراضيهم وينمون بلادهم ، فلا يموت منهم إلا أولئك الذين لا يتكيفون مع الحضارة .  
أيتها الحضارة ! أيتها الحضارة موضع فخر الأوروبيين ومذفن عظام الابرياء ، لقد فضحك رابندراناث طاغور ، شاعر الهند ذات يوم في طوكيو !  
إنك تشيدين مملكتك فوق الجثث ، وانت مهما قلت ومهما فعلت تعيشين في الرياء . إن الدموع تنفجر لدى رؤيتك ، ويضجّ الألم ، انت القوة التي تتغلب على الحق . لست منارة بل ناراً محرقة ، إنك تتلفين كل ما تمتد اليه يدك ...



# مَقَالَتَان عن الفن الإفريقي

مَهْدَتُهُمَا وَتَرْجَمَتُهُمَا: فريد جحسا

ARCHIVE: تمهيد:

هذا العدد الخاص المكرس من مجلة الآداب الأجنبية ،  
للآداب الأفريقية ، حدث هام ، ودليل على اهتمامنا نحن  
العرب بأشقائنا شعوب العالم الثالث ، الذين نشاركهم  
ويشاركوننا آمنا وأمالنا ، وعهودا كثيرة من تاريخنا ، فضلا عما  
نتطلع اليه معاً من بناء مستقبل للإنسانية تسوده علاقات الأخوة  
والعدل والسلام .

وكان صديقي الدكتور حسام الخطيب ، رئيس  
التحرير ، على صواب حين طلب بشزويد العدد يبحث عن  
الفن التشكيلي الإفريقي ، إيماناً منه بالصلة الوثيقة التي تجمع  
الفن التشكيلي بالأدب فكلامهما يمتح من نبع واحد هو النفس  
البشرية ، وبالمكانة الكبيرة التي يحتلها هذا الفن في تاريخ

الحضارة الانسانية . لذلك سارعت في تلبية طلبه . سعيداً  
باسهامي في هذا الجهد الطيب الممتاز في تعرف الثقافات  
الشاملة .

وعدت الى مالدي من مصادر حول تاريخ الفنون فإذا  
بها مكتوبة كلها باللغات الأجنبية ، فانكببت على ترجمة مقالاتين  
حول الفن الافريقي ، تكمل احدهما الأخرى من جهة ،  
وتقدم كل منها معلومات مفيدة من جهة ثانية .

في المقالتين محاولة للتعريف بهذا النوع من التراث  
الانساني الفني ، محاولة نقر بأنها جيدة ، مركزة ، كتبها يدان  
خبيرتان بالموضوع عامة ، وبالفن الافريقي خاصة .

لأن أن نشأ عليهما ملاحظات تكمن في اغفالهما الدور  
الكبير الذي قامت به أوروبا في تخريب آثار هذه الفنون وسرقها  
من الأرض التي انبتتها ، والشعوب التي قدمتها ، لتحلي بها  
متاحف أوروبا العامة ، وبمجموعات المواة الخاصة . ثم هما  
عازفتان حقاً عن تصوير الغزو الأوربي لأفريقيا ، وانحمار  
الغربيين بسكانها ، وبيعهم ، بعد نقلهم ، مبيداً في أسواق  
النخاسة العالمية .

وفي المقالتين تحامل خفي مآكر على العرب والمسلمين  
ودورهم في افريقيا هذا الدور السامي الذي نعرفه ، والذي  
سنعود الى تبيينه ، بعد أن نكون قد تزودنا بالمصادر اللازمة  
والشواهد الكافية . وإذا ماكان هذا التحامل خفياً هنا ، فإنه قد  
كان ولا يزال ، في ميدان السياسة ، بارزاً ومهتماً بإيجاد هوة بين  
العرب عامة ، وشعوب شمالي القارة خاصة ، وبين أفريقيا ،

جنوبي الصحراء ، خدمة للسياسة الاستعمارية والصهيونية من جهة ، وانزالا للأذى بالصلوات القديمة الوشيعة بيننا نحن العرب ، وبين أشقائنا الأفريقيين من جنوبي القارة من جهة ثانية ، وإنه لمن حسن الطالع أن النصف الثاني من القرن العشرين قد جلا الكثير من غبار هذه المعركة ، وبين زيفها وبطلانها ، بعد وقوف العرب ، في جميع الميادين ، الى جانب جهاد الشعوب الأفريقية طلباً للاستقلال والحرية .

وإذا كان من الأهمية بمكان إبراز هذه الأمور فإن من الضروري بعد هذا إعادة كتابة تاريخ الفن الأفريقي كتابة أكثر نزاهة ودقة وتزوداً بالمصادر ، وأكثر تفصيلاً ، وتبياناً للأثار التي تركها في الفنون الأوربية ، وللتبادل الفني المشترك للقيم الروحية والفنية بين هذا الفن ، والفن العربي والإسلامي .

أمور نعتد بأن تقوم بها فيها نستقبل من أيام « بعد أن يتاح لنا الوقت ، وتسوفر المصادر التي كتبها أيد أفريقية أو متعاطفة مع التراث الأفريقي . في انتظار ذلك تبقى المقالتان التاليتان أجدد ما يمكن أن يكتب عن فن أشقائنا من شعوب أفريقية ، على أن نؤخذ بالملاحظات التي قدمنا بعين الاعتبار .

## ١ - فن أفريقيا السوداء\*

مقدمة\*\* :

نه مفهوم غامض وخطر هذا الذي نطلقه مع كلمة « بدائي » ، ذلك أنه يعود إلى مجتمع يعتقد أنه واثق من نفسه ، مثل المجتمع الفيكتوري البريطاني ، مجتمع القرن التاسع عشر الفرنسي ، مجتمع ثمل بالإنجازات التقنية المتقنة التي شهدتها تحقق . ثم ان من العسير بمكان تفريق مفهوم التقدم : البدائيون ، كما قال معجم لاروس : « هم فنانون ، مصورون أو نحّاتون ، سبقوا العصر العظيم » ، مما يفترض أنه قد وجد هناك عصر عظيم .

وهل ننتع بالبدائية حضارة لم يكن الإنسان ليملك فيها سوى وسائل بيّلة للتحكم في الطبيعة ؟ فالصريون إذاً والأغريق هم بدائيون . ذلك أن عباً قد أنشأ تشكيلات معمارية ضخمة ، ونحن مرهقاً لا يمكن أن ينظر إليه إلى أنه شعب « بدائي » وهو الذي توصل إليها ، مثل شعب المايا ، دون استعانة بآلات من المعدن أو أفاد من العجلة . أيستند التصنيف إذاً إلى كل من أشكال العقلية ؟ لقد زعم أن البدائيين كانوا يجهلون مانعوه « الفن » ، وأنه لم يكن لجميع نشاطاتهم الفنية من غاية سوى غاية السحر . ألا ريمون لانتيه ، المختص في عصور ما قبل التاريخ ، قد أنصف في حكمه بتمييز تعسفي حين كتب قائلاً : « ليس بإمكاننا الادعاء ، بعدل

(\*) عن المجلد الثاني من موسوعة التاريخ العام للفن الصادرة عن دار فلاماريون بباريس ص ٣٧٥

مد .

(\*\*) لا بد من هذه المقدمة عن الشعوب البدائية ، لأن الفن الأفريقي يعتبر بين نتاج هذه

جوب .

وانصاف ، أنه قد كان ، بالضرورة ، لكل خط وكل صورة ، سمة سحرية ، فليس من الضرورة تعليق الفن حصراً بالوظيفة الدينية ، مع أنه لم يتمكن من الاستمرار والتطور إلا عندما انضوى تحت لواء أخطر هموم الحياة الحقيقية . » وحتى تكمل البحث نذكر أن شارل بيكار قد أبان أن دراسة فن جد متطور كفن القرن الخامس الهيليني ، قد أظهرت أن أناس تلك الأيام لم يكونوا قد فقدوا البتة اعتقادهم بالقيمة السحرية لأعمالهم الخاصة .

والحق أننا عندما نتكلم عن حضارة « بدائية » انها نعني بهذه الكلمة قضية معقدة ، عرّفت بشكل سيء ، وتدخل فيها ، حسب معايير غير متساوية ، السكن (\* ) ، والكساء ، وانحلال الروابط بين الناس ، وعيوب الطبقة الاجتماعية ، وصفة ابتدائية للتطور العقلي مؤكدة بغياب الكتابة . ثم من الممكن اضافة صفة توقّف هذه الحضارة المفاجئ . وبقي التعريف ، مع ذلك غامضاً جداً .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

## الفن الافريقي

منذ أن فرضت نزوة المصورين ، حوالي مفتتح القرن العشرين ، ما كان يدعى آنذاك الفن الزنجي على المؤرخين الذين لم يهتموا به إلا قليلاً ، ثم تركوا دراسته لعلماء السلالات . . . منذ ذلك الوقت ومعرفه هذا الفن لم تتقدم كثيراً .

فلقد اعترض غياب كلي للوثائق التي تسمح بتأريخ معين جدي ، أمر القيام بمثل هذا التأريخ . إلا أن بعض الهواة ، الذين يعظمون من شأن قطع

(\*) لا تعتبر القبائل الرحل بدائية ، وهناك بعض الشعوب المعقدة تعتبر بدائية .

العصور القديمة ، قد تحدثوا ، في الحقيقة عن ماض لا يرتفع الى أكثر من مائتي أو ثلاثمائة سنة ، اننا اليوم ، مثلما كنا بالأمس ، محدودون تقريباً ، ضمن اطار عمل وصفي يشبه عمل علماء النبات .

ليس بإمكاننا نفي صفة وحدة حقيقية لفن افريقيا السوداء هذا ، على الرغم من صفته القبلية الغالبة . فهو يمتد فوق أراضي افريقيا الاستوائية ، وبجمله محدد تقريباً في الشمال بخط يمتد من الشمال الغربي الى الجنوبي الشرقي من جوار الرأس الأخضر الى الشاطئ الشرقي بارتفاع يحاذي البحيرات الكبرى ، وفي الجنوب بخط غربي شرقي يجتاز نهر الزامبيز ، ولقد كانت أهم المكتشفات ما عثر عليه في المناطق التي تحاذي خليج غينيا ، متجهة قليلاً أو كثيراً نحو أعماق القارة ، على ألا يغيب عن بالنا ، مع ذلك أن الفقر الظاهر ، لأرض محددة ، معزّو أحياناً الى استكشاف لم يندفع كثيراً فيها .

هذه المنطقة الواسعة هي ، فنياً ، شبه منعزلة . فعلى حدها الشمالي الغامض تمت اتصالات مع المسلمين عبر سهوب السودان ، حيث قامت هناك صلات متبادلة . مع ذلك لم تفتحهم الامبراطوريات السوداء والمسلمة ، التي تحدث عنها كثيراً ، على الرغم من أننا لانملك عنها سوى معلومات قليلة ، لم تفتحهم هذه الامبراطوريات عمقاً المنطقة الاستوائية . ولربما كان السودان قد تأثر ، أحياناً ، بالفن المصري : فمن العسير ألا نرى في بعض مجموعات الخشب المنحوت أو المحفور ذكرى الزوجين المصريين الكلاسيكيين حيث يمد الرجل حول كتفي زوجته ، ذراعاً حانياً وحامياً . وليس باستطاعتنا ، من جهة أخرى ، نكران تسرب من الشاطئ نفسه آتٍ عن الوكالات التي أقامها البيض منذ مدة طويلة .

كان السود يملكون النحت وسيلة تعبير تكاد تكون وحيدة ، فالعمارة تبقى تقريباً غير موجودة لدى هذه الشعوب البدوية أو نصف البدوية ، والتي هي ، على كل حال ، قليلة الاستقرار . وتبدو الخرائب الهائلة التي نلقاها جنوبي نهر الزامبيز ، والتي من أشهرها خرائب زامبابوي ، تبدو مخلفات باحثين عن الذهب ربما كانوا ينتمون الى عرق سامي . والتصوير كذلك يكاد يكون غير معروف . واننا لنلقى ، مع ذلك ، على الحد الجنوبي عدة لوحات مصورة على الصخر ، ممثلة مشاهد صيد وحرب تدل على ذوق شيطاني لحركة غريبة تماماً عن الفن الزنجي . فهل هن عائدات الى البوشيان أو البوشمن من صحراء كالاهاري ، الذين ينتمون الى عرق سبق أعراق الغابة الاستوائية السود ويم يختلف عنها ؟ ان صور افريقيا الصخرية تتصل بصور ما قبل التاريخ في الاندلس أكثر مما تتصل بفنون الاقطار المجاورة . ذلك أننا نعث على الطريقة نفسها في العمل برسومات سريعة ، وبسلسلة من الشخصيات مرسومة ظلياً على خلفية ، وبالذوق الطفولي بقية للحكاية البدائية .

والمعتقدات الدينية ، بالطبع ، أكبر عوامل وحدة الفن الافريقي . وهي تتركز ، في كل مكان تقريباً ، على نوع من الاحيائية الروحية . كتب م جورج هاري : « ان حياة الناس في ارتباط دائم بنوعين من القوى : أرواح الاجداد وأرواح قوى الطبيعة أو الجان ، التي يحسن اكتساب عطفها ، وبذل الجهد في التعرف تجاهها ، بحملها ، على الإقامة وقتياً على الأقل ، في رمز أو صنم . » ومن هنا هذه الوفرة في التماثيل الصغيرة الجنائزية وفي الأشياء المستعملة في ممارسة السحر ، وفي الأقنعة التي يرتديها في الرقصات الطقسية الشعائرية أعضاء مجتمعات سرية بهذا القدر أو ذاك ، وتزخر بها افريقيا السوداء .



ذلك أن التجربة تعلم أن هؤلاء الذين يتجون الأقنعة ، في الماضي مثل الحاضر ، يقودون فهم الى نوع من النموذجية ، أو اسلوبية وجه انسلخ عن ملاحه الفردية المتميزة . ثم ان نحت الأقنعة ، في افريقيا السوداء عملية طقسية ، اقناعا أوساط ضيقة من الصانع ، هم أنفسهم غالباً أعضاء في مجتمعات سرية تعمل حسب تقليد ، وتتبع نماذج يعاد انتاجها باستمرار ، بحيث يصبح من المستحيل تقريباً اكتشاف تاريخ صنع أعمالها .

ونحن حين ننتقل من الرأس الأخضر وتتبع شاطئ خليج غينية ، نلتقي باديء ذي بدء بسكان على شيء من القسوة من ( الدانيين ) الذين زودونا بأقنعة تعد بين أكثر أنواع الأقنعة ، التي نعرف ، إغراباً وإدهاشاً . ولم نجد شعوب ( الباوليين ) في شاطئ العاج عمل الخشب ، بل عمل المعادن أيضاً . فعلى أقنعة من الذهب ذات نوعية ناعمة جداً ، تتحول ، بعض ملامح أساسية من الوجه ، كالواجب أو استدانة الفم ، الى سبحة تنوءات ، والى قطع من البرونز الصغيرة ، ممثلة حيوانات ، ومقدمة الدليل على فضول قلبها يشاهد في هذه الفنون الخاضعة غالباً لتعليقات طقسية ، أما الباوليون فقد تجاوزهم الاشانتيسيون في ميدان النقش على المعادن هذا ، الذين صَبَّوا ، لكي يوازنوا المعادن الثمينة ، صوراً عفوية جداً .

وعلى شاطئ العبيد كان لدى داهومي نتاج متنوع ينطلق من رؤوس الطين المشوي المحولة قليلا ، والجديرة بإثارة حيرة الغربيين ، وعلى تخوم نيجيريا الانكليزية ( يورويا ) نلتقي تمائيل صغيرة من الخشب ذات ملاحظة مضحكة ، وتمائيل صغيرة فروسية ( اذا تجرأنا على استعمال هذه الكلمة عندما يكون الحمار حيوان الركوب ) ، تمائيل ذات صفة كاريكاتورية صريحة . كان يبدو أن الداهوميين يمتلكون نوعاً من القدرة على التكيف ، وأن اتصالهم مع

الببيض لم يكن لينزل الجذب سريعاً يفهم . فمتحف الانسان بباريس يمتلك تمثال إله للحرب مصنوع من الحديد ، تمثالاً فخماً جداً ، تدخلت فيه عناصر حديثة : ميزاب وسلاسل . وتشكل مملكة ( بينان ) القديمة ، التي أزالها البريطانيون في نهاية القرن التاسع عشر فقط ، أرضاً محصورة في زاوية ٩٩ ولا يخالفنا الشك في أنها كانت على علاقة بالبرتغاليين منذ القرن السادس عشر . ولا يخالفنا الشك كذلك في أن برونزياتها الكبيرة التي تمثل حيوانات ، الديك منها خاصة ، أوصافاتها التي ينتصب عليها محاربون مصورون في حفر بارز . . . لا يخالفنا الشك في أن هذه وتلك نتيجة اتفاق تقني وحرية في التعامل مع المادة لانتقيهما أبداً في مكان آخر . وانه ليصل بنا الأمر من أجل بعض العاجيات ، ورؤوس تغرق رقابها في باقات عاليات ، الى التفكير مضطرين ، بربطات عنق من عهد لويس فيليب . واندفع علماء الآثار والافريقيات في معارك جدال عقيمة . ان من الممكن أن تكون نظرياتهم المتعارضة بعيدة الواحدة منها والأخرى عن الحقيقة إذا مدقنا بها الى نهاياتها . ذلك انه لمن العبث ، أو الذي لا طائل تحته أيضاً ، الاعتراض على بيان أثر البورتغاليين العميق في فن بينان ، مثلما هو من العبث كذلك ، انزال هذا الفن الى نوع من الملحقات بفنون الغرب . اننا لنجد هنا المشكلة التي أشير اليها من قبل : الاستحالة المزعومة لتكيف الفن الزنجي . فلربما كنا على الأقل أمام تعارض بين الأعراق أكثر مما نحن أمام تناقض حالات تقنية حضارة . فالبيض الذين كانوا يجاذون في القرن السادس عشر شواطئ ( بينان ) ، لم يكونوا ليملكوا ، فيما اتصل بالتقنية ، سوى مزايا محدودة . ثم جرى الأمر على شكل آخر في القرن التاسع عشر : فمركب نقص « المتوحشين » جعل من التقنية أمراً لا يقهر . فلعلهم كانوا سيقاومون بشكل أقوى وأجود ، مادياً وروحياً ، لو أنهم كانوا أقل بعداً ، في الوسائل المادية ، عن فاتحي بلادهم .

ويتوقف العمل في المعادن بصورة تامة تقريباً عندما نصل إلى الكاميرون والغابون والكونغو . فهنا ميدان الخشب الذي هو ، بامتياز ، مادة افريقية السوداء ، والتي حددت جيداً صفات نحتها وميزاته . فهو النحت المرهف جداً والناعم جداً والذي يكاد يكون ندياً في اللمس ، ( فلقد كانوا يدهنون الخشب بزيادة الكاريت أوزيت السمسم لتلافي تشققه ) ، ولا ينتقل انتقالاً مفاجئاً ، وهو مغرم بالخطوط الطويلة الملتوية .

ويمسح النحات متطوعاً ، نتاجه لكي يحفظه ، مقلداً من التواءات البارزة . فمن تقبب الجمجمة حتى نهاية الأنف لانتقي إلا خطأ متصلاً تقطعه برقة أرنبه الأنف المصغر ، ثم يمضي في سيرة الهاديء حتى الذقن المسوحة . ولربما قدمت رؤوس صغيرة ، صنع جماعات ( الباهوين ) ، قمة هذا الفن المتميز جداً . الآن الحقيقة تضطرننا إلى القول أن النضر في هذا الميدان يعود إلى الكونغو ، في منطقة ( كاساي ) كما في المناطق القريبة من البحيرات الكبرى . وقد يكون السبب في هذا التفوق عائداً قبل كل شيء إلى عناية البلجيكيين بالتقاط شواهد هذا الفن وأمثالته ، وجمعها في متحف ( تيرفورين ) ، أغنى متاحف أوروبا في مجالات هذا الفن . فالصانع ( الباكوبي ، أو البوشونفي ) يقدم الدليل على المكر والسذاجة ، مع تقديم نفسه طلعة في بعض محاولات التفتيش عن الحركة . ذلك أن غريزة زخرفية مرحة تحرض على زحزحة أعمال بدون مبرر وبتزيين غريب لأشياء ذات استعمال نفعي كالمقاعد ، وأيدي الفؤوس ، ومساند الرؤوس ، والخزائن ، والأقداح . وهو ينسج أقمشة بتزيينات هندسية ، كما يصنع العاج عند الحاجة .

وبالاختصار ، يظهر الاهتمام الطقسي لديه غالباً أقل وضوحاً من الرغبة في التلاعب فنياً .

ولقد زعم علماء في شؤون افريقيا أنهم وجدوا مبدءاً تصنيف : فهم يقدمون فن السهوب بمقابل فن الغابة ، وهم يرون أن فن الغابة يظهر خاصة حيث تتوقف الغابة . والحقيقة أننا لانعرف عن افريقيا وتاريخها ، سوى القليل ، ولا نملك إلا القليل من الأشياء حتى نتمكن من اقامة نظام مرض في نتاجه الفني ، ولتبيين ، مع ذلك بعضاً من قوانين كبرى : فلقد كان م . فون سيدوف يلاحظ مثلاً أن السود ، في المناطق الساحلية ، يلجؤون ، عن طيب خاطر ، إلى اللون لزيادة تأثير نحتهم ، اللون الذي يختفي كلما توغلنا في داخل القارة . أما ما يتعلق بالامكانات المتاحة لبقاء الفن الافريقي مع حضور الحضارات المعاصرة ، فهي ضعيفة دون ريب ذلك أن علينا أن نلاحظ مع ذلك أن تخصص هذا الفن ، وطبيعته الطبقة المغلقة يعطيه قوة مقاومة لا ينبغي أن تهمل ، وأن الأفارقة السود ، في التاج الهجين لفن البشرين ، قد دافعوا بشكل أجود من الشعوب الآسيوية ، وورثة حضارات كانت على العكس من ذلك مرهفة ، شديدة التأثير .

## ٢ - فن أفريقيا السوداء (أيضاً) (\*)

### مقدمة في الحضارات الساكنة :

إنها التي كانت تسمى البارحة فقط الحضارات البدائية ، إلا أن هذا التعبير قد أصبح اليوم موضع نقاش ، لأن هذه الثقافات ، في الحالة التي وجدها عليها الغزو الأوروبي ، قد بدت تعكس ، بالحرّي ، طوراً سابقاً أكثر حيوية وأصالة ، بل وأكثر تطوراً في بعض الحالات . ان طبيعتها السائدة ،

(\*) ص ٤٣٢ من المجلد السادس من موسوعة الفن الصادرة عن دار ليديس بباريس عام ١٩٨٠

سواء في افريقيا السوداء أم في استراليا ، في أوقيانوسيا أم في حضن القبائل من سكان أميركا الأصليين هي بحق توقف سير ورتها المتطورة ( ظاهرة تلاحظ في عدة ثقافات كبرى شرقية ذات درجة أعلى في سلم الحضارة ) . فالسكون الذي تم قد أصاب الميدان الديني مثلما نزل بالمؤسسات الاجتماعية، وبالفن والصناعة : فلقد بدت هذه الامور مخلفات مختصرة على هذا النحو أو ذاك ، نفتقر لازدهار ماض تجاوزه الزمن .

أظهرت هذه الثقافات ، نتيجة المجهود الذي جمدها في مستويات متذبذبة ، اجمالاً ، بين العصر الحجري وأول عصور المعادن ، على الرغم من تنوع اصولها ، وأعراقها وأوساطها ، وتاريخها ، ومفاهيمها عن الكون ، سلسلة مظاهر مشتركة . وهكذا تقوم المؤسسات الاجتماعية المؤلفة من عشيرة أو قبيلة ، في افريقيا وأميركا وأوقيانوسيا ، على الانتساب الى حيوان مقدس ، أو طوطم ، أو إلى تحالفه مع الرؤساء ، من ذلك مثلاً أن الطقوس الذي يؤدي طلباً للخصب ( المعزوما الى إله خالق ، أو ببساطة الى الأرض ) ، وكذلك الاحيائية(\*) أو الميل الى تصور الكائنات ، والاشياء والمظاهر الطبيعية ، موهوب كل منها من قبل قوة خاصة يمكن ان تغدو ممارستها عن طريق السحر مخففة لصالح الاحياء . ويجب ، بصورة خاصة ، استمالة أرواح الاجداد ومن هنا عم انتشار طقوس عبادة الأموات . ولقد نتج عن تشابه المعتقدات ، لدى هذه الشعوب ، اشتراك واسع في المواقف سواء في الممارسات الدينية ، أو في تطور دخول الفرد في هذه الممارسات ، وهو ما يشرح انتشار جمعيات أسرار المسارات سواء أكان ذلك في صنع أدوات الطقوس الدينية ، التي تؤلف عادة كل النشاط الفني ، أو شعارات الخصوبة أبرز هذه الأشياء ، ورموز قضيب

(\*) مذهب حيوية المادة ، الاعتقاد بأن النفس هي مبدأ الفكر والحياة العضوية في أن واحد .

الذكر منها خاصة ، وكذلك القناع الذي تنسب إليه طاقات وسلطات عديدة ذات منشأ سحري - ديني ، أو وظائف ذات صفة نفعية خالصة . فإذا ما إسدل هذا القناع على وجه الميت ، أبقى على الصلة بينه وبين الأحياء . إن دورَه في الممارسة الطقسية استعطاوية أو رسولية ( أي وظيفة رقية ) ، أو أنه يجعل حامله مشابهاً للطوائف أو للجد الأعلى ، إذا لم يخف هوية حامله ، ويخدم صاحبه ترجمانا بينه وبين الطبيعة . ويمكن أن يكون كذلك إشارة تمييز لطبقة ، أو مكانة اجتماعية ، أو تجمع سرّي ، أو مجرد ملحق تسلية ، أو وسيلة إرهاب للعدو في المعركة .

ويعرض نتاج هذا الفن الذي هو بصورة أساسية طقسي ( مع امكان استثناء بضعة أعمال للزينة فقط ) ... يعرض دائماً ، وبقوة ، صفة اصطلاحية ، ذات صلة بأهدافها السحرية أو المقدسة . وليس الفنان ، كما كان شأنه في فجر الحضارات الأكثر تطوراً ، وحتى في بضع فترات من الحضارة المسيحية ... ليس الفنان حراً في الإبداع على هواه ولا يهتم به إلا قليلاً ، ذلك أن الفن ، بعيداً عن أن يكون غاية في ذاته ، لا يقوم بواجبه إلا في احترامه قوانين المجتمع وأنظمته ، وبصورة خاصة في تقيده بقيم رمزية أشبعت بها هذه المجتمعات بقوة ، ففي هذه الحدود فقط تقوم شخصية الفنان بدورها ، وسيطاً ، أكثر من كونها خلاقة ، ووسيلة اتصال بين الإنسان والقوى التي تحيط به . وبتعبير آخر ، يستطيع ، حسب استيحاءه الوسيط ، استعمال ذخيرة طقسية ورمزية لخلق الموضوع الأكثر خصوصية في التأثير على قواه . وإذا مانجح في هذا الاعتبار ، صنعت منه بالتأكيد ، نسخ مطابقة ، تعيش على الأقل ، مادامت تقوم بشكل فعال ، بدور الوسيط أو الشفيع .

وثمة سمة أخرى ، لهذا الفن ، تكاد تكون ثابتة ( حصر تكرارها اليوم

لغايات سياحية - تجارية ) ، وهي سمة غياب الواقعية عنها ، غياباً تملل أسبابه وفي آن واحد ، بالشروط التي تقدم الإشارة إليها ، وبالعوامل التي تفلت منا منذ الآن . فنحن نعرف عن عهد ما قبل التاريخ الأوربي أن الفن الفرنسي الكانتابري قد شهد طوراً ورث فيه تمثيل مركز في العصر الميزوليتيكي ، طوراً واقعياً صور فيه صيادو العصر الباليوليتيكي . ولقد سجل التطور نفسه في فن الشرق الايبيري ، وفن الصحراء ، وفن البوشيمانيين . وهكذا يمكن اذا ، في بضع حالات على الأقل ، أن تكون تبسيطة الانجازات الافريقية أو الاوقيانوسية المعاصرة عائدة الى تطور جفاف انتهى بحلول الاسلوبية ، والتصنع ، والشكل ، محل المذهب الطبيعي . ومن المعترف به ، من جهة أخرى ، أن الأطفال ، الذين يرسمون ، لا يقدمون مايرون ، ولكن مايبدو لهم معها ، حسب واقعية وصفت بالعقلانية . ويقدم هذا الأمر حساباً ، في جزء منه على الأقل ، عن طبيعة التناجات المعترة ، فمن فرط المبالغة في صورة ، أوفي عنصر على حساب العناصر الأخرى ، نصل الى تجاوز المعطى الطبيعي أو تدميره : وهذا ما سندعوه اليوم الانتقال من التعبير الى التجريد . ونحن لانستطيع ، أخيراً ، استبعاد النفور المقصود من تقديم فن واقعي يتلاءم كما هو ، وبصورة سيئة ، مع موضوع طقسي ديني ، هو رمز قوى فوق طبيعية أو وسيط لها : فالواقعية العقلية ، في هذه الحال ، تكمن ، كما قال غ. ه. لوكيه في إعادة ما يعرفه العقل . إلا أن هذا كله ليس إلا فرضيات ، يمكن لمعرفة جيدة فقط ، لأصول هذه الشعوب وتاريخها وأساطيرها ، أن ننيرها .

### ( الفن الافريقي )

يقع موطن الفن الافريقي هذا جنوبي المنطقة الواسعة التي تحتلها في الحبشة ومصر والمغرب ، حضارات متوسطة واسلامية . هذا الفن المتجه

خاصة نحو النحت ، وبدرجة تطوره وبلعبة التبادل ، هو أغنى وأكثر أعداداً من فنون هؤلاء الذين تقدم ذكرهم . نحن لانعرف إلا القليل عن هذه الشعوب التي انتجت حتى يمكننا تمييز أصوله الدقيقة . وعلم الآثار ، الذي يؤكد وجود الانسان في افريقيا منذ العصر الباليوليتيكي الأدنى ، يدفعنا الى الافتراض أنها كانت مسكونة في عهود ما قبل التاريخ بعرق زنجي اللون ، قريب من بعض قبائل غينية الجديدة الذين انحدر منهم بغمينيوبوشيمانيو أفريقيا الاستوائية والجنوبية ، الذين دفعوا الى مناطق هامشية ، وأقل راحة من مسكنهم القديم . كان عليهم التراجع منذ عصر ما قبل الفراعنة ، أمام الزنوج الحقيقيين ، أعني البانتوين . ذلك أن هؤلاء القادمين من الهند ، أو من الجنوب الشرقي الآسيوي قد ألغوا مراسيمهم في موجات متعاقبة على شواطئ افريقيا الجنوبية الشرقية ، وأخذوا شيئاً فشيئاً مكان شعوب أقل تطوراً منهم في المناطق الأكثر يسراً . واختلط ، مع الوقت بعض من بين الفاتحين ، بالسكان الاصليين ، وفيما بعد ، بالبيض من سكان الشمال ، مما تولد عن ذلك سكان خليط توضعوا في الشمال الشرقي من القارة السوداء . ونعني بهم السودانيين ، والغانيين ، والصوماليين .

وحاولت مصر ، بعد أن شكلت امبراطوريتها ، وفي محاولات متعددة ، استعمار وادي أعالي النيل من النوبة المحتلة في عصر الأهرام الكبير ، في ظل حكم الاسرة الرابعة ، حتى السودان الشرقي ، الذي ضم في ظل حكم الاسرة الثامنة عشرة ، في أكبر أوقات التوسع المصري . ونظم الفينيقيون ، لحساب مصر ، حملات نجحت في محاصرة ساحل دوائر افريقيا بَحراً ، واكتشفوا مناجم النحاس الروديسية التي استغلت منذ ذلك الوقت . ودفعت قرطاجة ، في آسارهم تنظيم العلاقات التجارية حتى قبائل النيجر السوداء . وتعود أول اشارة هامة حول تاريخ الشعوب السود الى القرن الرابع بعد الميلاد . ذلك أن



امبراطورية غانا الكبرى التي قامت حول حوضي السنغال والنيجر\* مع زراعتها الغنية ، قد غدت آنثذ واحدا من مراكز الحضارة في افريقيا السوداء . ولقد حالفها الحظ في اللحظة نفسها التي دخل فيها الاسلام الى المغرب والسودان . فلقد امتدت ، حوالى العام ١٢٣٠ ، امارة سودانية مسلمة الى حد احتلال غانا ، وضمها الى امبراطورية مالي الأوسع . وانتقلت هذه الأخيرة بعد مايقرب من مائة عام ، الى سيطرة شعب سوداني آخر ، هو الصونرهاي ، الذي كان بدوره ، يترك مكانه للمراكشيين . ودفع الاسلام ، بالاضافة الى ذلك تسرباً آخر للعرب الذين اندفعوا لنشر الاسلام . . وللوصول الى مناجم الذهب في افريقيا الجنوبية . فلقد أسسوا على طول الشاطئ الجنوبي الشرقي سلطنات وحمايات ، وحتى مدناً حقيقية لانتزال خرائبها موجودة .

ولنعد الى حوضي نهري السنغال والنيجر ، مرتفعين بهما نحو السودان العربي حتى بحيرة تشاد . فالواقع أنه ، سواء أكان ذلك بسبب وسط ملائم ، أو ظروف تاريخية ، فإن هذه المناطق قد أفضت الى مرحلة متطورة أرقى استفاد منها الفن أيضاً فائدة . وعلى الرغم من سيطرة الاسلام أوتائيره ، فقد بقيت بعض الشعوب مخلصه لمعتقداتها السلفية ، المؤسسة بصورة عامة على مذهب حيوية المادة وعلى طقوس الأرض ، بصفتها الآلهة الأم أو زوجة الآله الأعلى . وتلك كانت حالة الساديين الذين عاشوا في سهل تشاد ، قبل أن يتفرقوا ، في القرن الرابع عشر ، أمام تقدم الاسلام . وتبرهن مغلقاتهم على أنهم كانوا يستعملون الحرف ، مثلما كانوا يستعملون الآنية البرونزية . فلقد تركوا ، خاصة ، تماثيل صغيرة من الطين المشوي ، لعلها صور أجدادهم ، تماثيل يذكر أسلوها أحياناً بمنحوتات شعوب الميونيين من النوع نفسه .

(\*) ينهي ألا يخلط بينها وبين غانا الحالية التي كانت تدعى قديماً (الشاطي . الذهبي) .

وثمة مجموعة عرقية هامة أخرى ، هم جماعة الدوغان ، التي خصصت في نحت متميز للخشب ، لأنها كانت ملتجئة الى منطقة ذات مرتفعات عسيرة مسعبة في داخل التواء نهر النيجر ، ( ذلك الخشب الذي يكتسب وهو المعالج بصورة مناسبة ، والمدهون ، وبين أيدي النحاتين السود ، نبلا لانظير له ) . ولأن الدوغانيين يستعملون أسلوباً هندسياً من أكثر الأساليب فتنه واغراء ، أسلوباً متأثراً بثقافة الحديد المطرق ، فإنهم حفروا غالباً سطوح مواد بسيطة في معينات تملك قيمة سحرية ورمزية .

وينحت السينوفيون ، الى الجنوب ، تماثيل وأقنعة خشبية في أشكال أكثر رشاقة ورهافة ، مثل تماثيل البامباريين الصغيرة كذلك ، التي جلبت للفن الأفريقي ، برؤوسها المنزقة ، والمثلة بالظباء ، إسهماً ملفتاً للنظر . فإذا ماكان الدوغانيون تكعيبيين ، فإن السينوفيون يذكرون بياتيس ، ونستطيع أن نقول ماهو أكثر من ذلك عن التماثيل النسوية الرشيقة جداً والتي نحتها التيميون ، من قبيلة كانت تسكن سسيراليون . ويعيش ، الى الجنوب أيضاً ، على شاطئ خليج غينية الاشانتيون ، المشهورون برقة ما أنتجوا من حلي نحاسية ( ذلك أنهم قد عملوا بالذهب ، على امتداد ثلاثة قرون سابقة ، بصورة جديرة بالملاحظة ، لأن أغنى مناجم ذهب العالم توجد في بلادهم ) ، وفتيوداهومي ، الصانع المهرة الممتازون ، الذين قدموا لنا أضخم تماثيل أفريقي مصنوع من الحديد : تماثيل غو ، اله الحرب ، الموجود في ( متحف الانسان في باريس ) . وهناك أخيراً اليوروبيون ، ناحتوتعبيرية دينهاميكية اليوم ، والذين صاغوا من قبل رؤوساً واقعية جداً ، رؤوساً ذوات نبل مدهش ، والمتأثرون ، بالتأكيد بفن الحضارات المتوسطية الكبرى ، كما تشهد على ذلك اللقى المنحوتة من الطين المشوي والبرونز التي وجدت في مدينتهم المقدسة (ايفيه) .

إلا أن مفاجأة كبرى كانت تنتظرنا في هذه المناطق . فقد تطور غير بعيد عن ( ايفيه ) في القرنين الثالث عشر والرابع عشر فن ملفت للنظر ( فخار مشوي ، وحجارة منحوتة ، وبرونزيات ) ، وفي دلتا نهر النيجر ، قامت مدينة ( بينان Benin ) عاصمة مملكة سوداء تحمل الاسم نفسه ، والتي أقام البرتغاليون معها علاقات تجارية متتابة بدءاً من القرن الخامس عشر ، مدينة قال عنها رحالة هولاندي ، في القرن السابع عشر ، أنها أكبر من امستردام ، مشيراً الى روعة قصرها الملكي . ثم مرت المدينة ، في نهاية القرن بأزمة حادة لم تستطع الخروج منها تماماً . وسقطت أخيراً في عام ١٨٩٧ في أيدي حملة انكليزية أتت تثاراً لقتل قنصل . عندذاك ، استطاعت أوروبا ، أخيراً أن تتعرف فصلاً جديداً ومدهشاً من فصول الفن الزنجي ، باكتشافها ، تحت سقف حظيرة مشات من تماثيل العاج ، وتماثيل البرونز خاصة . وتكشف هذه الأخيرة عن رقة اعجوبية في تقنية صهر الشمع متقنة الى حد أنه تردد في اعتبارها مصنوعة محلياً . فلقد افترض أولاً ، أنها مستوردة من قبل المسلمين أو البورتغاليين ، حتى اكتشف مؤخراً أن نحاتي البرونز البينيين قد تلقوا تقنيات العمل لدى جيرانهم من مدينة ( ايفيه ) . وهل من الواجب أيضاً ، من أجل تفسير المشكلة كلها معرفة من أين تعلم اليوروباويون ، بدورهم ، صنعتهم ؟ ذلك أنه من ( ايفيه ) أيضاً قد أتت تأثيرات التصوير النحتي : فنحن نعثر ، في أقدم رؤوس تماثيل ( بينان ) على صفاء النموذج الخاص بفن عصر يوروبا الكبير . ان نموذجيات « بينان » هن ، على كل حال ، صفائح البرونز بشخصيات ، تصف مشاهد قنص أو حفلات ، وكانت تزين دعامات القصر ، حسب استعمال مأخوذ عن مصدر ، ربما كان أوروبياً . وتلك هذه الأعمال ، التي تؤرخ بالقرن السادس عشر ، نوعاً من التجانس والانسجام بحيث يفترض أنها ، ان لم تكن من صنع فنان وحيد ، فهي على الأقل نتاج

مدرسة تحكمها قواعد صارمة . وتعرض الوجوه مع استثناءات قليلة ، بنحت بارز ، وبصورة مواجهة ، مع وجوه من نموذج واحد : أنف عريض ومسطح ، وعينان واسعتان مرسومتان بعناية ، وفم كبير غليظ الشفتين ، والتشكيل البسيط جداً ، هو أيضاً ، متناغم جداً . ويبقى غنى الديكور الباذخ المطبق في الملابس أكثر الامور ادهاشاً بتعارضه الفريد مع اسلوب عرض الشخصيات الصريح ، وصرامة الخلفيات المعتادة .

وإذا ما كانت (بينان) تؤلف حالة فريدة ، فإننا لانعدم البتة ثقافات افريقية أخرى ، يستوحى منها المتطور ، والغني أيضاً ، أقوى الروحانيات . فإذا ما غادرنا دلتا نهر النيجر مجتازين الكاميرون ، التقينا في الجنوب ، على تخوم الغابون ، قبيلة البانغوي ، أو الفانغ التي بنحت أفرادها في الخشب القاسي تمائيل صغيرة ( بييري ) من أجل طقس عبادة الأجداد . ففي الأقعة وعلى الصاري الجنائزي المنحوتين ( اللذين يوضعان الى جانب علبة تحتوي جماجم الأجداد من أجل حمايتها ) ، في هذه وفي تلك لا يخضع الاسلوب ، المتطور حقاً لاهتمامات هندسية أو تعبيرية ، ولكنه يرمي إلى خلق إيقاع . وينجح في ذلك غالباً ، ويصنع متاخو الباغويين من الباكويين صواري أو صورا ، لحماية حاجيات الدفين الشخصية ، وهنا يمضي التمثيل المبسط نحو التجريد . فالرأس يحتفظ ، أحيانا بصلة مع الحقيقة ، إلا أنه يعلو جسما مصنوعاً من معين بسيط ، ويكتفى ، في حالات أخرى ، بشكل بيضوي ( محذب لدى الرجال ، ومقعر لدى النساء ) ، ومرتد صفائح من النحاس ، مع اسطوانتين صغيرتين في الوسط تذكran بالعينين . ويختص البافيليون ، الأكثر قرباً من المتوسط ، بانتاج تمائيل للشفاعاة أولئك السحر . فالنوع الأول منها مزود بتجويف - مذخر متضمن أشياء سحرية ، أما النوع الثاني ، الذي يرمز الى العدو المطلوب ضربه ، المغروسة فيه مسامير أو أسنة ، تعني الشر

الذي يفتش عنه ( هذا الاستعمال منتشر في العالم أجمع ، بما فيه أوروبا ) .  
والتماثيل في الحالتين ، مطبوعة بواقعية وحشية ، منبودة في الفن الأفريقي الكبير  
الذي يهتم عادة بالتناغم ، والرشاقة أيضاً .

هنا نحن ، مع البافليين ، في حوض نهر الكونغو ، مركز الثقافة السودا  
الأخر الكبير . اننا لانعرف أيضاً تاريخ شعوب هذه المنطقة مثلما نعرف تاريخ  
السودانيين والنيجريين ، إلا أننا نعلم أن مجموعة عرقية ، صيادين رحل ، من  
قبيلة البالوبا ، قد نجحت في السيطرة على هذه المنطقة الواسعة ، منشئة  
امبراطورية استمرت حتى زمن دخول الأوربيين ، كان البالوبيون نحائين كبار  
تنافس منحوتاتهم في الصفاء وتتجاوز في الأصالة ، برونزيات مدنية ( ايفيه ) .  
وهم أيضاً ، صانعو عدد من التماثيل الصغيرة الدينية ، كتمثال الشحادة  
المزعومة في متحف أفريقيا الوسطى الملكي ، بمدينة (تورفورين ) ، الذي  
يعكس اسلوب نحتة التشكيلي والوعائية عميقة ، ولقد ابتعدت هذه الصفة ،  
منتقصة ، في أعمال دنيوية ، كهذه المقاعد المزودة بتمثال امرأة ، والنموذجية في  
هذا النتاج . وغالبا ماتدل أقنعة البالوبيين ، بالمقابل ، على اتجاه نحو التجريد  
الهندسي ، المصحوب بتعبيرية قاسية ، ربما استوحاها بيكاسو في لوحته  
( آتسات افينيون ) . كان على البالوبيين ، على امتداد تاريخهم ، أن يجابهوا  
شعباً كونغولياً آخر ، قوياً جداً ، سموه ( باكوبا ) ، أوشعب البرق . يتميز فن  
هذه الجماعة ، مثل فن بينان ، بنحت رسمي ، مصنوع احتفاء بذكريات ،  
ومفلسا من كل تعريف أو تحديد دقيق ، فهو حيناً واقعية تكاد تكون اسلوبية ،  
وهي ناعمة أكثر من أن تكون قوية ، وهو حيناً آخر صور محدودة حتى لتبدو  
دقيقة ناحلة ، مغطاة كلياً بثلمات على شكل معينات ، ومطبوعة بجمود  
ظاهر .

ويعيش على تخوم الكونغو وأنغولا الباجوكويون ، الذين كانوا ، من قبل ، صيادي العبيد والمخيفين الذين تشهد تماثيلهم الدينية الصغيرة بشراستهم ، والذين خلفوها لنا بملاحمها المرسومة بقوة ، وأعضائها الجبارة ، وأيديها وأرجلها المخطط لها بثقل . وإذا ما كان فهم يؤكد نشاط افريقيا التشكيلي ، فإنه يبقى ، بالتأكيد ، بعيداً عن الروحانية والتناغم ، بله الشفافية الكلاسيكية التي تمنح ، غالباً ، مظاهر الثقافة كثيراً من النبل .





د. آ. تشير يوسين

ترجمة: وليد قارصاي

<http://Archivebeta.Sakinit.com>

تميز الوضع في جمهورية أفريقية الجنوبية على مدى  
العقد الماضي بنهوض حركة التحرر الوطني . فالطبقة  
العاملة الافريقية الاصل ( التي تعد خمسة ملايين عامل )  
أصبحت القوة الموجهة للعملية الثورية التي تضم جميع  
طبقات الاغلبية الشعبية المقهورة . فاضطرابات أعوام  
( ١٩٧٢ - ١٩٧٤ ) وانتفاضة عام ١٩٧٦ الناجحة في  
سويتسو والتي قامت بها جماعات الكونغرس الوطني  
الافريقي ( لجنوب افريقيا ) . . وأخيراً التنازلات التي  
قدمتها السلطة ( وان كانت ظاهرية ومحدودة ) والتي أدت  
الى اضعاف بعض التشريعات الخاصة بالـ « أبارتيد » .

كل هذه الامور مجتمعة تشهد بوجود أزمة في النظام الذي اعتبرته الدوائر الحاكمة نظاماً متيناً . وكما أكد زعيم الحزب الشيوعي لجنوب افريقيا - يوسف دادو - فإن « محاولات اخضاع الشعب بالقوة هي محاولات فاشلة وإن المبادرة المحتومة قد انتقلت الى أيدي الشعب ومنظّماته التحررية » .  
وانتشرت روح عدم الثقة والضياع والبليلة في أوساط الاقلية العنصرية البيضاء وأصبحت شيئاً مألوفاً : « ماذا نرى خلف واجهة الرفاهية المزعومة ؟ - هذا ما يسأله الناس العاديون . فيأتيهم الجواب : كراهية المستعمرين من جهة والخوف والشعور بالذنب تجاه السود - من جهة أخرى » .

وتلعب المسألة العنصرية الدور الرئيسي في المجالات السياسية والاجتماعية والروحية راسمة الملامح الخاصة للوضع الثقافي في جمهورية افريقيا الجنوبية - الوضع الذي يؤكد بوضوح القيمة المنهجية الثمينة لموضوعة لينين حول وجود « الحضارتين » في الثقافة الوطنية الواحدة في مجتمع الصراع الطبقي . وفي افريقيا الجنوبية تتصارع الثقافة التقدمية النائرة ضد نظام الفصل العنصري ( الأبارتيد ) مع ثقافة الوصولية السياسية - الاجتماعية والتي تؤيد الافكار العنصرية ) حيث يرتبط تطور الادراك الفني ارتباطاً عضوياً مع تطور الادراك السياسي . وهذا يظهر بوضوح في افريقيا الجنوبية اكثر منه في أي بلد آخر . إن ضرورة اختيار الموقف من القضية العنصرية تحدد المبادئ الفكرية والجمالية لأدباء جنوب افريقيا كما تحدد الواقع الايديولوجي و « الالتزام » المتفوح في ابداعهم . فإذا لاحظنا في بلدان أخرى من القارة وجود « تسييس » للثقافة بشكل عام في الوقت المعاصر فإن السياسة في افريقيا الجنوبية تصبح المفاعل الرئيسي في الثقافة . وفي هذه المناسبة يجدر أن نذكر تصريح الكاتبة المعروفة في افريقيا الجنوبية ذات الميول الليبرالية - نادين غودريمير - التي لاحظت منذ عام ١٩٧٠ أن : « الادب الفني لأفارقة افريقيا الجنوبية في مجتمع



يتطابق فيه لون البشرة مع الطبقة الاجتماعية - يعتبر في اغلبيته أدباً بروليناريًا » .

وبالفعل فإن الموقف الخرج في أوساط المثقفين والمبدعين السود في افريقيا الجنوبية - من « الثقافة الوطنية » يتعاضم في شتى المظاهر . وهكذا فإننا أمام ظاهرة متناقضة : ففي افريقيا الجنوبية التي يتعرض سكانها الاصليون للعنصرية المتوحشة لم ينتشر مبدأ « النيجريتود » أي « التعصب الزنجي » ( على عكس ما حصل في كثير من بلدان القارة الافريقية ) . ففي الوقت الذي اعتبر نشوء هذا المبدأ على شكل استنكار ضد الاستعمار الروحي فإنه يسمو « بالشخصية الافريقية » كما لو أنها تمتلك مجموعة من الصفات « الفطرية » مثل الانسانية والروح الجماعية والتصور العاطفي للكون على عكس العقلانية اللاانسانية للبيض وغير ذلك .

إلا انه في ظروف افريقيا الجنوبية فإن الصراع من أجل تكييف الثقافة الزنجية الافريقية في أكثر مظاهرها « فطرية » وقدما كان سيعني تقوية نظام التفرقة العنصرية ، لذلك ليس من قبيل الصدف أن يدعو العنصريون الى رفع شعار « المحافظة على حضارة البانتو » الذي يغطي محاولات تكريس نظام الحياة القبلية التقليدي والموجه نحو تحقيق « التطور العرقي المستقل » ونحوبعت الترابيليزم في المجال الثقافي . وفي النهاية - نحوشق حركة التحرر الوطني .

من خلال هذا الوضع يبدو ذلك الشعار حاملاً نفس المعنى الذي سيحمله « التعصب الزنجي » . ولهذا السبب بالذات أظهر أدباء جنوب افريقيا ذوو الميول التقدمية - أظهروا بشكل محدود عدم تأييدهم « للتعصب الزنجي » الذي « يعزل الكتاب السود عن بقية العالم » - حسب قول الكاتب ريتشارد ريف - احد الادباء القلائل الذين بقوا في جمهورية افريقيا الجنوبية واستمروا في نشاطهم الادبي .

ومنذ نهاية السبعينات انخفضت وبشكل واضح أسهم نظريات « الإدراك الذاتي الاسود » والتي تقارب بشكل أواخر التعصب الزنجي مع انها لعبت دوراً إيجابياً معروفاً في التنشيط السياسي للجماهير عندما صعب عمل الكونغرس الوطني الافريقي والحزب الشيوعي لجنوب إفريقيا بسبب ملاحقة النظام لها .

في الوقت الذي يرى فيه ايديولوجيو التعصب القومي الثقافي ان الدعوة الى الثقافة الشعبية تعني تأكيد ثبات النظام وعدم خضوعه لعملية التطور التاريخي ، فان القوى الديمقراطية الثورية والبروليتارية في جنوب أفريقيا تنظر الى التراث الثقافي من خلال مؤشر المنظور التاريخي وتؤكد على محتواه الاجتماعي وتسعى الى استخدام خصائص التماذج الثقافية للإدراك الجماهيري من أجل جذب الشعب للمشاركة النشطة في الصراع السياسي .

وتظهر في التقاليد الافريقية الوطنية قبل كل شيء العناصر المرتبطة مع الحركة المعادية للاستعمار ومع تاريخ المقاومة البطولية التي أبدتها سكان القارة الاصليون للمستعبدون الامبرياليين .

وقد كتبت حول ذلك بدقة مجلة « افريكان كومونيست » : « لقد لعبت التقاليد الادبية الفنية للشعوب الافريقية دوراً هاماً في عملية التحرر الوطني . وكانت بمثابة مفاعل فني وسياسي . لذلك كانت تستغل ينبوع الإلهام وأساسا لشعبية الكثير من اعمال الادباء المعاصرين » .

وفي دولة متطورة صناعياً كجمهورية افريقيا الجنوبية تركت عمليات التمدين المكثفة آثارها العميقة على الإدراك السياسي للأفارقة وهذا بالتالي حدد خواص التفكير الفني حيث تصافرت وتفاعلت بشكل متبادل المشكلة الافريقية النموذجية مع وسائل كشفها الآتية من حضارة اخرى . وهذه الوسائل بدورها كانت قد حصلت على انكسارات ذات نكهة خاصة .

إن التوجه نحو الاشكال الفنية المعاصرة لأدب الغرب يحدث في الادب التقدمي في جمهورية افريقيا الجنوبية ضمن مجال تقبل أفضل منجزات الواقعية النقدية وهذا يظهر بوضوح في أعمال الادباء مثل - آ . لاغوما وج . كويب ، وريتشارد ريف ، ود . كوينه ، وآ . ن ك . كوماالو وغيرهم .

ففي رواية آ . لاغوما « زمن الاخطبوط » تحتد الازمة بين سكان احدى القرى الكثيرة في افريقيا الجنوبية والذين لا يرغبون في الاستسلام للقوانين الاجرامية في المجتمع العنصري وينهضون للكفاح ضد السلطات التي تحاول اجبارهم على ترك مواطنهم الاصلية وتهجيرهم الى الاراضي الصحراوية المقفرة في بانتوستان . هذه الازمة تحمل طابعاً شمولياً ونموذجياً وتعكس الوضع السياسي في البلاد ككل .

« لقد قرر الشعب استرجاع دينونه وحانت ساعة الحساب ان الناس يشعرون بهذا في جميع انحاء البلاد » - هذا ما نقوله احدى بطلات الرواية .  
وتعتبر رواية ( لاغوما ) نموذجا واضحاً من ( ادب المقاومة ) . يرتكز الادب الديمقراطي في جمهورية افريقيا الجنوبية على مبادئ الشعبية الاصلية والتي تعتمد بشكل أساسي على انعكاس افكار الاستنكار والنضال التحرري ضد العنصرية وعلى اظهار نمو الادراك الذاتي الطبقي والوطني عند الجماهير . ويتضح انغماس الجماهير في الصراع السياسي عندما نعلم أن مؤتمر اتحاد كتاب جنوب افريقيا والذي يضم الكتاب والصحفيين السود والمنعقد عام ( ١٩٧٩ ) قد أكد في قراراته على ضرورة توطيد الروابط مع النقابات المهنية الافريقية :

اليوم - زمن تجسيد الارادة  
والصدق الذي يحرق الفؤاد  
في العمل الحازم - في النضال ...

هكذا يدعو في قصيدته « زمن الفعل » شاعر جنوب افريقيا والرجل الاجتماعي المعروف ( د . بروتوس ) والذي يعيش في متفاه الاجباري كغيره من إخوته في المهنة ويكرس ابداعه في سبيل تحرير وطنه من الظلم الاستعماري والعنصرية .

والجدير بالذكر أن « تسييس الادب » يشمل أيضاً رعاة الاتجاه نحو الحضارة البرجوازية في جنوب افريقيا والذي يتغنى ممثلوه بالتفوق المزعوم للعرق الابيض وينفون وجود أي شكل من اشكال التراث الحضاري للأفارقة .

فمثلاً يقوم احد « دعائم » هذا الاتجاه الكاتب الغزير الإنتاج ( س . كلوتي ) ، بتمجيد دائم « لبطولات » البيض أثناء عملية احتلال افريقيا حيث أتوا اليها - على حد قوله - « لأهداف تبشيرية حضارية » .

ويتعمد في أعماله حول المواضيع المعاصرة تجنب اظهار التناقضات الموجودة في الواقع الجنوب - افريقي . فالافريقيون إما أنهم يبقون خارج « الكادر » أو أنهم خدم عديمو الوجوه أو « برابرة متوحشون » .

وفي تحليل مجموعة قصصية نشرها أمثال ( س . كلوتي ) كتبت المجلة الكبرى في جنوب افريقيا « يونيا انجليش ستاديز » تقول : « مرة أخرى نحن امام صيغ جاهزة وشخصيات مسطحة » . وكان هذا القول يؤكد الخط الوصولي الواضح للأدب الرسمي . ويندمج هذا الاتجاه مع ما يسمى « باتجاه النجاة » الذي يدعو الى الهروب من استيعاب المشاكل الحارقة للبلاد إلى عالم الغربة والكليشات التجارية الرخيصة « للثقافة الجماهيرية » .

وقد ارتبط اسم ج . بيكر ، التي توفيت عام ( ١٩٧٧ ) ، بأدب « التسلية الخلية » بينما يتابع كلوتي وشابمين وغيرهما طريقها « بجدارة » .

إلا ان قائمة « الطيف الحضاري » للمجتمع الابيض لانتتهي عند هؤلاء . إذ أن هذا الطيف يصبح تحت تأثير الاحداث السياسية العاصفة أكثر

تنوعاً . ويقوم بعض الكتاب الليبراليون بفضح لا إنسانية نظام « الفصل العنصري الأبارتيد » وينقلون الحياة اليومية غير الطبيعية والارتباك الروحي للأقلية ذات الامتيازات . وكفاعدة أصبحت أفكار هؤلاء الكتاب أكثر راديكالية خلال الفترة الماضية واقتربت من مواقف القوى الديمقراطية الثورية . وليس من قبيل الصدف أن تتوجه الكاتبة المذكورة آنفاً سنادين غورديمير - في روايتها « ابنة بيورخر » التي حصلت على تقييم رفيع من قبل النقاد العالمين - تتوجه نحو التاريخ البطولي والنشاط اليومي الحالي للمنظمات التقدمية في جنوب افريقيا . فبطلة هذه الرواية ( التي تستحق أن تسمى رواية سياسية ) ، ابنة أحد المستوطنين وهو شيوعي - روزا بيورخر - لم تكن دائماً تفهم والدها في صباها فتحاول تحت تأثير الاجواء المحيطة تحليل المناهات المعقدة للنضال الاجتماعي وإيجاد موضع لها فيه . وتعكس قصة بحثها الفكري التطور الابداعي لغورديمير نفسها والتي تقف الآن في صفوف المناضلين بلا هوادة ضد نظام الأبارتيد الرهيب

<http://Archivebeta.Sakhr>

إن نمو الامتزجة المعارضة يظهر أيضاً بين الكتاب المستوطنين . ففي مؤتمر اتحاد الكتاب الذي يكتبون بلغة « الأفريقانز » ، المنعقد عام ١٩٧٨ ، ذكرت ضرورة الغاء الرقابة ونوقشت أعمال الحكومة في محاولتها الضغط على المعارضة من خلال الصحف . إن مثل هذه الحقائق تحمل الكثير من البينات بالنسبة للوضع الثقافي والاجتماعي في جمهورية أفريقيا الجنوبية إذ أصبحت الطرق السياسية المسدودة طرقاً مسدودة في مجال الثقافة أيضاً ، وأكثر من يشعر بذلك ممثلو الانتلجنسيا الافريقية الموقين .

وقد أدى الفرز الفكري بين الكتاب المستوطنين الى تشكيل مجموعة أدبية حول مجلة « سستيغير » ( السستيغير - هم الستينيون ) وقد منعت بعض أعمال أعضاء هذه المجموعة : أي . ليرو - وآ . برينك وغيرهما . وقد صرح

برينك ، الكاتب الكبير الذي تعرض للملاحقة من قبل السلطات بعد منع روايته « في ظلام الليل » عام ١٩٧٤ : « إذا كان الأدب المكتوب باللغة الافريقانية سيحمل يوماً ما بين سطوره معنى الثورة الافريقية فإن الفضل في ذلك يعود - باعتقادي - الى اولئك الناس الذين استطاعوا أن يقدفوا بكلمة « لا » في وجه النظام . وهذا بالضبط ما يفعله الكاتب المذكور الذي يضطر الى اصدار كتبه في الخارج . وقد حصلت روايته ( « تحت المطر » - ١٩٧٨ ) على شهرة واسعة . وهي تحكي عن حياة المستوطنين الذين بدأوا تدريجياً بالافتناع بحتمية سقوط نظام الفصل العنصري . ويلخص عنوان المقالة النقدية في مجلة « افريكان كومونيست » محتوى الرواية على الشكل التالي : « كيف يفكر المستوطنون الافارقة حول الثورة » .

وفي عام ١٩٨٠ حصل ( برينك ) على جائزة ميديشي الادبية الفرنسية لأجل روايته « الموسم الابيض الحفاف » حيث يستنكر الكاتب الارهاب البوليسي والتعسف في افريقيا الجنوبية .  
 إن أهم عوامل تطور الانجاء الديمقراطي الشوري للأدب في افريقيا الجنوبية هو انتشار وتأثير الافكار الاشتراكية ونموها ونرى في الوقت الحالي التوجه الواضح نحو امتلاك منهج الواقعية الاشتراكية في نتاج العديد من الكتاب التقدميين بينما تنتقل مواقع هذا النتاج من « أدب الاحتجاج » الى « أدب المقاومة » .

\* \* \*

عن مجلة « آسيا وافريقيا اليوم » عدد ١٩٨٢/٣ .



## جَوْلَتِي فِي أدبِ الكَاتِبِ السَّنْغَالِي

سيمبين عثمان

ترجمة : د. ماجد علاء الدين

أخذ الأدب الأفريقي في الآونة الأخيرة بحوز على اهتمام الكثيرين من النقاد وعلماء الأدب ليس في القارة الأفريقية فحسب ، بل على المستوى العالمي . ولم يكن هذا الاهتمام بالأدب الأفريقي مجرد مصادفة ، بل جاء للتطور العاصف الذي مرت به هذه القارة منذ عشرينات هذا القرن وحتى الوقت الحاضر . وتجلّى هذا التطور في أن الأكثرية الساحقة من بلدان هذه القارة قد حصلت على استقلالها السياسي وشرعت تناضل من أجل الاستقلال الاقتصادي والثقافي ، وتعمل من أجل القضاء على كافة أشكال الاستغلال الذي مارسه الإمبريالية العالمية ضد شعوب هذه القارة . كما بدأت البلدان الأفريقية المستقلة حديثاً بتطوير الثقافة بكل فروعها إدراكاً منها أن التخلف الكبير الذي يجرم على كاهل هذه القارة ناجم عن الأمية والجهل بالدرجة الأولى .

ومن الضروري الإشارة هنا إلى أن الأدب الإفريقي الحديث قد أخذ يلعب دوراً هاماً في عملية النهضة الاجتماعية والثورة الثقافية التي مرت بها العديد من بلدان هذه القارة ، مع الأخذ بعين الاعتبار ، سبل التطور والعوامل التاريخية والدينية والاجتماعية التي تميز بعض المجتمعات الإفريقية عن غيرها . ويقوم الأدب الإفريقي بدور هام آخر وهو تعريف الشعوب الإفريقية كيف من الممكن أن تدرك حقيقة نفسها وتحمل المسؤولية أمام مصيرها . وساهم الكتاب الأفارقة بتعريف العالم على أهم القضايا التي تعاني منها القارة الإفريقية ، وحدث هذا لأن الكتاب هم أقوى من أية وسيلة دعائية في تصوير العوالم التي يعيشون فيها لمختلف القراء . في شتى أنحاء العالم ، وليس هناك أي شك في أن الكتاب في فرنسا أو في بريطانيا أو في روسيا قد لعبوا دوراً هاماً بتعريف شعوب العالم الأخرى على بلدانهم أكثر مما عرف بها المؤرخون وعلماء الاجتماع والسياسة . ويفضل الكتاب الإفريقيين أصبح الإنسان المعاصر يملك تصوراً معقولاً عن الإفريقيين عامة وعن سكان كل بلد على حدة بكل مامتاز به فئات الشعب من اختلاف وتفاوت ومعضلات سياسية واقتصادية واجتماعية . ومن الجدير بالذكر أن آداب وحضارات الشعوب الإفريقية قد تأثرت إلى حد بعيد بحضارات وثقافات البلدان الأوربية التي استعمرت البلدان الإفريقية قروناً طويلة ، حتى أخذ النقاد في علم الأدب يفصلون بين الأدب الإفريقي المكتوب بلغة فرنسية أو انكليزية أو اسبانية والأدب القومي المكتوب باللغة الأم لكل شعب من شعوب هذه المنطقة . وهنا نرى أن من الضروري التوقف عند أحد الكتاب الإفريقيين المعروفين وهو الكاتب السينغالي سيمبين عثمان الذي يعتبر نائراً كبيراً في بلده وفي القارة الإفريقية عامة .

لمحة عن حياته :

ولد سيمبين عثمان في عام ١٩٢٣ في أسرة يمارس فيها الأب حرفة صيد



السمك في مدينة زيغينشور الصغيرة الواقعة على ضفاف نهر كازا مانس . سافر منذ سنوات شبابه الأولى إلى مدينة داكار وهناك عمل حجاراً وحداداً ومساعد ميكانيكي في احد الكراجات . التحق بالجيش عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره ، وأمضى أربع سنوات وهو يعمل في قيادة سيارة عسكرية على ضرف الحرب العالمية الثانية ، وكانت هذه الفترة مدرسة حقيقية بالنسبة للكاتب . إذ تعلم كيف يناضل ضد القوى السوداء الباغية من أمثال ألماني اندشيه . ويعلم كيف يجب أن تتوحد كافة الفصائل الوطنية لردع الخطر . وافتح بصره وتصعيد النضال الوطني في كل بلد افريقي على حدة وفي افريقيا بأكملها من أجل التحرر الكامل من الاستعمار الكولونيالي .

ولقد أدرك الشاب سيمبين أن الدور الأساسي في توعية الشعوب الافريقية التي تعاني من الأمية يجب أن يلقي على عاتق الفئات المثقفة . وأدرك أنه من الضروري له ولكافة أصدقائه أن يدرسوا بعد التسريع من الجيش . وهذا ما فعله في واقع الأمر بالإضافة الى العمل المضني في ميناء مارسيليا أخذ يمضي أكثر أوقاته في الامسيات في الدراسة حتى أخذ يقصد الكلمة المطبوعة لأنه رأى في هذه الكتب سلاحاً فعالاً في النضال ضد الاعداء الخارجيين والداخليين .

### التطور الابداعي :

رأى الكاتب سيمبين أن مهام الكاتب الأولى أن يكون مسؤولاً عن مصير العالم بأسره ، وعليه أن يكون دائماً في خضم الاحداث التي يعاني منها شعبه ، وشعوب العالم قاطبة ، وعليه أن يعرف جذور المصاعب التي تعرقل مسيرة الشعوب نحو الحياة الأفضل ، وعليه أن يناضل ضد كافة أشكال التمييز العنصري واستغلال الانسان لأخيه الانسان

وانطلاقاً من هذه المبادئ اتجه الكاتب سيمبين نحو تسجيل أفكاره الانسانية في كتاب « عامل المرفأ الأسود » الذي صدر عام ١٩٥٦ بعد عدة سنوات من العمل الدائم والمضني .

### رواية « عامل المرفأ الزنجي »

يعكس محتوى هذه الرواية موضوعاً هاماً للغاية ، إذ يبين المؤلف سيمبين كيف يتم الاضطهاد العنصري للشعب الافريقي ليس فيزيولوجياً فحسب ، بل فكرياً ومعنوياً أيضاً : بطل هذه الرواية كاتب افريقي سينغالي اسمه « دياو فالا » يكتب رواية بعنوان « الرحلة الأخيرة لتاجر العبيد سير يوس » ، وبعد أن ينجز العمل في كتابة هذه الرواية ، يقوم بتسليمها الى سيّدة فرنسية « معروفة » في أوساط باريس الأدبية . إلا أن هذه السيّدة التي وعدت أن تنشر الرواية باسم كاتبها ، كذبت بوعدها ونشرت المخطوطة باسمها ، وحصلت هذه الرواية على الكثير من الجوائز الأدبية . عرف الكاتب دياو فالالا بالموضوع فسافر إلى فرنسا حتى يصفي حسابه مع السيّدة الفرنسية ، ولكن هذه السيّدة تموت فجأة بحادث تراجيدي لادخل للكاتب دياو فالالا به . إلا أن الشرطة الفرنسية تعتقل دياو فالالا وتتهمه بالقتل الممعد وتحكم عليه المحكمة بالاشغال الشاقة مدى الحياة ، ولم تنفع جميع التبريرات والحجج التي تقدم بها دياو فالالا نهائياً لأن المحكمة الفرنسية تعتبره متوحشاً ، وانساناً منحطاً ، يعاني من العقد الجنسية نتيجة لون عرقه الأسود . وباستعداده أن يقوم - حسب وجهة نظر المحكمة - بأكثر الاعمال اجرامية وسادية ، ورفضت المحكمة أن تعترف بحقوق المؤلف بغض النظر عن الوثائق والمخطوطات التي تقدم بها والتي تثبت حقه في تأليف الرواية .

يتناول الكاتب في هذه الرواية مسألة اجتماعية ملحة للغاية فهو يوضح الأسس التي يقوم عليها التمييز العنصري الذي يعاني منه الشعب الأفريقي في جميع أنحاء القارة الأفريقية في ظل سيطرة الاستعمار الأوروبي . ونتيجة هذا فقد العمال الأفريقيون الثقة نيس بالحكام الاستعماريين فحسب ، بل وبإخوانهم العمال في المجتمعات الأوروبية .

ولقد حاول الكتاب البرجوازيون والنقاد الغربيون أن يقللوا من أهمية هذه الرواية ، فوصفوها بأنها رواية بوليسية لأهمية لها ، وما هذا إلا للتقليل من أهمية مسألة الصراع التي طرحها سيمين بكل جرأة مبيناً الظروف الصعبة التي يعيش فيها العمال الافارقة . وكان النقاد على حق لو أنهم أشاروا الى بعض الضعف في التنسيق بين الموضوعات والمسائل التي تطرحها الرواية . فمثلاً لم يتمكن المؤلف من سبك موضوع الحب الذي تناوله مع أحداث الرواية الأخرى .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

### « يا وطني ، ويا شعبي العظيم »

لم يمض عام الا وصدرت رواية الكاتب سيمين عثمان الثانية بعنوان « يا وطني ، ويا شعبي العظيم » وكان ذلك عام ١٩٥٨ . وجاء هذا ليؤكد عبقرية الكاتب الأدبية ويجعله أكثر شهرة على المجال العالمي .

في هذه الرواية يتعرف القارئ الى الكثير من جوانب سيرة الكاتب سيمين نفسه ، ففيها ومن خلال البطل الرئيسي عمر فاي يصور المؤلف طفولته وأعماله في السنوات الأولى من حياته العملية كما يصور سنوات الحرب العالمية الثانية ، وحياته في فرنسا وما الى ذلك من سيرة الكاتب ذاته يرتفع المؤلف في هذه الرواية إلى درجة أكثر وعياً وإدراكاً في فهم مسألة

الصراع الطبقي واستيعابها . فلم يعد يتوقف في هذه الرواية عند وصف المعاناة التي يعيشها العامل الافريقي في ظل الاستعمار الكولونيالي بل تجاوز ذلك لوصف البطل الواعي الذي يمتلك ناصية المعرفة في مقارعة الأعداء ، ويرى الطريق السليم الذي يقود شعبه الى التحرر الكامل . ويرى بطل الرواية عمرفاي أن المهمة الأولى على درب نضاله هي تحرير الفلاحين من التبعية الاقتصادية للشركات الاحتكارية الغربية ، التي كانت تستغل الفلاحين أبشع استغلال عن طريق تقديم بعض القروض وشراء المحاصيل الزراعية بأرخص الأثمان التي تفرضها الشركات الاحتكارية العالمية ، ويبين الكاتب كيف أن إحدى الشركات الاحتكارية أخذت تقدم البذار للفلاحين بلا ثمن على شرط أن يلتزم الفلاحون ببيع المتوجات لها بالذات وحسب الأسعار التي تضعها ، وفي هذه الظروف الصعبة يعمل بطل الرواية من أجل تأسيس جمعية تعاونية تدافع عن حقوق الفلاحين وتقرض الأسعار التي تجدها مناسبة على المحصولات الزراعية . ومن خلال هذه الجمعية يحلم بحلول الوقت الذي يصبح فيه الفلاح مشاركاً في جمعية تعاونية طوعية تقوم بتجفيف المستنقعات وتصلح الأراضي ، وتبدأ التكنولوجيا الزراعية الحديثة بالعمل ، ويأخذ الفلاح كامل حقه . ولكن عملاء الشركات الأجنبية يقتلون بطل هذه الرواية عمر لأن الشركات الاحتكارية قد رأت فيه مواطناً افريقياً من نوع جديد بإمكانه أن يقود الفلاحين إلى التحرر من سيطرتها واستغلالها .

ولكن وعلى الرغم من مقتل عمر فإن أفكاره قد بقيت في قلوب وعقول الكثيرين من أبناء شعبه ، وما المظاهرة التي تكونت عند دفنه الا دليلاً قاطعاً على أن جهود عمر سوف تستمر في المستقبل ، رغم أنها في ذلك الوقت ( أيام الاستعمار الكولونيالي ) كانت غير ممكنة التحقيق ، وعلى الرغم من أحلام عمر في تلك الأونة كانت ضمن نطاق الخيال الرومانسي

ومن الجدير بالذكر أن الكاتب قد نظر الى المستقبل بعينين مفتوحتين وتوقع في هذه الرواية أن شعبه سوف يحقق الاستقلال السياسي والاقتصادي ويبنى المجتمع الذي يقوم على أسس الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والسير نحو بناء الاشتراكية .

وبالطبع كان بطل الرواية عمر يلاقي الصعوبات الكثيرة ليس من جانب الشركات الاحتكارية فحسب ، بل في اقناع الفلاحين الجهلة بصحة مايقوله لهم ، وخاصة يلاقي الكثير من الصعوبات في اقناع الكهنة الذين يؤمنون بالمثل والتقاليد القديمة ، ويرفضون الأفكار التقدمية الجديدة إيماناً منهم أن هذا هو مصيرهم في الحياة الدنيا . وهنا نلاحظ أن الكاتب سيمبين قد عكس وضعاً شبيهاً الى حد ما بالوضع الذي عكسه ميخائيل شولخوف في رواية « والأرض البكر حرثناها » وكذلك في رواية « الدون المهادى » إذ يتم الصراع بين القديم والجديد ، بين أنصار الملكية الخاصة والملكية الجماعية التعاونية . وفي هذا المجال بالذات يصطدم عمر مع والده بالذات الذي اعتاد كغيره من الفلاحين على الذل والاهانة إذ يقول لابنه عمر : « لا يجعك رأسك إذا اتحيت لذوي الأمر

ومن جهة أخرى نلاحظ في الرواية أن الشباب هم الذين يتفهمون هذه الآراء التي يطرحها عمر ومن هؤلاء كان الدكتور آغبو والمعلم سيك ، والشاب غومي ابن التاجر وغيرهم من الشباب . وهكذا يطرح المؤلف موضوعاً آخر وهو الفرق الشاسع بين تفكير الافريقي القديم وتفكير الشاب الافريقي الجديد الحالم بالحرية والاستقلال والعيش بكرامة . ويرى المؤلف أن النصر هو حليف الأجيال الشابة المناضلة من أجل المستقبل الأفضل .

والموضوع الثالث والأهم بالنسبة للكاتب سيمبين هو الغناء جميع الفروق العرقية بين بني البشر ، وأكد المؤلف أن المعرفة والثقافة والنظم الانسانية هي

الكفيلة بإلغاء هذه الخلافات والصراعات العرقية . وفي هذه الرواية يعكس المؤلف هذا الموضوع من خلال الصراع بين والدته عمر العجوز رقية من جهة ، وزوجته الشاببة الفرنسية من جهة أخرى . ولكن هذه الخلافات تضمحل وتنتهي بالتدريج من خلال علاقة الاحترام المتبادل والسعي الى التقارب أكثر منه إلى التنافر . وخاصة بعد أن تلد هذه الفرنسية لها حفيداً وتصبح قرابة الدم أعمق من مسألة لون البشرة . وتصبح المسائل التي تقرب بين بني البشر أكثر فاعلية من الجوانب التي تفرقهم .

ولقد نشرت صحيفة « لير فرانسيز » مقالاً عن هذه الرواية جاء فيه :  
« إن أفريقيا القديمة ، أفريقيا الناس والأولاد ، التي حملت بخشوع الظلم وغياب العدالة تستيقظ من غفوتها . . . لقد أخذ الزنجي يشعر بكرامته الانسانية ، ويعمل الآن من أجل أفريقيا الجديدة ، التي سوف تمجد كلمة الحرية » كما تمجدها الشعوب المتحررة . وعن أفريقيا الجديدة المستيقظة كانت رواية « يا وطني ، يا شعبي العظيم » للكاتب سيمين عشان

### أخشاب الآلهة :

في هذه الرواية يرمز الكاتب الى فكرة عميقة احتفظ بها الكاتب لنفسه مدة طويلة وهي العلاقة الدائمة بين فئات الشعب على اختلاف فصائله وقومياته وأجياله . وتعتبر هذه الرواية ظاهرة جديدة في الأدب الافريقي عامة ، وفي آداب شعوب أفريقيا الغربية بخاصة . ففي الوقت الذي تكلم فيه المؤلف عن نضال بعض فئات الشعب من أجل الاستقلال ، كان دائماً يبرز الجانب العفوي في النضال ، أما في هذه الرواية فقد أكد المؤلف على عامل الوعي في إنجاح أي عمل ثوري

في هذه الرواية يعكس المؤلف مشروع تمديد السكك الحديدية عبر المدن الثلاث دكاكر ، تيسس وباماكو ، والبطل الرئيسي في هذه الرواية هو الشعب العامل : عمال السكك الحديدية وأسراهم ، ويبين المؤلف أن الصراع الحقيقي ليس بين البيض والسود بقدر ماهو صراع بين الذين يكدحون من جهة ، وبين الذين يعيشون على حساب جهود الكادحين من جهة أخرى . ومن خلال الاضرابات يدرك العمال ضرورة العمل المنظم والموحد ضد الاعداء الطبقيين . وهكذا « أخشاب الآلهة » - الناس يتحولون الى مناضلين واعين ومدركين أنه بين الأوربيين البيض يوجد لهم أصدقاء ورفاق يتضامنون معهم في نضالهم .

ومن خلال هذا الصراع بين القوى العاملة والاعداء الطبقيين من تجار وأصحاب مصالح مدعومين من قبل الشرطة والسلطات التنفيذية ومن القوى الرجعية يبين المؤلف أنه على طريق النضال يسقط بعض الضعفاء الذين يخافون من الصعوبات والتحديات السلطوية . ومن خلال هذا النضال يتضح أن أفريقيا قد دخلت في مرحلة جديدة من حياتها إذ دخلت التكنولوجيا الى مجال الزراعة وأصبح هؤلاء الفلاحون يعملون على الآلات الزراعية دون عناء كبير ، ولم يعودوا يتصورون حياتهم دونها . كما يبين المؤلف التحول الكبير الذي طرأ في حياة المرأة السينيغالية وكيف أخذت تشارك في الحياة العملية بكل جد ونشاط إلى جانب زوجها ، وأخذت تشعر بحريتها وكرامتها ، ومن بين هؤلاء النسوة الانسانة الهادئة والحكيمة وصاحبة الارادة الصلبة « راماتولايا » والمرأة الفقيرة « ميمونة » التي لاتنحني أمام شعورها بالفقر ، وتحافظ على كرامتها بكل تصميم وإرادة حرة .

وبالبطل الرئيسي في هذه الرواية هو ابراهيم باكايوكو الذي يعتبر العقل المدبر للحركة الشعبية ، وهو يمتاز بصفات الثوري المحترف الذي خرج من

صفوف هذا الشعب المكافح . وهو من حيث اكتساب الوعي قد اجتاز مرحلة هامة تحوله وعن حق أن يقوم بدور القيادة . ويشبه ابراهيم من حيث التعامل مع رفاقه العمال . ومن حيث نضاله المبذول « بافل فلانسوف » بطل قصة « الأم » للكاتب مكسيم غوركي ، بل يجد القارىء الكثير من أوجه الشبه والتطابق في بعض أحداث رواية « أخشاب الآلهة » ورواية « الأم » ، وخاصة أن الكاتبان مكسيم غوركي وسيمبين عثمان قد عكسا مرحلة تكون الوعي عند الطبقة العاملة ، وإدراك المفاهيم الثورية ومعرفة الأعداء الحقيقيين لكافة فصائل الشعب . كما يوجد شبه كبير بين موقف الأم نفسها في رواية مكسيم غوركي وموقف النساء - زوجات أو أمهات العمال المناضلين ضد الاستغلال والقهر والظلم والعبودية .



عام ١٩٦٢ صدرت مجموعة قصصية للكاتب سيمبين عثمان تحت عنوان : « كان هذا في الفولتا » . واحتوت هذه المجموعة قصصاً قصيرة كتبها المؤلف في مختلف المراحل السابقة . ومن بين هذه القصص ، اقصوصة « زنجية من . . . » التي ترى في لون جلدها مصيبة كبرى في عالم الصراع العنصري . وكذلك اقصوصة « الوعي الذاتي » يدرك النائب فيها أن مصلحته الحقيقية هي الى جانب رجال الاعمال ولذلك يهتم بهم أكثر مما يهتم برفاقه السابقين . وهذا ما فعله الشاب الجميل داود في رواية « أخشاب الآلهة » . وأخيراً قصة « الأم » التي كتبها المؤلف عام ١٩٥٧ وأهداها لأمه وكتب في مقدمتها في صفحة الاهداء : أهدي هذا الكتاب لأمي ، رغم أنها لا تحب القراءة . ولكن ، يكفي أن تمس غلاف وبعض صفحات هذا الكتاب لأكون



أسعد بني البشر» . وبكلمة ان هذه الاقصوصة ، المسجلة على طريقة الحكايا هي نشيد الحب لكل الامهات .

وأكد الكاتب من جديد في مجموعته القصصية « كان هذا في الفولتا » على أن مهمته الأساسية هي عكس حياة الشعب السينيغالي بكل أبعادها . ويتوقف خاصة عند حياة بسطاء الناس وتوضيح المسار الحقيقي للنضال الثوري ضد الظلم والاستقلال وتحقيق الاستقلال السياسي والاقتصادي ، والعيش في عزة وكرامة .

ولكن مصير الكاتب سيمبين عثمان أخذ يتعقد تدريجياً ، وخاصة بعد أن أصيب بحادث طارئ خلال العمل في الميناء عام ١٩٥٨ ، إذ وقع على ظهره ثقل وكسر العمود الفقري مما جعله يلتزم الفراش فترة طويلة . وائر هذا الحادث على نشاطه الأدبي الذي بدأ يتسع خاصة بعد زيارته للاتحاد السوفيتي عام ١٩٥٧ ومشاركته في مؤتمر كتاب آسيا وأفريقيا .

ومن الجدير بالذكر أن الكاتب سيمبين عثمان كان يكتب نتاجاته الأدبية باللغة الفرنسية لأن لغته القومية « فولوف » لا تملك أحرفاً للكتابة سابقاً أما الآن فأخذ الكاتب يترجم نتاجاته بنفسه الى لغته القومية . وشكل هذا العمل له سعادة حقيقية أن يرى أبناء قوميته يقرأون أعماله بلغتهم الأم .

ولم يقتصر نشاط الكاتب على العمل الروائي والقصصي فحسب ، بل تجاوز ذلك ليشارك في التأليف المسرحي والسينمائي . ورأى في هذين الفنين وسيلة هامة لا يصال الثقافة والمعرفة الى أبناء الشعب السينيغالي الذي ما زالت

فيه نسبة الأمية عالية ، وليس بإمكانه أن يتعرف الى الأدب العالمي أوحى  
الأدب القومي من خلال القراءة . ومن أجل هذا الغرض سافر سيمبين الى  
موسكو ودرس هناك أصول الفن السينمائي والايخراج والتصوير ، وعاد الى بلده  
ليخرج عدة أفلام منها التاريخية ومنها الوثائقية ومنها الفنية الابداعية ومن بين  
هذه الافلام كان الفيلم الفني « بوروم سارت » الذي يروي قصة حياة أحد  
السائقين في مدينة داكار خلال يوم واحد . كما أخرج بعض قصصه الأدبية  
كأفلام ، وأخرج الكثير من الأفلام المتنوعة الأخرى التي حاز عليها الكثير من

الأوسمة والجوائز في المهرجانات الموسيقية الدولية . ولكنه وعلى الرغم من أنه  
قد أصبح من أكثر المخرجين السينمائيين شهرة في غربي أفريقيا فإنه حافظ على  
عمله الاساسي وتابع نشاطه الأدبي مجدداً ومطوراً لتلك الأفكار الرومانسية  
الثورية بعقلانية أكثر وتحليل أدق .

ARCHIVE  
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

#### الاستفتاء :

في عام ١٩٦٤ صدرت رواية « الاستفتاء » وفيها يعكس المؤلف  
الأحداث التي مرت على أفريقيا الغربية منذ عام ١٩٥٨ وحتى الوقت  
الحاضر . وتبدأ أحداث هذه الرواية من ٢٨ أيلول ( سبتمبر ) ١٩٥٨ عندما  
اقترحت فرنسا في هذا اليوم على مستعمراتها أن تصوت «بلا» أو «نعم»  
للاستعمار الفرنسي . ومن المعروف أن القوى الديمقراطية لم تنتصر الا في غينيا  
وحدها . وبالطبع أن المؤلف قد عكس التحضير الواسع والوضع العام في  
غرب أفريقيا عشية الانتخابات .

في مركز أحداث هذه الرواية نجد البطل الأدبي الدكتور - الطبيب  
تانغارا الذي يعاني من عدة مصاعب في حياته ، ولكنه تمكن من استيعاب

اصول الطب الشعبي ، الافريقي ، وأسس الطب الحديث . واعتقد أن المشاركة في الحياة السياسية ليس من شأنه لأنه كان يعتقد أن الانسان يفيد في مجال اختصاصه أكثر من أي مجال آخر . ولكنه عندما يحرم من عمله وتهان كرامته يبدأ بالتفكير جيداً وبصورة واقعية أكثر من قبل . وأدرك تانغارا جيداً أنه من الضروري العودة الى رفاقه القدماء : الطبيب « كوفي » والفنان « ليو » اللذان أعتقدا أن فشل القوى التقدمية في الانتخابات هو فشل كبير ، وعلى جميع القوى الوطنية أن توحد صفوفها أكثر من قبل لتحقيق النجاحات المرجوة .

وفي الرواية التي يغلب عليها الطابع الاجتماعي نجد أن المؤلف قد خصص قسماً كبيراً من صفحاتها للحوار بين الأبطال . ويعود هذا الى تأثير المسرح والسينما على الكاتب ، كما يعود الى رغبة الكاتب في توضيح الافكار السياسية والاجتماعية التي يناضل من أجلها الأبطال في هذه الرواية . ولكن عدم تحديد المكان الذي تتم فيه ، أحداث الرواية جعل القارئ يتبعد عن واقعية الموضوع وواقعية الاحداث ويقلل من تفاعله معها ، ولم يتحسس القارئ المشاعر الوطنية ، والسيكولوجية الذاتية للانتها القومى .

#### أزمة - تشيوسان :

في عام ١٩٦٥ صدر كتاب « أزمة تشيوسان » الذي يضم قصتين أحدهما تحت عنوان الكتاب نفسه والأخرى « ارسالية بريدي » ولقد أجمع النقاد عند تقويم هذا الكتاب على أنه من أفضل ماكتب سيميين عثمان ، إذ استفاد من تجربة الأدب العالمي ومن تجربته الخاصة وابتعد قدر الامكان عن إيجاد الحلول المباشرة لتلك المشكلات التي يناقشها ، وغالباً ما كان يترك للقارئ أن يجد الاجابة بنفسه .

وفي قصتي هذا الكتاب يبين الكاتب أطر الاستقلال السياسي والاقتصادي الذي عملت من أجله الدول الأفريقية الاستوائية . وبين كيف صعدت شعوب هذه البلدان في النصف الثاني من القرن العشرين نشاطها ونضالها من أجل الاستقلال وتقرير المصير . ويصور المؤلف أن المجتمع الأفريقي قبل الاستعمار الكولونيالي كان مجتمعاً لاطبقياً وبالتالي أن النضال من أجل الاشتراكية في هذه البلدان هو نوع من الحفاظ على التقاليد القديمة . والأفريقيون يناضلون من أجل إحياء القيم الإيجابية في الماضي وبناء المجتمع الجديد حسب متطلبات العصر .

في قصة « أزمنة تشيوسان » نجد أمامنا مجتمع الفلاحين في السينغال بكل جوانبه بعد عدة سنوات من انتهاء الحرب العالمية الثانية . وهنا يتعرف القارئ إلى التحلف الكبير الذي تعاني منه القرية الأفريقية في ظل سلطات الاحتلال التي لم تنشأ المدارس ولا المستشفيات ولم ترسل مندوبيها إلى الريف إلا لجمع الضرائب فقط . ولم تشهد هذه القرى البعيدة أي تطور ملحوظ ، فقد كانت مقطوعة كلياً عن العالم الخارجي ، وكان أول لقاء لها مع العالم الخارجي عندما عاد عسكري شارك في قوات الانزال وحارب في الجزائر والهند الصينية . وفقد عقله من رعب المعارك الضارية . وفي هذه القرى أصبحت الحياة قاسية ولا معنى لها ، فقدت القرى أكثر رجالها في الحروب ، والنسوة يعشن حياة كثيفة في وحدتهم . والكهلة عاجزون عن التفكير بالمستقبل الذي لا يبعدهم إلا بالمصائب ، ولم يبق لهم إلا التفكير بالثواب في الحياة الآخرة - في الجنة .

ولكن الحدث المباشر في الرواية والذي أراد أن يفجربه الكاتب قبلة عنيفة ضد العادات العائلية والقبلية ، هو أن شيخ القرية قد ارتكب جريمة

أخلاقية إذ اغتصب ابنته رغماً عن إرادتها . وعندما علمت زوجته - أم البنت المغتصبة قامت بعملية انتحارية وقتلت نفسها . وقام أخ الشيخ بتدبير عملية قتل لأخيه ، إذ حرض ابن الشيخ - العسكري المجنون ليقول أباه ، وهذا ما حصل ، وبالتالي يحصل ميدون على كرسي الزعامة . ولكن أمر ميدون والشيخ الديني يفتضح أمام الاهالي مما جعلهم يثرون ضدهما .

يبين المؤلف في هذه الرواية ومن خلال النقاش الذي يدور بين جماعتين من البشر أن المجتمع القديم بنظمه وتقاليده لم يعد يتناسب مع الحياة المعاصرة ، ومن جهة أخرى ان الاسس الايديولوجية التي يجب أن يبنى عليها المجتمع الجديد ما زالت غير واضحة ، زد على ذلك أن الشعور بالمسؤولية أمام بناء هذا المجتمع الجديد ما زال عاطفياً في أكثر الأحيان وبعيداً عن الواقعية العلمية اللازمة لبناء المجتمعات المعاصرة على أسس سليمة .

أما بالنسبة لقصة « الارسالية البريدية » فيطالعنا المؤلف بأحداث من الستينات في هذا القرن . وتجري الأحداث في مدينة دكا بعد الاستقلال . وفيها ينتقد المؤلف عدم تحمل المسؤولية من قبل المواطنين الافارقة من أجل اخضاع الطبيعة وترويض الصعاب والتخلص من العقد النفسية ، والضعف الانساني .

بطل هذه القصة ابراهيم وينغ كهل أمي عاطل عن العمل ، ومن أجل أن يستلم إرسالية نقدية ، أرسلها له ابنه من باريس كان عليه أن يصطدم بالواقع البيروقراطي الذي تعيشه الدوائر الحكومية . وفي كل مكان يجد هذا الكهل الاحتقار وعدم الاهتمام والسخرية . ومن حسن حظه ، وربما لسوء حظه التقى صدفه بأحد أقاربه الذي يعمل موظفاً في دائرة البريد . فتعهد له

أن يكمل المعاملة ويستلم له النقود ، ولكن وبعد أن يحصل على هذه النقود  
» يضعها » .

ولكن ورغم هذه اللوحة القائمة التي يرسمها المؤلف عن وضع هذا  
الكهل ، فإنه لا يفقد الأمل في المستقبل الأفضل ، وخاصة بعد وقوف عامل  
البريد « با » الى جانبه ودعمه في أصعب اللحظات مؤكداً له أن كل شيء  
سوف يتحسن . ويكلمة ، ان هذه الخيوط المضيئة انها هي الأمل في المستقبل  
الأفضل للإنسانية .

ومن الجدير بالذكر أن كتب سيمبين عثمان قد لاقت اقبالاً واسعاً بين  
القراء ، وحازت على العديد من الجوائز في معارض الكتب . وقوم النقاد  
العمق الاجتماعي ، والتابع الفكري في أدب سيمبين ، ونتاجاته الاجتماعية  
التي لا ترفض السلبات فحسب ، بل توضح مايجب عمله في المستقبل ، وكيف  
يمكن أن تتحرر الشعوب الافريقية سياسياً واقتصادياً وثقافياً من كوابيس  
الاستغلال والاضطهاد والتمييز العنصري .



غالبينا عاشوا شبيها  
نصرمة : الزاوي أمين

<http://Archivebeta.Sakinil.com>

يعتبر الأدب الأفريقي أدباً شاباً ، فلقد ولد أغلبه في خمسينات هذا القرن ، وإنه أدب لا يملك تقاليد الأدبية المكتوبة ، لكنه يتطور بشكل مكثف ، محاولا استدراك سنوات الضياع التي سببها الاستعمار . إن الفلكلور باعتباره جزءاً من التقاليد الشفوية ، كان حتى السنوات الأخيرة هو الشكل الوحيد للفن الفعلي في أغلب بلدان هذه القارة . ففي أفريقيا ظلت ثقافة القرون الحالية ، ثقافة الأسلاف ، محفوظة داخل مجموعة من الأساطير الجميلة والحكايات والخرافات والملاحم والأيام ( الوقائع ) الشعبية والأغاني ... الخ .

كتب أحد الأفريقانيين (AFRICANISTES) الفرنسيين المعروفين وهو :  
« رولان كولان » (ROLAND COLIN) قائلاً : في أفريقيا ، في كل مرة يموت فيها  
شيخ ، تحترق مكتبة .

إن التقاليد الشفوية ، والفلكلور بشكل خاص ، تعد جزءاً لا يتجزأ من  
كل الثقافة الوطنية ، ولكن في حالة الثقافة الافريقية ، هناك خصوصية تتميز  
بها هذه الشعوب ، إذ أن الدخول الى الحضارة الافريقية يقوم أساساً على  
الخطاب الحي ، إذ أن أغلب اللغات الافريقية لا تملك أبجدية حتى الآن ،  
ففي أغلب بلدان أفريقيا السوداء نشأت الآداب الجديدة في كنف لغات  
المستوربول القديم . لكن الفلكلور ظل يواصل تطوره في اللغة المحلية  
الاهلية ، مؤثراً بشكل واضح على أسلوب الكتاب المعاصرين من خلال  
تقاليد العريقة ، وأنساق صورته وشخصياته التقليدية وأشكاله وإيقاعاته . . .  
الخ .

يستقطب تشكيل وتطور الآداب الافريقية اهتماماً أساسياً : فمن  
جهة ، يلاحظ تأثر الكاتب بالتقاليد الفلكلورية لشعبه ، ومن جهة أخرى ،  
امتلاكه خبرة الثقافة الأدبية العالمية .

يؤكد الكتاب الأفارقة أنفسهم على ضرورة دراسة فلكلور بلدانهم ،  
فهذا الشاعر الغيني « نيني خالي - كمارا » (NENÉ — KHALI CAMARA) يكتب  
قائلاً :

« إن منابع وجذور أي أدب تعود الى الإرث الثقافي الذي يتكون منه  
الفلكلور والأساطير والحكايات الشفوية الشعبية والحكم والأمثال ، التي هي  
خلاصة الخبرة التاريخية الجماعية . إن العديد من أشكال الثقافات القومية  
تكونت وتطورت عبر قرون طويلة ، إن التطور الطبيعي لوقائع الحياة ، يدفع  
الكاتب دائماً الى الاغتراف من المنبع الثر للتقاليد الثقافية الشعبية



وقد عبر الكاتب الجزائري مصطفى الاشرف ، في مؤتمر الكتاب الأفرو- آسيويين الذي انعقد في القاهرة سنة ١٩٦٢ ، عن وجهة النظر نفسها قائلا :

« إن كل مشروع لدراسة ثقافة الشعوب الأفرو- آسيوية يتطلب قبل كل شيء دراسة منابع الثروة الثقافية لهذه الشعوب » .  
وقد أشارت العديد من مؤلفات الأفريقيانيين (AFRICANISTES) السوفيات من فيلولوجيين (PHILOLOGUES) ونقاد أدبيين من أمثال أ . غالبرينا (E. GALPERINA) وإ . نيكيفوريفا (I. NIKIFOROVA) وج . بوتخين (J. POTEKHINA) وإ . كوتليار (E. COTLIAR) . . . الخ . الى أهمية دراسة التقاليد الفلكلورية .

وحين نتحدث عن أنواع الفلكلور الأفريقي ، نميز فيه ثلاثة أنواع أساسية في الفن الشعبي الشفوي : الحكاية الحيوانية ، والحكاية الخارقة والملاحم .

إن الحكاية الحيوانية الكلاسية ، تقدم في الفلكلور الأفريقي من خلال حلقات تزيد أو تنقص ، وهي ترتبط بموضوعات عديدة يجمعها بطل مركزي واحد ( الماكر ) ، وتتكلم الحكاية عن مختلف المغامرات والدسائس التي تخرج منها هذه الشخصية بأعجوبة ، مستغلة كل حيلها ومكرها . وإن أهم الحيوانات التي تلعب دور الماكر في الحكايات الشعبية المختلفة هي : الارنب البري ( القواق ) والعنكبوت والسلحفاة . . الخ .

أما الشكل الحكائي الأكثر انتشاراً في الأدب الشفوي ، فهي حكاية الخوارق ، والتي تنحدر مباشرة من الأسطورة الإفريقية . إن أبطال حكاية الخوارق الإفريقية ، يمتلكون قوة خارقة (SURNATURELLE) يهزمون بها كل الوحوش والثعابين ، وانهم يصلون الى مبتغاهم دائماً ، فهم يبحثون عن امرأة

أوزوج متحدين كل المصائب . ان معنى « الخوارق » هنا يؤكد ذلك الارتباط بين الفلكلور والافكار والصور الاسطورية (MYTHOLOGIQUE) . فالبطل يستطيع ان يتحول الى حيوانات مختلفة ، ويستطيع ان يصبح لامرئياً ، ويشرب بركة كاملة . . الخ أما الأبطال الثانويون فهم يؤدون أدوار الخدم السحرة ( فمثلا : يخلف الآباء للبطل إرثاً . متمثلاً في بعض الاشياء أو الحيوانات الخارقة فهذه البهائم تساعد البطل ، الذي يقدم لها معروفاً دائماً . . الخ ) وفي كثير من المرات فان « طوطم » (TOTEMS) العائلة أو القبيلة هو الذي يحل محل هذا الخدم الذي يحمي البطل . كما أنه من الممكن ان تحمل بعض الاشياء العجيبة محل هؤلاء الخدم ، وهذا يؤكد مرة أخرى الارتباط الوثيق بين الفلكلور والمثولوجيا (MYTHOLOGIE) .

أما فيما يخص الملحمة ، فيمكن القول إن هذا النوع قليل الانتشار في الفلكلور الافريقي ، ويمكن رد ذلك الى أن ظهور الجنس الملحمي مُرتبط مباشرة بمستوى التطور الاجتماعي ، وبشكل بنية الدولة وبمعايير أخرى . . ففي الفلكلور السوداني الغربي عرفت الملحمة باعتبارها جنساً أدبياً شفهيًا في أرقى أشكالها . وإن الحكايات البطولية والفروسية موجودة لدى الكثير من شعوب القارة . لكن ، وحدها الملحمة البطولية ، (LÉPOPEE HEROIQUE) هي التي عكست بشكل واضح موضوعة ملحمة النضال ضد الاعداء ، من أجل استقلال البلاد والشعب ، كما عبرت عنها ملحمة « سوندجاتا » (Soundjata) . تلك الملحمة البطولية . « فسوندجاتا » بطل وطني ، أقام عدة منشآت ، وهزم عدوه الملك . الساحر « سومنجور » (SOU MANGOUROU) من أجل تحرير بلاده وشعبه . وتعد ملحمة سوندجاتا من الاعمال الادبية الشعرية الشفهية الأكثر شعبية في جمهورية مالي .

يولي الكتاب الافارقة أهمية كبرى للفلكلور . وهم في الرقت نفسه

المتحمسون لجمعه ودراسته فهم الذين يتقبون عن الحكايات والخرافات والالغاز والامثال والاغاني الشعبية .. الخ . . ففي الفلكلور يجد هؤلاء الكتاب الوسائط الغنية للتعبير والاسلوب ، بعد ان يشحنوها بمضامين معاصرة وجديدة . فتنمو داخل مؤلفاتهم ، بشكل آخر ، أشكال الخرافات القديمة والملاحم الشفهية . تلك التي راكمتها حكمة الشعوب منذ العصور .

وتعرف الحكايات الشعبية ، التي أعاد صياغتها الكثير من الكتاب الافارقة الكبار ، رواجاً شعبياً واسعاً ، ومن بين هؤلاء الكتاب نذكر :  
بير اكو ديوب (BIRAGO DIOP) وسمبين عثمان (SEMBÉNE OUSMANE) من السنغال ، ورنارد داديه (BERNARD DADIE) من ساحل العاج ، وبنجامان

ماتيب (BENJAMAIN MATIP) واللونج ابني يوندو (ELOLONGUE EPANIA) من الكاميرون . وماكسميليان كينوم (MAXIMILIEN QUENUM) من بنين ، وأموس توتولا (AMOS TUTUOLA) وشينو أشيب (CHINUA ACHEB) من نيجيريا .. الخ .

ويظل الكاتب السنغالي « بيراغوديبوب » الذي يكتب بالفرنسية ، أكثر الكتاب الافارقة استلهاماً لفلكلور أفريقيا الغربية بطريقة حساسة وبمتمهى الدقة ، وتعد مجموعته القصصيات « حكايات أمادوكومبا » (DAMADOU) 1974 (LES KOUUMBA LES CONTEs ، « الحكايات الجديدة لأمادوكومبا ») 1958 (NOUVEAUX CONTEs DÁ MADOU KOUUMBA) ، استلهاماً من مختلف موضوعات الحكايات الشعبية الافريقية .

وفي حكايات « بيراغوديبوب » نلمس بعض الخصائص المحلية التي توجد في بعض حكايات شعوب العالم الاخرى ، وقد أشار الكاتب نفسه الى ذلك ، ولكن هذا لا يعني ان هذه الحكايات غير افريقية غربية ، ففي هذه

الكتابات يكشف براغوديوب تلك الحياة التقليدية العريقة في القرية الأفريقية ، بكل ما تشتمل عليه من معتقدات وتقاليد أهلية . وفي هذه الحكايات يجد القارى عالما من اللوحات الفنية الخاصة بالدغل الأفريقي .

وبين براغوديوب ، سبب تسمية كتابه بـ «حكايات أمادوكومبا» (LES CONTES D'AMADOUKUMBA) قائلا : إن أمادوكومبا هو ذلك الشاعر الساخر (الحكواتي) ، ورواية العائلة . وإنه رمز الحكمة الأفريقية ، فهو الذي روى كل هذه الحكايات ، . . . ويضيف براغوديوب قائلا : إنه لم يفعل شيئا سوى استذكار أقوال هذا الغريو (الحكواتي) وإعادة صياغتها وترجمتها الى الفرنسية .

ويعد الكاتب العاجي (من ساحل العاج) برنارد دادبي (BERNARD DADIÉ) ذا شهرة واسعة ، في أفريقيا الغربية ، ليس كشاعر أو مسرحي أونائر فقط ، بل وكجامع للفلكلور . ففي سنة 1953 نشر بـ «دادبي مجموعته» الخرافات الأفريقية» (LES LEGENDES AFRICAINES) وبعد ذلك بستين ، أي في عام 1955 نشر كتابا آخر بعنوان «التنورة السوداء» (LE PAGNE NOIR) ، ومثلما فعل بـ . ديوب ، فإن برنارد دادبي ، أكد في كتابيه على العناصر والخواطر الانسانية العالمية في الفلكلور الأفريقي ، وقد عبر عن ذلك في إحدى مقالاته عن مفهوم الحكاية قائلا :

«إن الحكمة المختزلة في حكاياتنا ، تعادل حكمة الشعوب الأخرى» .

وقد اعتبر الحكاية ، عنصرا هاما في تدعيم الوحدة والشمولية ، وبالنسبة اليه فإن الحكاية هي أكثر الوسائل أهمية في ربط الانسان بالأرض . لأن كل حكايات العالم تلتقي جميعا في مفهوم واحد اخلاقي وإنساني ، حول الخير باعتباره قيمة انسانية خالدة ، والشر كقيمة زائلة ، وفي كل حكايات الشعوب نجد ذلك التجسيد الحلمي للعدالة الاجتماعية والانسانية .

ويمكن اعتبار مجهودات بيراغوديوب وبرنارد ديدي ، من خلال عملية استئثار الفلكلور كقيمة حضارية وايدولوجية وثقافية في أعمالهم الادبية هي الخطوة الاولى نحو بناء آداب وطنية أفريقية قبل الاستقلال ، فاعمالها الادبية جسدت من خلال الصورة الفلكلورية مجموعة من الافكار الثورية ، إذ انها جعلت الفلكلور في خدمة قضية نضال الشعوب الافريقية ضد مستعمرها .

وفي ظل الحرب التحريرية ، كان الكتاب يكتبون بطولات شعوبهم من خلال الارتكاز على موضوعات البطولة في الحكايات والملاحم الافريقية ، وهم في ذلك يقومون بدعوة الى صحوة شعوبهم واستنهاضها ضد الاستعمار .

ومن خلال هذه العلاقة أدخل الشاعر والمسرحي الغيني «كايتا فوديبا» (KEITA FODÉBA) الفلكلور الى أعماله الأدبية ، فاعتمدت قصائده أسلوباً وشكلاً فلكلورياً ، إذ انها كتبت على شكل نثر ايقاعي او شعري (PROSE) (RYTHMÉE) وهي مقصورة بالآلات موسيقية وطنية أفريقية : كورا - (CORA) وبلافون (BALAFON) وطامطام (TAMTAM) . لقد قرب كاتيا فوديا قصائده من أشكال الأغاني الشعبية تلك التي يغنيها الحكواتي .

وعلى هذا الشكل كتبت قصيدته ( الفجر الافريقي ) التي صورت بطريقة درامية مصير شاب أفريقي اسمه «نعمان» (NAMAN) ، كان يناضل في صفوف الجيش الفرنسي ، ولشجاعته فقد منح وساماً . وفي طريق عودته الى قريته الغينية ، حيث ينتظره الاهالي بفرح ، باعتباره بطلاً أفريقيا ، يقتل غير بعيد من قريته على يد أحد الضباط البيض ، ومن هنا تتحول القصيدة الى إدانة للعنصرية واللاعادلة .

وبالاضافة الى الشكل التقليدي الفلكلوري الذي تجسدت فيه القصيدة ، فان كاتيا فوديبا وظف في قصيدته تلك الصورة التقليدية العريقة للبا،ز ، وتمتلىء القصيدة بتلك الصور التي تتغنى بالفجر الافريقي وهي ترمي

الى تأكيد أن النهار سيهزم الليل ، ومن هنا جاء عنوان القصيدة . وتبتدىء القصيدة بالفجر وبه تنتهي ، رغم الجؤ المأساوي الذي خيم على القصيدة إلا أن نهاية القصيدة كانت متفائلة :

« ويطلع الفجر . . وفي أشعة الشمس الساطعة نشاهد بازاً جباراً . »

إنه رمز أفريقيا الجديدة .

وتشير توظيفات الحكايات الافريقية القديمة انتباهاً كبيراً ، في حكايات سمبين عثمان (SEMBÉNE OUSMANE) وهو أحد أكبر الكتاب السنغاليين التقدميين . وهو كاتب متميز بنصه الروائي الذي يحافظ داخل خطابه على الثقافة الأصلية للأفارقة .

لقد جال سمبين عثمان في كثير من دول غرب إفريقيا ، لدراسة الفلكلور : مؤكداً على أن دور الكاتب المعاصر هام جداً ، بذات الاهمية التي كان عليها دور « الحكواتي » . في أفريقيا القديمة . يقول بهذا الصدد :

« في غابر الأزمان : في أفريقيا الكلاسية ، لم يكن « الغريو » الحكواتي » ذلك العنصر الحي في قبيلته أو عشيرته أو قريته . فحسب ، بل كان شاهداً صريحاً على كل واقعة . فهو الذي يسجل ، وهو الذي يطرح أمام الكل ، تحت شجرة النقاش ، كل اعمال وحركات كل واحد . إن مفهومي للعمل الثقافي ينطلق من هذه العلاقة ليبقى قريباً من الحقيقة ومن الشعب . »

وبالنسبة لسمبين عثمان ، لا يعد الفلكلور حقلاً للدراسة الجادة والعميقة ، لكنه في المقام الاول ، ذلك الجزء الذي يجد حضوره واستمرارية وجوده داخل كل مؤلفاته ، وإن موقف سمبين عثمان من التراث موقف خاص جداً وأصيل ، إذ ما يهيم في الحكايات الشعبية هو ذلك المضمون الاجتماعي . وبذلك بدت توظيفاته للفلكلور أيديولوجية أكثر منها فنية ، فهو يبدع حكماً مجازية تتصل مباشرة بالواقع ومشكلاته المعاصرة .

أما الكاتب النيجيري الكبير ( شينوا أشيب ) (CHINUA ACHÉBE) والذي يكتب بالانجليزية (ANGLOPHONE). فقد وظف هو الآخر بشكل واضح العناصر الفلكلورية في مؤلفاته ، ففي روايته الأخيرة ( رمح الإله ) (LA FLECHE DU DIEU) يعرض الروائي مشاهد كاملة تتصل بالاحتفالات الطقوسية التي ترتبط بالفن الشعبي الشعري أو الاسطوري ، وإذا الرواية مليئة بالحكايات الشعبية والأغاني والأمثال والأقوال المأثورة (DICTONS) والتغريسات السحرية ، كلها منتظمة داخل سياق الحدث الروائي . ومن خلال ذلك كان شينوا أشيب يهدف الى مزج المادي بالمعنوي ( المعتقدات ) ، وعبر هذه الوحدة يتجلى الموقف الايديولوجي للكاتب . ذلك الموقف الذي يدين الجشع .

لقد كان الكاتب بتوظيفه الفلكلور ينزع الى إداء دور تربوي وأخلاقي ( أيديولوجي ) . وهذه الموضوعة معروفة في الفلكلور الأوروبي « لتذكر من ذلك : الحكايات الرومنية « بير - جيل الصغير » (LE PETIT PÉE - GEL) و « الاثنا عشر شهرا » (LES DOUZE MOIS) او الحكاية الفرنسية « الجنيتان » (LES DEUX FEÉS الخ . . .

إن العناصر الانسانية هي وحدها تستحق الشرف والاحترام والمكافأة : الطيبة ، الشجاعة ، احترام المعجزة ، الانسانية ، لكن الشر على العكس من ذلك يجب ان تنزل به العقوبة والعذاب .

(\*) عن « آسيا وأفريقيا اليوم » العدد 5 ، . سبتمبر - أكتوبر ١٩٧٩ .



ترجمة: محمد موفق الشيوخ

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

كاير منسا :

ولد الشاعر الكبير (كاير منسا) في غانا عام ١٩٢٣ ، درس العلوم في جامعة كامبريدج ، ثم درس التعليم في لندن ، عمل مدرسا لبضع سنوات في لندن وبسّون حاز عام ١٩٧٠ على جائزة المارغريت الادبية لمجموعاته الشعرية .

تري مجموعاته تغايرا في امزجته ، ويتحول شعره بعذوبة موسيقية واقعية نحو اللاواقع وبالعكس . كتب عن افريقيا والشعور الوطني ، واكثر ما يميزه به و . ر . دارثون قابليته الرائعة في استحضار المراثيات ونفحها بطريقة مثيرة .



## « امحق الكره بين الاجناس »

« Destrog the Hatred

between the Races »

امحق الكره ،  
ودع الانسان :  
الا اذا كان الاثنان . متطابقين .  
اقتلع هذه الجريمة  
بين انسان وانسان ،  
واطرحها في الشمس .  
كي لاتنبت جذورها ثانية ، احرقها كلها ، واذا  
استطعت ،  
انس ماسببته من اذى .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

« لتكن »

«TO Be»

الحقيقة افعى متهاوتة  
تتحرك في غور حديقة .  
تنسل خفية تحت الاعشاب ،  
خوفاً ، اولامبالاة ،  
بينما نمر بها دون انتباه ودون حذر .  
لكي نعيشها ، يجب ترويضها  
عمل مخادع محفوف بالمخاطر  
به يكون الموت ثمن الرعب  
والنصر جائزة الحياة .

## الولادة المحتضرة

« Dying Birth »

الموت عندي  
هو أشبه بالذهاب الى الخارج في عطلة  
وإذا كان الموت لأبدٌ مدركي  
فأتمنى لو استطعت ان اخطط له . . . وان أعد العدة .  
كما كنت سأفعل  
إذ اتطلع نحو السعادة  
في مكان ما ، فوق بعض الرمال الباردة ، تحت الشمس  
عرضة لريح منعشة مضمخة بصدى البحر  
مع صديق  
بعيدا عن المدينة حيث يبدأ التحيب .

« ثمن الاسم »

« The Price of a Name »

فراش ، نظيف ، دافئ ، مرتب  
لليلة شتاء . . . وحيدة ،  
ووجه لطيف او اثنان ،  
هذا كل ما أحتاجه هنا  
في هذه المدينة .  
بالأسف  
ما أدفعه الآن سبعة اضعاف

من أجل ليلة قاسية في هذا الفندق  
مع جبهة من ورق بدلاً من وجه  
لقد دفعت من أجل اسم . اسم ؟  
نعم ، كلنا يفعل هذا .  
اذكر أي اسم مشهور ،  
قل لقد قال ذا وذاك ،  
عن الفن ، عن الحب ،  
عن السياسة وآثار المخدرات  
عن الحبوب أو عزيمة الكفاح ،  
وحالا نهض  
لنستنشق الهواء  
نُبهر بعبق الاسم ، نشري  
أية تغاية بأي سعر

» افتراض

« Suppose »

» افترض . دعنا نفترض »

هكذا بدأ كل شيء .  
هكذا تبدى الأشياء .  
هكذا ولدت قوانيننا ،  
ولهذا توجهت الفلاسفة .  
هكذا رسمت الخطوط ،

هكذا تسلقت الاسلاك الشائكة الجدران .  
لتبقي عرقنا مقسماً .  
ببساطة ، واستقامة ، ومنطقية  
من تلك الخطوة آلاف الاميال .  
أيمكن - ولو على سبيل الافتراض -  
ان نرى من الجذر حتى الزهرة .



قضت شبابها  
تتعلم كيف تظهر  
وعرفت آلاف الاطباء ،  
ولكن الرجل الذي تزوجته مؤخراً  
يتناول الخبز والحليب فقط .

بيضة

« An Egg »

أنت

تمسكك

بشدة مسرفة

تسحق

بينمنا ينبغي

أن تـرى فـي

بيضة

تصلح للأيدي

الناعمة

النايبة

<http://ArchiveBeta.Sakhril.com>

لا

« Donit Worrng »

حي كضوء شمعة

في ليلة معتمة

ولكنها سالمة كما تسلم البيضة

في كوم تراب النمل

(+) مساكن النمل : يبني النمل اكواماً من التراب الناعم ويصل طولها

احيانا الثلاثة امتار . وتأخذ شكلاً مخروطياً .

غابرييل اوكارا

ولد اوكارا عام ١٩٢١ في ( بومودي ) ، نيجيريا .  
درس الصحافة في جامعات امريكا .  
بدأ كتابة القصة عام ١٩٦٤ ، وفي عام  
١٩٦٧ ظهرت اول مجموعاته الشعرية في كتاب  
( اورفيوس السوداء ) .

### « بيانو وطبول »



ARCHIVE

<http://ajournalwebeta.sakbrrit.com>

في مطلع يوم بجانب نهر  
أسمع صدى طبول الغابة  
نغم روحي ، مثير ، دام  
كبدن ينزف ، يخبر عن بداية الفتنة الاولى ،  
ارى الفهد متحفزا للانقضاض ،  
النمر يزجر على وشك  
الوثوب  
ويربض الصيادون بسهامهم الموجهة .  
وتغر دمائي ، جارفة ،  
تطيح بالسنين ، وحالا انا  
رضيع في حجر امي ،  
حالا أمشي ببساطة  
مسالك لا جديد فيها  
وعرة ، وشديدة الالفة مع الدفء العاري

للاقدام المارعة ، والقلوب الضالة  
في الاوراق الخضراء والزهور البرية النابضة .  
ثم اسمع نحيب بيانو  
يتحدث منفردا في سبل معقدة  
كونشيرتو  
يتغضن بالدمع ،  
لمواطن بعيدة  
وأفاق جديدة  
ذات ألحان متناوذة ، متضاربة ، متألقة .  
يضيع في متاهات تعقيداتها  
يتوقف فجأة في منتصف مقطع  
تحت تهديد الخنجر .  
وأنا ، أتوه في سديم فجر  
بمحاذاة نهر  
أهيم بايقاع نغم متصوف  
بين طبول الغابة والكونشرتو .

« PIANO et DRUMS »

by : GABRIEL Okara

سيبير يان ايكونزي :

ولد سيبير يان ايكونزي في مدينة ( ميناء ) ، شمال نيجيريا عام ١٩٢١ .  
درس في ابادان ، غانا ، وتخرج من جامعة لندن حيث درس الصيدلة ، وأخذ  
بتدريس مادة الكيمياء في نيجيريا .  
اصبح فيما بعد مدير ادارة في وزارة الاعلام . كتب قصصا للاطفال ،  
والف قصصا قصيرة وبعض الاشعار . كتب قصيدته « فتيات اللاغوس » عام  
١٩٦٦ - وصدرت في كتاب ايسكا .

« فتيات اللاغوس »



المدينة فتاة تنهادى  
تنهادى مع بزوغ الفجر  
حقيقية يد فوق ذراعها  
تنحدر جائعة  
تسير ظهرا  
توق مفعم بالحياة  
تسير في الغسق  
أساور متلاثة  
بتعال وكبرياء .  
المدينة فتاة تنهادى  
دوما تنهادى  
دوما تخطط  
دوما تتسلق  
نحو قمره الطيار



تتسلق مسارح الاحداث  
لتعترض الاعالي  
حيث تستطيع الفتيات فقط الاعتلاء  
من يقدر على تجاهل  
فتاة جلدها لامع في الشارع  
كاملة الزينة ، من شعر رأسها حتى طلاء أظافرهما  
رأس مرفوع . . . وصدر مشدود .  
كفل مهتز بدلال معذب .  
عينان تتأججان بتحد ، ياويلي منه . .  
تبدو وكأن العالم لها  
والمدينة مرفأها  
فالفتيات دوما يتهادين  
يفسدن حركة السير  
يقلقن المكاتب  
يناشدن وجوه الرجال  
من خلف نوافذ العمل  
يهيجن المشاعر  
يستدعين الاهتمام  
في افريقيا التي هي بلد الرجال  
المدينة فتاة تنهادي . .  
دوما تنهادي

by : Cyprian Ekwenzi

« The Girls of Lagos »

عن كتاب ايسكا

الكاتب : سيير يان ايكونكري

## اديبايو فاليتي

شاعر من قبائل اليوربا ، جنوب نيجيريا . اختصاصه الرئيسي في الفولكلور النيجيري . نالت قصيدته الشعرية « الاستقلال » الجائزة الأولى للأدب اليورباتي في مهرجان نيجيريا للفنون عام ١٩٥٧ .

### « الاستقلال »

لا شيء عذب .. مثلما هو الاستقلال  
انه ليوم عظيم عندما يشتري العبد حريته  
عندما يستطيع العبد ان يذهب لجلب الماء  
ولن يقول له أحد : أتيت متأخراً !  
عندما يجلب حطب الوقود  
ويستخدمه لطبخ طعامه  
حين يستطيع العبد ان يحضر الى بيته بعض اليام"  
كل يوم ، وهيء منه وجبته  
عندما لا يخدم العبد أحدا ،  
بل يخدم نفسه فحسب !  
أي يوم ذاك ، حين يستيقظ العبد ليرتاح لا ليذهب  
لمزرعة رجل آخر !  
حين يبدأ العبد بزراعة مزرعته لحسابه الخاص ..  
أربعمئة وعشرون صفا من اليام !  
حين سيزرع الذرة وينقب اليام .  
حين يبيع محصوله ويستفيد من ثمنه مع عائلته .

سوف لن يعمل بعد ذلك دون ثمن .  
ولن يضيع شيخوخته في خدمة الآخرين .  
سيتهج العبد ، يتهج ويتهج ..  
سوف يقفز في الهواء ويصفق على جسده بيديه .  
سوف يغني اغنية ويقول :  
ساعدوني ، فأشكركم . أنا محظوظ .

ان الانسان الذي لم تكن حياته يوما مرتبة  
لا يعرف مشقة العمل قبل بزوغ الفجر .  
الانسان الذي لم يكن .. يوما عبدا  
لا يعرف مشاق صبي الاسطبل  
لن يعي ابدا ما معنى ان

يلمسح الندى عن أوراق الأشجار في الصباح  
ويبقى في المزرعة حتى ما بعد المغيب - يقطع اليوم .  
في الفصل الجاف أو الماطر . . .  
لامناص من ذلك  
قد رأيت عينا العبد أشياء كثيرة .

إذا كانت حياة الشخص مرهونة وكان طويلاً بطول شجرة  
الاوغن" في سوق الملك

---

اليام : نبات ارضي ، يشبه شكله الخارجي جذع شجرة ، وطعمه كالبطاطا  
الحلوة . ويعتبر غذاء رئيسيا وعاما عند الشعوب الافريقية .  
شجرة الاوغن : شجرة فارمة الطول .

سيبقى ضئيلا ككلب قزم في عيني سيده .  
ولو ان العبد كان مهترئا كعصاة قديمة .  
وأجرب ككلب عجوز وضع .  
سيبقى ابدا سيذا .  
قد رأت عينا العبد كل شيء !

ليس هناك اليوم الذي خدم فيه الفيل الطيبي  
أرسل الطيبي الفيل الى النهر  
ضرب الطيبي الفيل  
شتم الطيبي الفيل على الجسر  
ذكره بأنه غني ، ولذلك قدر على امتلاكه .  
لكن الفيل قبل العتاب بود .  
قال الفيل : هذا ليس لاني احمق ،  
أو لاني لست راشدا .  
لو أن العبد تحرك بانتباه ،  
سيكون قادرا على شراء حريته بعد وقت طويل ،  
طويل .  
لم يكن الوقت متأخرا للفيل  
كي يشتري نفسه حراً ويصبح قائد الحيوانات .  
دعونا ننفض عنا الآلام بصبر .  
نقتل الحشرة على جسدنا بلطف  
لنتأهب جميعنا لشراء انفسنا وعتقها  
فنحن مايزال لدينا الارض ، ولدينا المعازق .

لدينا اشجار الكوكا ، والموز .  
لدينا نواة النخيل والفول السوداني .  
لنقاوم ، علنا نستطيع حرق مزرعتنا .  
لننجو من العبودية والارتعان .  
ليصبح جميع شعبنا احرارا .

مترجمة عن لغة اليوربا

الشاعر : Adebayo Faleti

  
أغنية حب  
ARCHIVE  
<http://Archivebeta.Sakhril.com>  
هشة كالزجاج ، فتاتي ،  
أولمستها ستتكسر .  
فلا تقترب كثيرا -  
هنا مكان خاص جدا .  
تحت ثديها الايسر ، في راحة كفها .  
وجدت بصماتي - أماهي فتركت بصماتها في وجهي ،  
بصمات خاص ، ولكن على ملا  
يفني الاسى جمالها ، وتتففس ندوبها سحراً .  
والآن ، لا أمتلك منها شيئاً  
سوى زمن مكسور من جيدها .  
لكن ، هل ستركني يوماً ما حراً .  
ان مرآة نفسي مقيدة

بنظرتها الغامضة المؤذية .  
وجسمها الجميل المقعم بالاسرار .  
أوه اياك والاقتراب  
فهنا مكان خصوصي جدا ،  
إن ما أبكيه هو المرأة الغادرة  
التي تقدم صورتها من خلال وجهي

الشاعر : C.J. DRIVER

( تأملات في النور )

« Elegies of Light » : « A Lov Song »

س . ج . درايفر جنوب افريقيا

ARCHIVE  
<http://Archivebeta.Sakhril.com>



# نفحات شعريّة من أفريقيّة

ترجمة: بشار شار  
مراجعة: الياس بدوي

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

## توق

اشتدّ يانشيدي المجمع

وياحزني

على الكونغو وفي جيورجيا

وعلى أنهار الأمازون

اشتدّ

يا حلمي بالرقص الأسود

في الليالي التي اكتمل قمرها

وليشتدّ ساعداي  
ولتشتدّ عيناي  
وليشتدّ صراخي

وليشتدّ الظهر الملهب بالسياط  
والقلب المهجور  
والنفس الغارقة في إيمانها  
وليشتدّ الشكّ  
قاسية أناشيدي  
على أحلامي  
على عينيّ  
على صراخي  
وفوق دنياي المنعزلة  
علّق الزمن



## النداء

الشاعر : يوحنا ميثيا

لست أخشاك فقلبي ناضج ،  
سأمضي للقائك ذات مساء ، هناك  
على قمة رغبتي ، خلف سور  
النهار البشري ذي الأنوار الجديّة .  
لست أخشاك ، فأنت وعدي



كما شمس الصباح لهذا المساء  
في أعماق نفسي افتح الأجفان ،  
وأجعل بهجتي في احتضان قدرك .  
تعال ! فإني اعرف الرنة الطويلة  
لهذه الخطوة التي أصغي إليها بارتعاش ،  
تعال ! فقد احتفظت لك بصمتي النقي  
الذي أعددتَه بالمشقة والعرق ،

تعال ! المكان هنا نيرٌ لأننا نسمع  
ها هو الباب مفتوح والنافذة !  
وعلى عتبي توقف الزمان  
أيها الأمير ، اكل شيء جديد ويمكنك الظهور !  
  
http://Archivebeta.Sakhril.com

ما هم أن أكون جميلة وحتى طيبة ،  
ما هم أن أكون أهلاً لاختيارك !  
يكفيك أن أكون لك ما يهب ذاته  
يكفيك يا حبيبي أن أكون لك

هل أنت لي هذا الطريق الطويل الذي يسلكه قلبي ؟  
هل أنت لي العصفور المرفف الذي ينساب في البعيد ؟  
هل أنت لي البلد المظلم ، الكثير الوعود  
حتى انتخبت ، في العشية العذبة ، لحاجتي إليه ؟

تستطيع أن تأتي ، تستطيع ، فإني أومن بمعجزتك  
أست منذ اليوم الأول قسمتي ؟

آه ! إني أنتظرك كأنها بفعل وحي الآلهة  
أنت ، يأنث ، إني أحمل صورتك في نفسي ، بعيداً في نفسي !  
أيها الأمير ، عندما تأتي من الهضاب الضبابية  
بتام خطو الذين يهبون ذواتهم دونها رجعة  
حينذاك تفيض ينابيع الوديان  
أيها الأمير ، عندما تأتي ، سيكون ذلك على الدوام !

أيها الأمير ، عندما تأتي سيكون الأمان في الأرض  
وتتهاوى البساتين تحت وطأة النخل  
أيها الأمير ، عندما تأتي تنضج ثمار المانجا  
وتنسج أخواتي سلالاً واسعة ، وهن يغنين بصوت خفيض .

أيها الأمير ، عندما تأتي ، سيكون لجسدي روحه  
وسأتعلم بهجة الفراشات  
وسأعرف لماذا ينحني نبات الاينيام  
برأسه على الدعامة في الأثلام الخصبه .

أيها الأمير ، عندما تأتي ، سيكون قلبي الجرة  
المفتوحة بملء حوافيها لطوفان العسل !

حينما أفكر أنك آت يطيش أمني المجنون  
يارسول الحب الذي يحمل إلي السماء !

أيها الأمير ، عندما تأتي سيضحى الرجال طيبين  
في الصباح الأبدى ، وتضحى النساء جميلات ،  
وتمتلىء عينا الشيخ بالغفران ،  
ويصفق الولد بيديه في ضوء القمر العائد !

أيها الأمير ، عندما تأتي ، ستفتح الدروب  
الدروب التي تمضي كي لا تعود . . .  
وسوف أعرف المرحلة في ظلال النخيل  
وينتهي منفاي بها أنك ستكون هناك !

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

## أغنيات للصيد

الشاعر : أونيسيمو سيلفيرا

في حلقات المساء  
كان أبي يقصّ علينا حكايات مدن جائعة  
في كل الأمسيات التي لانجد ماناكل فيها  
والأمسيات بعدد أيام السنة

في حلقات المساء  
كانت أمني تعدنا بقمصان جديدة

لعيد آيار في سلامنسا  
وقد قطعت أُمي وعوداً  
بقدر القمصان التي لم تستطع اعطاءها

في حلقات المساء  
والبطون تنتفخ بالديدان  
كنا ننشد متحلقين  
( هات أيها القمر مغلياً  
نعطك حلياً )

أوهام عبيد يظنون أنهم تحرّروا  
أوهام أطفال يظنون أنهم يمدّعون القمر

ARCHIVE  
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

إن سفينة النخاسة ههنا  
إن سفينة النخاسة ههنا

### « الغونغون »

الجزيرة تموت نهراً من جرّاء المجاعة  
- وفي كل يوم  
الجزيرة تنهض في الليل من أعماق النسغ  
- وفي كلّ ليلة  
يا أصوات قيثارات نائحة  
يا أصوات أنات مبعثرة  
ما عساك تروين للنجوم

الأنداء تُنهك  
والعضلات تحتاج  
فماذا عن المهود ؟

أيتها الأصوات السوداء  
يا أصوات اقنعة تشطبها الآلام  
إن الحياة تدعوك للانشاد على الأرض  
على الأرض  
على الأرض  
على الأرض



سكّون حاضرين

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

كنا نعيش  
بسطاء  
مسالمين  
منذ فجر الزمان  
كنا اخوة جميعنا  
وكنا نأكل ثمارنا  
ونشرب ينابيعنا  
ونستنشق هواء أريافنا  
كنا نعبد آلهتنا  
وننشد ونرقص  
في ضياء القمر

كنا نعيش  
بسطاء  
مسالمين . . .

و ذات يوم  
نزلت إلى شواطئنا  
أسماك القرش

وانتهى السلام  
والأنشيد  
والرقصات



لقد انقضوا على أكواخنا  
كالصقور

لم يكتفوا  
بالمحيطات والأجواء

كان لابد أن يستولوا على أراضينا  
لماذا ؟  
لماذا يا ربّي ؟

كانوا يملكون البندقية  
ويملكون الكحول

ويملكون قبل كل شيء  
الكذب والكراهية ...

لم تكفهم أراضينا  
فانتزعوا

أشقاءنا

وشقيقاتنا

وأبناءنا

إلى قارات أخرى .

كان علينا أن نزوع حقوقهم  
ونملأ صناديقهم  
ليدفعوا لنا

ARCHIVE  
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

صنوف المذلة

والعنف ...

ولكن كان ثمة « توسان » !

وكنا نحن أبناء الشمس

نحتفظ بأمل

حياة أفضل

وكنا نغني

ونرقص

مع شعاع الأب  
كما هي الحال في افريقيا  
في حصوننا وساحات غاباتنا .

كان لنا قلب من ذهب  
في غاباتنا وساحاتها  
وعَلَمَناهم  
الايقاع والألحان الدافئة  
التي من بلادنا .

  
فألزنجي ما أشدَّ كرمه !  
ولكنهم غَنَوْها  
ويأسوء الغناء ! <http://Archivebeta.Sakhril.com>

إننا الآن نطوف  
العالم أجمع  
بطبولنا  
ولذة الحياة فينا .

إن ضحكاتنا لاتضاهي  
لأنها صافية صريحة  
لأنها نقيّة جميلة  
لأننا ذوو أسنان قويّة بيضاء



أيدينا ليست  
فارغة

سنمضي إلى موعد  
القارات الخمس  
بأناشيدنا ورقصاتنا  
بأفئدتنا المتقدة  
صداقة  
وطيبة  
وسلاماً



ولن ينقص إصبع واحد ، لا  
لن ينقص إصبع واحد  
في اليد النورانية  
التي ستحمل مشعل  
الكلّي

## افريقيا المظلمة

أعشق أيام الزمن الغابر  
كبريات أيام الفضيلة والعفة

حينما كان يعيش رجال يروعون  
وحیوانات جامحة  
في تناغم وثيق .

إني اعشق إفريقيا في ذاتها  
إفريقيا الأصيلة ذات الجلال  
لؤلؤة الماضي النفيسة  
ماكانت مواطن جماها قد تفتحت كلّها  
ولأجذّت مواطن سحرها كلّها  
في أيام الزمن الغابر .



ولكن اعيدوا إلى إفريقيا تلك  
بأفضل مافيه وأسوأ مافيه  
ودعوني حراً في إعادة خلق  
إفريقيا الله العظيمة  
المزدانة بسحر الأيام الماضية .

ولكن هبوني إلى ذلك ،  
وقد جاءت من البعيد البعيد ،  
قوانين « فاراديه » الخصوصية .

هبوني كل ذلك  
ومن إفريقيا هذه التي تاهت زمناً طويلاً

سينبتق كما العتقاء  
عالم جديد اسمه افريقيا

حينما كانت الرؤية قصيرة المعارف بسيطة  
دعاني الناس « افريقيا المظلمة »

« أفريقيا المظلمة » ؟

أنا التي رفعت الأهرام الملكية  
وأمسكت في إنسار سحرها  
مصائر القياصرة الفاتحين ؟



« افريقيا المظلمة » ؟

أنا التي هزّت سرير طفولة  
الحضارة المتعثرة

على ضفاف النيل الشاردة ، النيل واهب الحياة  
وقدمت لجمهرة الأمم في الغرب  
هدية يونانية !

إن بريق الحديد والفولاذ المبهر  
قد يحجب أحياناً القيم اللامادية ،  
وحينما ازدرت قوسي وسهامي العتيقة  
غير آبهة بالحديد والفولاذ  
سموني « المظلمة » في العالم كافة .

ولكنّ مايسموثمناً على الفولاذ البارد والحديد  
هو فنّ الهدوء والطمأنينة  
في التفكير المشترك  
والعيش المشترك !

اني اعرف عالماً  
عالمًا ديس بالأقدم  
محطّم العظام مرتهاً  
عبر القرون الطامعة  
وهو بعد لم ينجز  
إنه افريقيا



<http://Archivebeta.Sakhril.com>

العالم الذي يولد  
ويستفيق الآن  
من غفوة طويلة طويلة  
يفور بالقوة

التي تلي الراحة  
هو افريقيا

اني اعشق عالماً  
عالمًا لا يقدر بثمن  
والموطن العذب للأنغام

■ ترجمة : بشار بشار ■

التي تأسر النفس  
ولأصوات الطبول الحادة كالحراب  
إنه افريقيا

سوف أموت في سبيل عالم  
عالم رائع  
وليس من أرض  
في الشرق أو الغرب  
تجتذبني بقدر مايفعل  
إنه افريقيا »



الشاعر : راي أونزا (جونيون)

عيوننا فظة  
تلك التي تقول لنا إن الناس بيض  
أو صفر أو سود  
وانهم أغنياء أو فقراء

في حين لا يبلغ الفؤاد  
سوى هذا السائل المنبعث من  
كل كائن بشري والذي يدعونه  
الحب  
حب الحقيقة

■ نفعات شعرية من أفريقيا ■

والجمال

والعدالة

والحرية

يعني حب القريب

والفرد في حد ذاته

والانسانية بعامة

لأنه الله

وبالتالي القانون

والخلق .



ليس ذلك اليوم بعيداً

ذاك الذي يبصر فيه قريبه

لأبعينه الفطنتين

بل بفؤاده الحساس

المستنير بضياء سلطان فكره الرائع

وإذ ذاك لن يبقى بيض

أو صفراً أو سود

لن يبقى فرنسيون

وسويسريون وألمان وأمريكيون

وعرب وروس ويابانيون

وانكليز وصينيون وفارسيون

وأفارقة  
بل بشر فحسب

ولن يبقى أغنياء أو فقراء  
بل كائنات مفكّرة تحرّرت من الفاقة

لن يبقى « متمدّنون » أو « متوحشون »  
بل اخوة كلهم متضامنون  
تتكامل انجازاتهم  
ويسهمون في رفاه الجميع

ولكن لا بدّ لذلك  
من القضاء قضاء مبرماً على آفتي  
الجهل والفقر

وأن لا نطلّ سعادة الفرد ملكاً له وحده  
بل سعادة الجميع ؛  
وأن يتمنّى كلّ لقريبه  
ما يرغبه لذاته على الأقلّ

ويعدما نتجاوز مرحلة التمنيات  
إلى مرحلة الانجازات  
ينبتق مجتمع جديد

يغذيه النسخ المنطلق من كل منا  
ويوفر لكل واحد وللجميع  
أساس السعادة التي يتوق إليها  
كل منا ،

يعني  
الحب والتعليم

أي الحرية

حرية حرية ياهواي

حرية يانفسي وياقلبي

حرية ياحياتي

حرية

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

لا في الاختيار المحدود

لحدود

ومعتقد

ولون بشرة

بل تأليف يوحد الكون بأسره

في كل لا ينفصل (\*)

---

(\*) - القصيدة طويلة ، وقد جرى الاكتفاء بهذا القسم .





### المنفي

لقد شئت يا اخي ان تعلم  
من أين أتيتُ  
انا المنفيُّ الكبير في هذا العصر  
انا من يحب العالم اجمع  
وحُب الوطن كامن في متاعي .



أنت تعلم بأني اتعثّر  
وان روحي ممزقة  
وقلبي جريح  
وأني ولدتُ مقصياً عن وطني  
ولدتُ في الصباح الباكر  
في أنأى مكان من غاب مضياف  
تظللني خيمة صُنعت من اديم مغزى .  
إن وطني يدعى فلسطين  
وسأعود اليه بحجرة الطواطم<sup>(١)</sup>  
كما ابني ثانية قريتي  
التي دكتها الصهيونية .



انا يا صديقي جندي فتي  
أبصر اموراً جمّة  
في لغة النار  
لذا ينبغي لنا أن نطلّ معاً  
في ملتقى نضالي الاسمى  
كما نحتمي وشيكاً  
بنصرنا النهائي ! .

---

(١) Totem حيوان يعتبر ذا صلة خاصة بفرد أو قبيلة فينخذ بذلك رمزاً .

قصيدتي المفضلة  
( الى فتاة فلسطينية )

سأنظم صباح الغد  
قصيدتي المفضلة  
وإني أبحث . . .  
أبحث عن حلقة رقصات المقاتلين  
أبحث عن ابتسامة فلسطين  
تنسم على شفتي حبيب قوي  
ولكنني منذ الآن اغرق الفكر فيها . . .  
حين أراني  
يوم ذكراك السنوية البهيجة  
ممثل الذراعين بأطواق الماسية  
أنشد لك على أوتار  
قيثارة مفتونة :  
« يا يوم الحرية ، يا يوم النصر  
يا يوماً فلسطينياً . . .  
يا يوماً أسمى  
يا يوم الشموس النقية »  
وأتابع قصيدتي  
على إيقاع نضالك المشروع  
كبحر تحفقي حلمك القديم  
تحت قوس نصر القارات كلها ! . .

### فلسطين المجيدة

مَنْ يهزج بالغناء في وجودي  
في زمن النضال الأسمى هذا  
إن لم تكن فلسطين المجيدة  
فتنبسط الاغنية في روحي  
حتى غروب الهذيان .



إن فلسطين الشاحخة في اللهب  
العنيدة في الكفاح  
تُلصق بأفريقي  
أمل وطن أم يزحف به بركان  
دوّمهم أصليّة .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>



وإن الدم المراق على درب وحيد  
ليكشف لي عن امور  
عن ظلال تائهة فوق شاشة الازمان  
في هذه الدنيا . الدم المرتشف بمرارة  
في شرايين النصر .  
ماذا فعلتم بالأصباح العذراء .  
أصبح أطفال فلسطين  
أنتم يامن تصبّون

اطنأناً من الشقاء  
فوق قلبي وشمسها .



ويا أيها الشعب المقاتل  
إن اغنيتك في اللهب  
وإن مرقدك في اللحم المحترق  
لآلاف الشهداء  
المتساقطين من أجل شواطئك .



فأثبتت لبنيك  
أن الحب في درب الشرف  
تَبْضُ امرأةٌ وقيةٌ  
في سَمْتِ غضبك العتي .



وعلى كنوزك الوافرة  
التي هي أرضك ورجالها  
أفْضُ بأغانيك الحلوة  
كيما يهلك إلى الأبد  
الجفاف فوق شفتي حياتك ،  
أنت يا من يقاوم  
سنايك خيول القراصنة  
أنقذني من هذه اللغة اللاهبة

التي ستجعل مني  
توأم الوليد من دمك المراق .



وافلسطين الترمّلات التي لا عِداد لها  
فلسطين التي تغطّيها الجراح  
هلاً أرهفتِ سمعك الى هذه الصرخة العميقة  
المنبعثة من شاعرك ، وحارس سلامك ؟



إنه ليلتمس أن تغدو إرادة تحريرك  
باباً مُشرعاً على مشرق  
رُبي أطيّار ومباءات نحل ،  
وأن تجعلي من أنسياب دمك  
لهباً قوياً لمقاتليكَ  
في أتون هاجرة الشمس ،



إنه ليلتمس أن تنصبي رادارتك<sup>(١)</sup>  
في خبايا حضورك  
وأن تفوهي في كل اللغات  
باسم قصيدة السلام الفرحة .

---

(٢) في الاصل : Radars وهي اجهزة تحدّد وجود الشيء وموقعه بواسطة اصدار

الموجات اللاسلكية .

مرة واحدة

مرة واحدة أطرح سؤالي على عروس شعري

كيما تفسر لي ظاهرة

مرة واحدة أضع بين يديها عصا

مجدوزة من كرمه محترقة .

حقاً إن لدي

قصة واحدة أسردها ،

باباً واحداً أفتحه

قصيدة طويلة أنشدتها - واحدة

وبلبلي ، ويوم واحد

لصبي واحد -

روح ممزقة واحدة

في سبيل حكم شيطاني - واحد



مرة واحدة

لصبي وحيد لا يظلمه سقف

مرة واحدة

ابتغى أن يعلن انتصار

الثورة الفلسطينية .

يقين

لأفنا عمل الفكر

في بشاعات هذا العالم المرم

المتكىء الى كتفي الواهنتين  
وقد علمتني اُمي  
أنني لكي أمضي نحو السعادة  
عليّ أن أهوى الأرض وبنيتها .



ألا إن السعادة تأتينا  
لألىء متعدّدة الألوان  
وعناقيد نقيّة  
على خط النضال نفسه  
تأتيك تباشير الضياء ثم يحلّ الليل  
وتعود البهجة التي تبدعها  
فتموت في ايديكم  
وتنقلب الابتسامة حيناً .



ألا إن بنيك يا فلسطين سيؤوبون اليك  
حاملين رسائل ودمى فضيّة اللون  
سيعودون اليك أيها الوطن البطولي  
أيها النجم السني لآلف وجه محفور  
وليتتصر الحبّ  
الذي وحّدهم حول صدرك .



ولدي !

مضى أبؤك خلف البحار  
فترجموا مفاهيم في جميع الرياح  
كيبا يمجّدوا هُويّة الوطن  
أما أنت : فلو عرفت ان تفكّر  
ما انسحقت بالمطر .  
لو عرفت أن ترصد .  
لاستطعت بأولدي  
أن تحظى بالترحيب بك كبطل .  
فاشحذ إذن اسلحتك المزدوجة  
واجعل من نفسك مقاتلاً عظيماً  
ثم سر مع عهود حياتك  
وحث خطاك كيما تعبّر المحيطات  
وتسحق الوحوش وشهواتها المتعدّدة الاشكال  
فستتبعك حقائقك  
ثم تقود خطاك ! .

أنتم

أنتم يامن تدركون  
أن خبز الحرية  
يحمل في مذاقه  
علّة حياة الوطن .



أنتم يامن تعلمون  
أن الصبي يظماً  
إلى عقود ياسمينه  
إلى الريح الاليفة  
كيما يُنهي مسيرته الطويلة  
نحو ألوان الشمس المتنوعة .



أنتم يامن كان في ميسورك  
أن تنقلوا في حقائب خزفية  
كامل العدالة الضرورية  
للإيدان بالفجر القريب .



<http://Archivebeta.Sak> أنتم يامن كان في مقدورك

رغم خدع الوحوش وأوهامها ،  
الوحوش التي لأرأس لها ولا ذنب  
أن توقّعوا على حقوق مولدكم .



أنتم يامن تدركون  
كما ندرك نحن بدورنا  
انه لن يكون ثمة سحره  
في ميلاد احلامكم



أنتم يامن القيتم

في آفاق اليقين الأربعة  
أياءاتكم الملوّنة بقوس الجَسَد

■  
أنتم يا من تعلمون  
أن جميع الغاصبين  
سيهلكون وشيكاً  
في آتون محظوراتكم

■  
انتم يا من اغتلتم  
جميع تجار الغش  
في سبيل حقوقكم الكاملة  
في ثوب من ضياء



■  
أترى اعوزكم السلاح  
كي تصرعوا به وحوش الشواطىء الصامنة  
أنتم يا من تمضون بسرعة العواصف  
تحملون حقائقكم للشموس الحقة ؟

المصدر :

Roger Goto Zomou :

(1) Poèmes Pour la sevolution Palestinienne — 1978

(2) Temoignages Eloquentes Poemes — 1978

( وقد نقلنا هاتين المجموعتين الشعريتين الى العربية )



## مختارات من شعر الرئيس

### ليوبولد سنغور

ترجمة د. جمال شحيد

ولد الرئيس والشاعر ليوبولد سيدار سنغور في مدينة « جوال » في السينغال عام ١٩٠٦ . وبدأ دراسته في داكارت ثم انتقل إلى باريس عام ١٩٢٨ لمتابعتها . والتقى في مدرسة لويس الكبير في باريس بصديق شبابه جورج بومبيدو ، وحصل عام ١٩٣٣ على التبريز في الأدب ، وكان أول أفريقي دخل التدريس الجامعي . وفي السنة نفسها التقى بالشاعر المارتينيكي ايميه سيزير فأسس مجلة صغيرة أطلقا عليها اسم « الطالب الأسود » طرحا فيها مقولة جديدة أسمياها « الزنوجة » ، وأخذت هذه المقولة فيما بعد أبعاداً سياسية وتاريخية وثقافية كبيرة ، وسرعان ما استقطب الرجلان كثيرين من المتحمسين أو الأعداء الحاقدين .

## الزوبعة

تقتلع الزوبعة كل شيء حولي  
تقتلع الزوبعة مني الأوراق وتافه الكلام .  
أعاصير من الجوى تزجر بصمت  
إلا أن السلام يخيم على العاصفة اليابسة  
وعلى فصل الأمطار الهارب !  
أيتها الريح المحتدمة ، ريح الفصل الجميل ،  
أنت احرقني كل زهرة وكل فكرة باطلة  
عندما تعود الرمال لتسقط على كثران القلب .  
أيتها الخادمة كفي عن حركتك المسرحية  
وأنتم أيها الأطفال كفوا عن العابكم وضحكائكم العاجية .  
وأنب فلتنحرق النار التي تثير ليلى كعمود وخصوصة ،  
فلتنحرق صوتك وجسمك ، ولتجفف عطر شهوتك .  
أيها الروح إشعل شفتي الداميتين  
وانفضح على أوتار الكورا التي لي<sup>(١)</sup>  
وليرتفع نشيدي طاهراً كإبريز غلام .

من ديوانه : أغاني الظل (١٩٤٥)

---

(١) الكورا : آلة موسيقية أفريقية تتراوح أوتارها بين ١٦ و ٣٢ وترأ . وهي الآلة المفضلة لدى شعراء الملاحم والمطلولات .

## دعاء للأقنعة

أيتها الأقنعة ! أيتها الأقنعة !  
القناع الأسود والقناع الأحمر ، وأنت أيتها الأقنعة المبرقة  
الأقنعة المنتشرة في الجهات الأربع حيث ينفخ الروح  
أحييك في صمت !  
ولست الأخير أنت ، قناع الأجداد برأس أسد ،  
انك تحرسين هذا المكان الساقط وتمنعين كل ضحكة امرأة  
وكل ابتسامة ذابلة  
انك تقطرين هواء الخلود هذا حيث أستنشق هواء أجدادي .  
أيتها الأقنعة ذات الوجوه الصافية ، الخالية من كل غمّازة أو  
تغصن ،  
أنت التي شكّلت هذه اللوحة ، هذا الوجه وجهي  
المنحني على مذبح الورق الأبيض ،  
على صورتك ، أصيخي إلي !  
هاهي أفريقيا ، الممالك تموت - هي حشرة  
أميرة تدعو للشفقة -  
وكذلك أوروبا التي يربطنا بها الحبل السري .  
أيتها الأقنعة ، حدّقي بعيونك الجامدة على أولادك المأمورين  
الذين يهبون حياتهم كما يهب الفقير آخر ثوب له ،  
كي نجيب بأننا حاضرون لدى بعث العالم  
كما الخمر ضروري للدقيق الأبيض  
اذ من يعلم الايقاع لعالم آلي ومدافع ميت ؟

ومن يهتف بهزيع الفرح كي يوقظ الموتى واليتامى عند الفجر ؟  
قولي ، من يعيد ذاكرة الحياة لامرءٍ تمزقت آماله ؟  
يقولون إننا رجال القطن والقهوة والزيت  
يقولون إننا رجال الموت .  
إننا رجال الرقص الذين تشتد أقدامهم عندما تحبط أديم  
الأرض القاسي .  
( أغاني الظل )

## آن وقت الرحيل

آن وقت الرحيل ، فلن أضرب من بعد جذوري العميقة في  
هذه الأرض اللزجة الرخوة  
<http://Archivebeta.Sakhr>  
أسمع نقر السرفات يفرغن ساقبي من شبابها  
آن وقت الرحيل ومجاهاة المحطات والرياح العاصفة التي تصفع  
أرصفت المحطات المفتوحة في المدن الريفية .  
قلق الرحيل دون يد ساخنة في يدك .  
إنني ظمئ للفضاء الفسيح والمياه الجديدة ، لأعب من جرة  
وجهٍ جديد تحت الشمس  
دون أن تفصلني عنها غرف الفنادق أو الوحدة المدوية في المدن  
الكبرى .

هل هو الربيع - السفر ! - ذلك العرق الليلي الأول واليقظة من  
السكر . . . والانتظار . . . ؟

أسمع أينها الفتاة الهوائية - ونحننا مجموعة العجلات على  
السكة - أسمع هتاف البوق الطويل يسائل السماء .  
أو لعلّه صهيل دمي المتذكر  
كمهر جمحت ورفست في فجر آذار القصصي ؟  
آن وقت الرحيل .

هاهي رسالتك

هل كانت عينك المفتوحتان تسبقانك إلى عيد الربيع ؟  
انك ما زلت تشبهين فتاة الأمس تماماً ، بطلعتك السوداء  
ورأسك الزنجي المشتعل كقمة جبل الأستيريل<sup>(١)</sup>  
تفرقت صوابعاتك ، كأيام الشتاء البيضاء أو كحمايم فرّت من  
سهام إحدى الألحان  
وعرفت يدي يدك وساقني ساقك ، ووجدنا الايقاع الأول  
ورحلت . إذ قد آن وقت الرحيل .

## تياروي

أيها الأسرى الزوج ، أريد أن أقول أيها الأسرى الفرنسيون ، أحقاً  
أن فرنسا لم تعد فرنسا ؟  
أحقاً أن العدو قد سلبها وجهها ؟  
أحقاً أن حقد الأثرياء قد اشترى سواعد فولاذية ؟

---

(١) - أكمة في مقاطعة البر وفانس في فرنسا .



ألم يطهر دمكم الأمة التي نسيت رسالتها بالأمس ؟  
قولوا لي : ألم يمتزج دمكم بدم شهدائها الطاهر ؟  
أستكون جنازتكم مثل جنازات العذراء / الرجاء ؟

دم ، دم ، أيها الدم الزنجي دم اخوتي ، إنك تلتطخ طهر  
أحرمتي  
إنك العرق الذي يتصبب فيه قلقي ، إنك الألم الذي يُبَح  
صوتي  
ووي ! إسمعي صوتي الأعمى يا أرواح الليل الصماء  
الخرساء .  
مطر من الدم القاني الكثيف ! وقلبي يتهلل للساء وللرحمة .  
أيها الأموات انكم لم تموتوا عبثاً ! إن هذا الدم ليس ماء فاترة .  
إنه يروي أملنا بغزارة وسيزهر في الغسق .  
إنه ظمأنا وجوعنا الفروسيان ، هذان الملكان المطلقان  
كلأ ، لم تموتوا عبثاً ، انكم شهود أفريقيا الخالدة  
انكم شهود العالم الجديد الذي يبدأ غداً .  
أرقدوا أيها الأموات ، وليهددكم صوتي ، صوتي الغاضب  
الذي يؤرجحه الأمل ،

( من ديوانه : قرايين سوداء ، ١٩٤٨ )

## أناشيد من أجل سينياري

### ( مع القيثارة )

يد من نور دغدغت جفنيّ الليليتين  
وارتفعت بسمتك في الضباب السائح الرتيب على بلاد الكونغو  
وتواكب قلبي مع النشيد العذري لطيور الفجر  
كذا دمي المتناغم قديماً مع النشيد الأبيض للنسغ في أغصان  
الأذرع .

هاهي زهرة الدغل ، ها هي النجمة في شعري والربطة المحيطة  
بجبهة الراعي الصنديد .  
سأستعير القيثارة التي تعطي أيقاع السلام للقطعان  
وطيلة النهار تراني جالساً في ظل أهدابك قرب منهل « فيملا »  
وفياً ، أرعى الحوار الأشقر لقطعانك .  
إذ إنّ يدأ من نور هذا الصباح دغدغت جفنيّ الليليتين  
وطيلة النهار واكب قلبي نشيد الطيور العذري .

### ( مع الخلام<sup>(١)</sup> )

لقد أبقيت طويلاً بين يديك الوجه الأسود للمحارب  
كما لو كان غسق قدري قد أناره .  
من الأكمة رأيت الشمس تغيب في خلجان عينيك .

(١) - الخلام آلة موسيقية إفريقية تشبه قيثارة بأربعة أوتار .

منى أرى وطني والأفق الصافي لوجهك ؟  
 متى أجلس من جديد خلف طاولة هتك الذاكرة ؟  
 وفي الغيش يحشم عشب كلامك العذب .  
 سأرى سجاوات أخرى وأعينا ثانية  
 سأشرب من منهل أفواه أخرى أرطب من الليمون  
 سأنام تحت سقف صفائر أخرى بعيدا عن العواصف .  
 ولكنني كل سنة ، عندما يقدح « روم » الربيع زناد الذاكرة  
 سأتحسر على مسقط رأسي وعلى مطر عينيك فوق ظمأ  
 البوادي .

### ( مع الخلام )

لقد اصطليحتك إلى قرية الأهرامات ، إلى أبواب الليل  
 وكنت دون كلام أمام لغز ابتسامتك الذهبي .  
 غسق وجيز سقط على وجهك ، نزوة أهية .  
 من علياء الأكمة معقل النور ، لقد رايت بريق تنورتك ينوس  
 وشعرك المعقوص كان كشمس تغوص في ظلال مزارع الأرز ،  
 عندها حاصرني أهواجس والمخاوف القديمة الخائنة أكثر من  
 الفهود

- إن العقل لا يستطيع أن يقصصها أبعد من الافاق النهارية .  
 هل عمّ الليل إلى الأبد ؟ أه من الرحيل دون وداع !  
 سأبكي في الظلام ، في باطن الأرض الأمومي  
 سأرقد في صمت دموعي  
 إلى أن تلامس جبهي فجر فمك الأبيض .

## ( مع فيثارتين )

لقد غزلتُ لكِ أغنية لطيفة كهمس حمامة في الظهيرة  
وكان خلامي بأوتاره الأربعة يصاحبي بهدوء  
ونسجتُ لكِ أغنية ، إلا أنك لم تستمعي إليّ ،  
لقد وهبتك أزهاراً برية ذات عطر سري كعيون الساحر  
وكان بريقها ساطعاً كالغسق في « سانغومار » .  
لقد وهبتك أزهارى البرية ، فهلاً تركتها تذبذب  
أنت التي تروحين النفس بالعباب البشر ؟

( مع كلارنيت وبلافونج )

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

هلا يغني العشاق في نور المستقبل الشفاف ؟  
هلا يتغنون على أنغام الكلارينيت بالوصال الليلي كعشاق  
الأمس ؟  
أين أنا من رصاب الأفواه الجميل ومن الغصن الذابل ؟  
يا أمطاراً خضراء !  
وإذا لم يبعث المسيح في الربيع الأبيض ؟ إنني أكره رقصات  
المبتدئين ،  
وإذا لم أخطفك على جوادي البربري ، ممسكاً بنشوتك فوق  
قلبي

بين الصرخات وطلقات الدم وصفير المدى الكياسة ؟  
سأقطع صلات القري كلها ، سأقيم حرساً للحب

من أجل ليلة لاتنتهي . حيمي صوتك أكثر من العش الدافئ  
وشفتاك الرقيقتان تهدئان صدري الصافر كأفمى سوداء .  
سأقطع كل علاقتي الأوروبية لانسج قصيدة على ساق  
الرمال ،

لايحني ذلك الاسم الذي يغني على باب المذبح  
ستخلو الجنة لدي فيكون غيابك دينونة للعاشق .

( من ديوانه : ليليات ، ١٩٦١ )

### غزلية المياه

أيها الصيف أنت أنت يا صيف ، يا صيف ملكوت الطفولة  
عذن الصباحات المغموسة بالشفق وروعة الظهيرات ، تلك  
الصباحات الهادئة كتحويلة النسر .

يا صيف صمتنا اليوم المثقل بالغضب تحت نظر الإله الغيور  
تراك جزء من قدرنا المحفور بقسوة على برنامج العصر  
تسقط المدن المتباهية وتثن تحت سماء لا رجاء منها  
تخترقها سموم الصواعق ، وتفقد الأنهر منبعها وسيلها .  
ويغيب كوب النبيذ المتعب ! ويغيب قدح الماء في المشارف

المشعة

حيث وحدها الماء تروي أي ظمأ للبراءة !  
النار ! النار ! الجدران الملتهبة في شيكاغو ، النار ! النار !  
الجدران الملتهبة في عمورة

نار على موسكو . والله واحد للشعوب الملحدة التي لا تجتر  
الكلام المقدس .

- أيها الثلج ، من الأسكيمو وسلواهم ، إنك الأيدي الغضة  
الحافظة على جبين الغابات العذراء .

واستلقى الغرب والشرق والشعوب القصية على الرمال ، إنها  
مقدمات السفن الحجرية التي سحقها البطل الصنديد .

هوذا فرعون مصر تسحقه لحية موسى وعصاه .

يا إلهي ارحم الصالحين العشرة ، وارحم الصين التي صليت من  
أجلها كثيراً في طفولتي

إرحم نفسك يا من جعلت الكلمة تزهر ، وزينت بالفلاند  
وصول أيار كما يزين الجيد الكريم

ARCHIVE

http://archivebeta.sakhr.org

يامياه اليوم الثالث أناديك  
يامياه الينابيع الصامتة ، يامياه العلى الصافية ، يا ثلجاً !  
يامياه السيول والشلالات

يامياه صالحة ، ولكن أنت يامياه الرحمة أناديك بصراخ متقطع  
صادق

يامياه الأنهار العظيمة والبحر الأوسع والبحر الأزهى  
وأنتم أيها الفرقدان يا من تديران المياه بحركة متعكسة تختلط  
فيها الوحدة

أرني لحالك يامياه مقدسة للتفكير  
فليتحلل القمر من نقيضه ، وليخلف الموت الحياة ، كهامة  
الفجر وكذا الشمس كمختون ينبعث منه الذكر عندما يسدل الليل !

وأنت يامياه نجسه تصبو إلى التطهر حسب عبارتي

- إن القصيدة تجعل كل شيء موزون شقافاً .  
يا مياهاً وبيلة وأسنة ، يامياه العواصم المحملة بالآلام والأفراح  
والآمال والأحلام والمؤذنة .

أيتها المياه اجري اجري وصبي وصبي في البحر .  
فكل مياه مهدورة وكل مياه نادمة تغسل الملح .  
ياإلهي صنعت مني سيد الكلمة  
أنا ابن الجابي الذي وُلد رمادياً هزيراً  
وسمّني أمي المتهور ، لأنني كنت أغيض جمال اليوم .  
لقد منحتني بعدلك غير المتساوي قوة الكلمة  
ياإلهي أصخ إلى صوتي : فلتمطر ! وأمطرت  
وفتحت بذراعك الصاعقة شلالات الغفران  
إنها تمطر على نيويورك ، على أندنيغولور ، على انديالاخار  
إنها تمطر على موسكو ، على بومبيدو ، على باريس وضواحيها  
على مالبورن ومسينا ومورزين  
إنها تمطر على الهند والصين - أربع مئة صيني غرقوا وأنقذ  
مليونان ، منهم الصالح ومنهم الطالح  
فلتمطر على الصحراء الكبرى وعلى ميدل ويست ، وعلى  
القبافي وأراضي القمح والأرز  
على رؤوس القصب والزغب  
ولتنبعث الحياة بلون الحضور .

( ديوان غزاليات )

Leopold Sedar Sengor : Poemes .  
Paris , Seuil , 1973 . (Colletion Points )



الشاعر : برنارد داديه ( Bernard Dadie )  
كاتب وشاعر افريقي من ساحل العاج . وُلِدَ  
عام ١٩١٦ وتلقى الدروس الابتدائية العليا . وبعد  
سنوات قضائها في التعليم ، عمل طويلاً في المعهد  
الفرنسي لافريقيا السوداء ( في دكار ، السينغال ) . كتب  
الكثير من النصوص المسرحية والقصائد والروايات . وقد  
اشتهر بروايتين هما : الدثار الأفريقي : ( ١٩٥٥ ) Le  
fagne nors ، وطواف الأيام La sande les Jouss  
( ١٩٥٦ ) . وقد انتقينا من شعره القصيدة التالية :



## اشكرك يا إلهي . . .

- أحمدك يا إلهي واشكرك ،  
 زنجياً أسود خلقني  
 وجملة من كل الآلام كونتي  
 وعلى هامتي شيلت العالم  
 فها أنذا أرتدي جلعة « الستور » ،  
 ومنذ الصباح الأول  
 أحملُ العالم وأتحمل .



- لون مناسبة هو الأبيض ،  
 ولون كل يوم هو الأسود  
 ومنذ المساء الأول  
 أحملُ العالم وأتحمل .

★ ★ ★

- مثلوج الصدر مسرور أنا  
 بشكل رأسي وهياته ،  
 حمل العالم قد كَوّن رأسي .

رضيُّ البال والقلب أنا  
بشكل أنفي وهياته  
إذ ينبغي لأنفي أن يتسم  
كل رياح العالم .

★ ★ ★

- بهج النفس مغتبط أنا  
بشكل ساقبي وهيتها ،  
إذ تنأهبان للعدو

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

★ ★ ★

- أحمدك يا إلهي وأشكرك ،  
زنجياً أسود خلقتني  
وجملة من كل الآلام كونتني .

★ ★ ★

- ستة وثلاثون سيفاً  
قد اخترقت قلبي

سَتْ وثلاثون جذوة  
قد أحرقت بدني  
وعلى كل جلجلة أهرق دمي  
فتخضبت به الثلوج .  
وعلى كل المشارق  
ضُرِجت دمائي الطبيعة .

★ ★ ★

- وعلى ذلك مسرور أنا  
إذ أحمل العالم برمته .  
مسرور أنا بذراعي القصيرتين  
وبذراعي الطويلتين  
وبشفتي الهدلاوين .

★ ★ ★

- أحمدك يا إلهي واشكرك ،  
زنجياً أسود خلقتني .  
لونٌ مناسبة هو الأبيض  
ولون كل يوم هو الأسود .  
أحمل العالم برمته  
منذ فجر الأزمنة ،

وعلى العالم نعلو ضحكتي  
فتخلق النهار في الليالي .

★ ★ ★

- أحمذك يا إلهي وأشكرك  
زنجياً أسود خلقتني . . .

—

الشاعر : ديودونيه كاديما نزويي ( Dieudonne Kadima - Nzuzi ) ولد عام ١٩٤٧ في مدينة بانزيفيل الكونغولية - الزائير ، حالياً - وكان أحد الشعراء الشباب الذين نزلوا الى مسابقة أدبية أقيمت في العاصمة كينشاسا (١٩٦٩) تحت رعاية وتحكيم الرئيس السينغالي السابق ليوبولد سيدار سينغور ، وهو من اعلام الأدب والشعر والسياسة في افريقيا السوداء . والقصيدة التالية فاتحة المجموعة الشعرية التي تقدم بها هذا الشاعر الشاب إلى هذه المسابقة ففاز فيها بالجائزة الثالثة .

### مقدمة

- أمي ، أيتها المرأة العظيمة  
أيتها المرأة الوسيمة ،

أودُّ أن أشاهد محياك الرمادي  
يتألق في غدير مقلتي الساطع .  
أودُّ أن أشاهد وأعاود ،  
في بؤبؤيك القائمين ،  
توهجُ الشعلة الزرقاء ،  
شعلة العطف والحنان  
تدقُّ صدري المقرور .

★ ★ ★

- أيها القناع ، أيها الضوء الطرقي الخافت  
عند نياشير الفجر  
يا جمال ماوراء هذي الحياة  
لا يتبدّل ولا يتحول  
أيها الجمال الثابت في جموده  
يا تمثال السلف الشعائري  
يقيم في البخور الهروب من كوخنا الدخين  
أحيي فيك نيل الضياء سكبته بين جفني  
أحيي فيك صرخات الحب الخالصة  
تجتاز سماء صداقتي 'ومودتي  
كومض البرق الخاطف

★ ★ ★

- أمي ، أيتها المرأة العظيمة  
أيتها المرأة الوسيمة  
من قدك الفارع المشوق  
طلما هُمت على وجهي في المفازة العاربة  
وطالما تهت في صفائرك السحرية  
عارشات الحياة  
أنوه فيها فينة بعد فينة .  
وطالما شعرت بنهر دمك الدامس كالليل  
يهدر في أعماق ذاتي .



- لقد شعرت بقصائد وفيرة الألوان  
تندفق في عروقي المشدودة ،  
قصائد ارفعها اليك واهديها  
في عزلي الباردة كالمنية  
انت يا أمي ، أيتها المرأة العظيمة  
أيتها المرأة الوسيمة

★ ★ ★

- لكم أستحمت في عطفك وعذوبتك ،  
وفي جوف راحتك رويت عطشي

من راح الحياة ونبیذها :  
ولكم غسلت جبهتي  
أناشيد شغيتك العذبين .

★ ★ ★

- أمي ، أيتها المرأة العظيمة  
أيتها المرأة الوسيمة  
إليك أنفاس قلبي المتداعية  
إليك قصائدي  
صرخات دم ابنك الشهيد  
فريسة الكرب والجوع الشديد .



<http://Archivebeta.Sakhril.com>

★ ★ ★



كان متكئاً على باب الكوخ . رأى أباه ، الذي كان عجوزاً  
ناحلاً ولكنه نشيط ، مقبلاً من شارع القرية ، وعلى جانبه يتدلى  
كيس وسخ نوعاً ما ، ومصنوع من خيوط ( الكاليكو ) المتينة .  
وكان أبوه يحمل هذا الكيس دائماً . وكان جون يعرف ماذا في  
الكيس : التوراة ، وكتاب صلوات ، وربما دفتر وقلم . كان أبوه  
واعظاً . وكان جون يتساءل دائماً ما إذا كان أبوه هو الذي جعل أمه  
تكف عن رواية الحكايات له بعد أن أصبح من رجال الله ، إذ أن  
أمه توقفت عن سرد الحكايات له منذ مدة طويلة . وكانت تقول  
له : « الآن ، كف عن طلب مزيد من القصص . فقد يأتي



أبوك . وهكذا كان يخاف أباه . . . ودخل جون الدار ونبه أمه  
بقدم والده . ويعدها دخل والده . ووقف جون جانباً ثم مشى  
بانجاه الباب ، وتمهل قليلاً ، والشكوك تساوره ، ثم هم  
بالخروج :

- ياجون ، ياجون .

- بابا

- ارجع

ووقف ، يساوره الشك ، أمام والده . ووجب قلبه بسرعة متزايدة وأطل  
من داخله سؤال مفاده :

هل هو يعلم ؟

- اجلس . . أين أنت ذاهب ؟

أجاب جون بمراوغة :

- للتنزه يا أبي .

- إلى القرية ؟

- حسناً ، نعم . أعني لا اقصد مكاناً معيناً على وجه التحديد .

ولاحظ جون أن أباه يحدّق فيه تحديقاً قاسياً كما لو كان يقرأ وجهه . وتنهّد  
جون تنهّداً خفيفاً جداً . ولم ترقه طريقة أبيه في النظر إليه . إذ كان أبوه ينظر إليه  
دائماً كما لو أنه خاطئ ، وينبغي أن يكون تحت المراقبة على الدوام . وقال في  
قلبه « نعم أنا خاطئ » . ويسبب شعوره بالذنب لم يواجه نظرة أبيه بل تجاوزها  
بنظرة استغاثة إلى أمه التي كانت تفسّر البطاطا . ولكنها بدت مذهولة عن كل  
شيء من حولها .

قال أبوه :

- لماذا تهرب ببصرك ؟ ماذا ارتكبت ؟

وانكمش جون على نفسه من الخوف . ولكن وجهه ظلّ بلا تعبير ، وكان في مقدوره أن يسمع خفقان قلبه المشتدّ ، الذي كان يشبه صوت مضخة تضخ الماء . وشعر أن أباه لابدّ يعرف كل شيء عن الأمر . وفكّر :  
« لماذا يعذبني ؟ لماذا لا يقول على الفور أنه يعرف ؟ »

ولكن صوتاً آخر قال له :

« لا إنه لا يعرف ، ولو أنه عرف لانقضّ في الحال عليك . »

وأعطاه هذا الصوت بعض السلوى . وجابه أباه الجاد بشجاعة .

وقال الأب :

- متى تكون الرحلة ؟

ومرة ثانية فكر جون : « لماذا يسأل ؟ سبق أن أخبرته بالأمر عدة مرات . »

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وقال :

- الأسبوع القادم ، يوم الثلاثاء .

- حسناً . غداً نذهب إلى السوق . أسمعني ؟

- نعم يا أبي .

- لك أن تنصرف .

- شكراً يا أبي .

- وشرع يتحرك .

- جون !

- نعم . وكاد قلب جون يتوقف عن الحركة .

- تبدو في عجلة من أمرك . لا أحبّ لك أن تتسكع في القرية . أعرف

الشباب . تذهب إلى هناك للاستعراض وإثارة الانتباه . لا أريد أن أسمع عن

أي شغب في القرية .

وخرج جون وقد ازداد ارتياحاً . وكان يستطيع أن يخمن ما الذي يعنيه أبوه بعدم رغبته في المشاغبة في القرية . وللمرة الأولى نطقت سوزان :  
- لماذا تضطهد الصبي إلى هذا الحد ؟

ومن الواضح أنها انصنت بانتباه إلى المسرحية كلها دون أن تنبس بيت شفة . وقد أن أوان تكلمها . ونظرت إلى واعظها العجوز الحشن الذي كان قرينها طوال حياتها . لقد تزوجته منذ زمن طويل جداً . وما كان باستطاعتها أن تتذكر عدد السنين . وكانا سعيدين . ثم اهتدى الرجل واصطيط كل شيء في المنزل بصبغة دينية ، حتى إنه متعها من الاستمرار في سرد الحكايات للطفل :  
- أخبر به عن يسوع . يسوع مات من أجلك ، من أجل الطفل . عليه أن يعرف الرب .

ولكن لم يخف عليها أبداً العذاب النفسي الذي كان يوقعه على الولد ( هكذا كانت دائماً تشير إلى جون ) ، ونسأ الولد وفي نفسه خوف أبدي من أبيه . وتساءلت دائماً : هل هو حب الرجل لابنه أم أنه نوع من الضغينة ، نعم ، ربما لأنهما الإثنان « فسقا » قبل الزواج ؟ وكان جون ثمرة هذا الفسق . ولكن هذا لم يكن خطأ جون . وإن الولد هو الذي يحق له أن يجار بالشكوى . وكانت تتساءل دائماً هل يفعل الولد ذلك ، ولكن لا . كان الطفل صغيراً جداً حينما غادروا ( فورت هول ) . . . ونظرت إلى زوجها . لقد ظل صامتاً ، وإن كانت يده اليسرى ، تعبيراً عن الضيق ، تتحسس وجهه .  
- كأنها هوليس ابنك . أم لعلك . . . !

- م م م ، يا أخت .

وكان في صوته توسل . كأنها كانت تبغي الدخول في مشادة ، ولم يكن كفتاً لها . الحق أن النساء لا يمكن أن يفهمن . النساء نساء ، سواء أكن نقيات

أم لا . ينبغي أن يعملن على حماية أولادهن من كل تأثيرات شريرة . يجب أن ينمو في ظل خطايا الرب . ونظر إليها وعلى وجهه بعض تقطية . لقد جعلته ينزل إلى الخصية ولكن ذلك حدث منذ زمن طويل . على أنه قد أناب . ولا ينبغي لجون أن يسلك الطريق نفسه .

- عليك أن تسمح لنا بالرحيل . تعلم أنني أستطيع أن أرحل ، أن أعود إلى فورت هول . وعندذاك كل امرئ . . . ولكنه قاطعها بقوله .

- انظري يا أخت . كان دائماً يدعوها « أخت » أخت في الرب . بالمعنى الكامل . ولكنه كان يسأل دائماً ما إذا كانت روحها قد خلصت . وكان يصلي بقلبه :

- يارب . كن مع أختنا سوزان .

وكان يكمل بصوت عال :

- تعلمين أنني أريد للولد أن يترعرع في رحاب الرب . - ولكنك تعذبه بذلك ، وتجعله يخافك .

- لماذا ؟ لا ينبغي له أن يخافني . ليس عندي ما أضمره ضده .

- أنت مسؤول . أنت . أنت كنت دائماً قاسياً عليه . ووقفت . . . وسقطت القشور من حضنها وتكومت على الأرض .

- ستانلي .

- يا أخت .

قافها وقد فوجئ ، بحدة صوته . فلم يرها قبل على هذه الشاكلة . يارب . انزع الشيطان من داخلها . خلصها في هذه الدقيقة . ولم نقل ما أردت أن نقوله . وصرف ستانلي بصره عنها . كانت تلك مفاجأة ، وبدا كما لو أنه يخشى زوجته . لو أخبرت أهل القرية بذلك لما صدقوك . وفتح توراته وأخذ يقرأ ، فلديه يوم الأحد موعظة لجمع من الإخوة والأخوات .

وعادت سوزان إلى الجلوس وشغلت بعملها . وكانت امرأة أقرب إلى الطول ، نحيلة ، وتدلل ملامحها على أنها كانت يوماً ما جميلة . وما كانت تعرف ما الذي يورق ابنها . هل هي الرحلة المقبلة ؟ ظلت دائماً تشفق عليه .

وفي الخارج كان جون يتسكع دون هدف في الممر الذي يؤدي إلى بيته . كان يقف إلى جانب شجرة قريبة من البيت ويرقب القرية كلها . وكانت تمتد أمام عينيه أكوام وصفوف من الأكواخ الطينية والعشبية وفي رؤوسها ما يشبه العصي المبربة كأنها تشير إلى السماء . وكان الدخان يتصاعد من الأكواخ المختلفة . وكان ذلك يعني أن نساء كثيرات قد عدن من ( الشامباس ) . وسرعان ما سوف يخيم الظلام . ومن ناحية الغرب كانت الشمس - تلك المسافرة الوحيدة طوال النهار - تسرع إلى بيتها خلف التلال الملقعة بالضباب . ومرة ثانية نظر جون إلى الصفوف المتكدسة من الأكواخ التي كانت تشكل قرية ( ماكينسو ) ، وهي إحدى ( مدن القطر ) الجديدة التي قامت في مختلف أرجاء البلاد على اثر نشوب حرب ( ماوماو ) . كانت قبيلة جداً . وأحسن بؤخر الألم في قلبه وبالرغبة في البكاء .

- أكرهك . أكرهك . لقد جنيت عليّ بمنحي الحياة . اغرب عني . لولاك ماحدث ذلك .

ولم يصرخ ولكنه كان يراقب . وكانت امرأة تتجه إلى حيث وقف . وكان هناك ممر مؤدي إلى القرية قريب منه . وكانت تحمل حملاً كبيراً من ( الكونو ) جعلها تنحني تحته كانهناء شجرة أكامبا . وحيته . .

- أنت بخير يا نجوني ( جون )

- لا بأس عليّ يا أم .

ولم يكشف صوته عن أية مرارة . وكان جون مهذباً بطبيعته . وكان كل

امرى، يعرف ذلك . وكان يختلف عن غيره من أبناء القرية المتعلمين المتكبرين ، أولئك الأبناء الذين أتوا من عند الطرف الآخر من المياه ومعهم زوجات بيض أوزنجيات يتكلمن الإنكليزية . وكنّ يتصرفن كالأوربيات تماماً . وكان جون محبوباً ، ونموذجاً للتواضع والكمال الخلقي . وكلهم كانوا يعلمون أن جون لا يمكن أن يخون قبيلته - على الرغم من أنه ابن قسيس .

واستمر في الحديث عن القرية ودورها .

- متى تذهب الى . . . ؟

- ماكري ؟

- ماكيليلي .

وضحكت ، إذ كانت طريقتها في لفظ الاسم مثيرة للضحك . وكذلك طريقة ضحكها . واشتمعت بذلك . ولكن جون أودى في نفسه ، إذن كلهم يعرفون الأمر .

- الأسبوع المقبل .

- اتمنى لك الخير .

- شكراً . يا أم .

ولفظت بهدوء ، كأنها تريد أن تحسن لفظ الاسم :

- ماكيليلي !

وعادت إلى الضحك من نفسها ولكنها شعرت بالتعب . وكان الحمل .

ثقيلاً .

- حافظ على نفسك يابني .

- رافقتك السلامة يا أم .

وتحسرت المرأة التي كانت واقفة طوال الوقت ، وهي تبتهج كحمار .

ولكنها بدت بوضوح مسرورة من لطف جون .

وظلّ جون يلاحقها بنظراته لمدة طويلة . كيف تعيش هذه المرأة كل يوم بيومه ، وتكدّ ، وتظنّ سعيدة ؟ أها ثقة كبرى بالحياة ؟ أم أنها تنقّ بالقبيلة ؟ إنها - ومثيلاتها من الذين لم يتصلوا بذروب الرجل الأبيض - تبدو كما لو أن لديها ماتعلق الأمل عليه . وإذا كان يتابعها بنظراته كان يشعر بالفخر لأن له رصيда طيباً لديهم ، ولأنهم يقدرونه تقديراً عالياً . ثم دقّ النذير . . . ( سيعرف أبي ، وسيعرفون ) . وما كان يدري أي الأمرين يخيفه أكثر : الإجراء الذي يتخذه والده حين يعلم بالأمر أم خسارة تلك الثقة الصغيرة التي غرسها في نفوس القرويين البسطاء حين يعلمون بالأمر . لقد خشي أن يجسر كل شيء .

وقصد بعد ذلك المقهى المحلي الصغير ، والتقى أناساً كثيرين غمّوا له التوفيق في حياته القادمة في الكلية . وكلهم كانوا يعرفون أن ابن القسّ قد ختم كل معرفة الرجل الأبيض في كينيا ، وأنه سوف يقصد أوغندا . وقد قرأوا ذلك في ( بارازا ) وهي جريدة أسبوعية سواحلية . ولم يمكث جون طويلاً في المقهى . كانت الشمس قد أفلت واستراحت وبدأ الظلام يخيم . وكانت وجبة العشاء جاهزة . وكان أبوه اللفظ ما زال يقرأ التوراة خلف الطاولة . ولم يرفع بصره حينها دخل جون . وساد سكون غريب في الكوخ وكانت أمه أول من خرق الصمت :

- تبدو غير سعيد .

وضحك جون . كانت ضحكته قصيرة متوترة . وأجابها بسرعة .

- لا يا أمي .

ونظر إلى والده . ورجا في سرّه ألا تكون ( واموهر ) قد وصلت .

- إذا ، أنا مسرور .

وما كانت تعرف . تناول عشاءه وخرج إلى كوخه . كوخ رجل . كان

لكل شاب كوخه . ولم يكن مسموحاً أبداً لجون أن يأتي بزاخرة إلى كوخه .

وكان « ستانلي » لا يريد أية « مشكلة » حتى إن وقوفه مع امرأة كان يُعدّ جريمة . كان والده قميئاً أن يقرّعه بسهولة . كان يخشى والده ولم يكن يدري سبب ذلك . وكان في مقدوره أن يثور كما يفعل كل الشباب المتعلمين . أوقد المصباح . وأخذ يديه . وتذبذب الضوء الأصفر بشدة وانطفأ . وعرف أن يديه ترتجفان . وأخذ معطفه بسرعة مع كوفية ضخمة كانت ملفاة على فرشته غير المرتبة . وترك المصباح مشتعل ليراه والده فيظن أنه في الكوخ . وعرض جون شفته السفلى غيظاً . ومقت نفسه لأنه كان أشبه بالبنات . وكان ذلك غير طبيعي لولد من عمره .

ومثل خيال ، استرق الخطى عبر الباحة وانتقل إلى شارع القرية .

وقابل شاباً وشابات يذرعون الشوارع . وكانوا يضحكون ويتحدثون ويتهايمسون . وكانت تبدو عليهم إمارات السرور وفكر جون . إنهم أحرار أكثر مني . وحسد انطلاقتهم . لقد خرجوا عن المقاييس الأخلاقية التي يحاول الآخرون فرضها على المتعلمين . وسأله : أكان يرغب أن يبادلهم الأدوار ؟ وأخيراً أتى إلى الكوخ الذي كان يقع في قلب القرية . كان يعرفه جيداً - وبالأسف . وكان حائراً ما الذي ينبغي أن يفعله . أيتنظرها في الخارج . ولكن ماذا لو أن أمها خرجت بدلاً منها ؟ وقرّر أن يدخل .

- هودي .

- ادخل نحن هنا .

ونزع جون قبعته قبل دخوله . ووجدهم جميعاً هناك ما عداها ماعدا التي أرادها . وكانت النار في الموقد خائبة . وكان هناك فقط قبس ضئيل من مصباح مشتعل يقيم الكوخ بشيء من الضوء الخافت . وبداله أن اللهب وظله العملاق على الجدار يسخران منه . ودعا ربه ألا يعرفه أبوا ( واماهو ) ،



وحاول أن يكون ( نحيلاً ) وأن يغير صوته عندما ألقى عليهم التحية . ولكنهم عرفوه وانشغلوا به . إذ ما كان ممكناً لهم أن يأخذوا مأخذ الاستخفاف زيارة من كان مثله ، متعلماً يعرف كل عالم الرجل الأبيض ومعرفته ، ويزمغ الرجل إلى بلد آخر غير بلده . ومن يعرف ؟ لعله كان مهتماً بابتهم . فقد حدثت دائماً أشياء أغرب من ذلك . وبعد ذلك لم يكن التعلم هو كل شيء . ومع أن ( واماهو ) غير متعلمة فلها فنتتها ، وهي جديرة أن تأمسر قلب أي شاب بنظراتها وابتساماتها .

- تفضل واجلس . خذ المقعد .

- لا .

ولاحظ بمرارة أنه لم يقل لها ( يأم ) .

- أين ( واماهو ) ؟

وألقت الأم نظرة متصورة على زوجها . وتبادلا نظرتي تعرف . وعرض جون شفته ثانية وشعر أنه يكاد ينفجر . وضبط نفسه بصعوبة .

- لقد خرجت لتجمع بعض أوراق الشاي . وسوف تعيد لك بعض

الشاي حين تعود .

ونتم بكلمات متلعثمة غير مسموعة :

- أخشى أن . . . .

ويخرج . . . وكاد أن يصطدم بواماهو التي كانت قادمة

وفي الكوخ تبادل الزوجان الحوار :

- ألم أقل لك ، ثق بنظرة المرأة .

- أنت لا تعرفين هؤلاء الشباب .

- ولكنك تعلم أن جون مختلف ، والجميع يتحدثون عنه ، وهو ابن

قَس .

- نعم ... م . م . م . ابن قس . أنسيت أن ابنتك مخنونة ؟

وكان الزوج العجوز يتذكر حياته الخاصة . فلقد انتقى لنفسه زوجة فاضلة طيبة ، ترعرعت على أساس قيم القبيلة . ولم تعرف أي رجل آخر . وتزوجها وعاشا سعيدين ، وفعل ذلك رجال آخرون من حيّه ، وكانت كل فتياتهم عذراوات . إذ كان محرماً على الشاب أن يلمس الفتاة قبل الزواج حتى لو نام معها في فراش واحد ، كما كان يحدث فعلاً مع كثير من الفتيان والفتيات . وبعد ذلك أتى الرجال البيض ، يبشرون بديانة غريبة ، وبطرق غريبة . وتقبل الناس ذلك . وتعظم معيار السلوك لدى القبيلة . ولم تستطع العقيدة الجديدة أن تبقي شمل القبيلة مجتمعاً . وأني لها ذلك ؟ فالرجال الذين اتبعوا الدين الجديد أوقفوا ختان الفتيات . ولم يسمحوا لابنائهم أن يتزوجوا المختونات ... نفو . انظري ماذا حدث بعد ذلك . ذهب شبابهم إلى بلاد الرجل الأبيض . وماذا جلسوا معهم ؟ النساء البيض . أونساء سوداوات يتكلمن الانكليزية . آه . ما أسوأ ذلك . والرجال الذين لم يسافروا كذلك لم يعبأوا بشيء . اتخذوا من الفتيات غير المتزوجات خليلات لهم ثم تركوهن مع أطفال لا آباء لهم .

وأجابت الزوجة .

- مالفرق ؟ أليست (وامامو) من أفضل الفتيات ؟ على أي حال جون

مختلف .

- مختلف ! مختلف ! نفو . كلهم سواء . وأولئك الملتصقون بالطلاء

الأبيض لأساليب الرجل الأبيض هم الأسوأ . ليس في داخلهم أي شيء . لاشيء . لاشيء هنا . وأخذ قطعة من الخشب وحرك بعصية النار الهامدة . وداخله خدر غريب . وارتجف ، وشعر بالخوف ، وأشفق على قبيلته . لأنه الآن رأى أن الذين تلفعوا بطلاء الرجل الأبيض لم يكونوا المتعلمين فقط بل

القرية بأسرها . وارتجف العجوز وبكى من الداخل ، حرقاً على القبيلة التي تقوّضت .

ولم يكن أمام القبيلة أي منفذ . وما كان لها أن تعود سيرتها الأولى .  
وتوقف عن تحريك النار وحدّق بقسوة في الأرض .  
- استغرب لماذا جاء . استغرب .

ثم نظر إلى زوجته وقال :

- أرايت أي سلوك غريب لدى ابنتك ؟

ولم تحب الزوجة . كانت مستغرقة في أمالها العراض الخاصة .

ومشى جون مع ( واما هو ) صامتاً . وكانت الشوارع والمنعطفات المتداخلة معروفة لها تماماً . ومشت ( واما هو ) بخطوات سريعة خفيفة . وأدرك جون أنها في حالة نفسية طيبة . وكانت خطواته ثقيلة ، وحاول تجنب الناس على الرغم من الظلام . ولكن لماذا يشعر بالعار ؟ كانت الفتاة جميلة ، وربما أجمل فتاة في كل منطقة ليمورو . ومع ذلك خشي أن يراه الناس معها . كان ذلك خطأ . وكان يعرف أنه كان في مقدوره أن يجيها ، بل عند ذاك أيضاً كان يتساءل ما إذا كان يجيها أم لا . ربما كان من الصعب أن يجيب ولكن لو أنه كان واحداً من أولئك الشبان الذين قابلهم لما كان تردّد في الجواب .

وقف خارج القرية . وفقت هي كذلك . ولم يكن أيّ منهما قد نبس بكلمة طوال الوقت . ربما كان الصمت يتكلم بصوت أعلى من الكلمات .  
المهم أن كلا منهما كان واعياً جداً لوجود الآخر .

- هل يعرفون ؟

وساد صمت . ربما كانت ( واما هو ) تقلب السؤال على وجوهه .

وتوسّل إليها :

- لا تتركيني انتظر . أجيبي من فضلك .

وشعر أنه منك . منك جداً . مثل رجل عجوز وصل فجأة إلى نقطة النهاية في رحلته .

- لا . طلبت مني أن أمهلك اسبوعاً آخر . انتهى الأسبوع اليوم .  
همس جون بخشونة :

- نعم . ومن أجل هذا جئت .

ولم تكلم واما هو . نظر إليها جون . وكان الظلام يفصلهما الآن .  
وما كان يستطيع رؤيتها فعلاً . وامامه كانت صورة والده - بكبريائه الدينية وتسلفه . وفكر ثانية : أنا ، جون ، ابن القس ، المحترم من قبل الجميع والذاهب إلى الكلية ، سوف أسقط ، أسقط على الأرض .  
ولم يرغب في التمتع بالسقطة . ووجد نفسه فجأة يتهمها :  
- كانت تلك غلطتك .

وكان في صميمه يعرف أنه يكذب .

- لماذا تستمر في مثل هذا القول ؟ ألا تريد أن تتزوجني ؟

وتنهذ جون . ولم يعرف ماذا يفعل . وتذكر قصة اعتادت أمه أن ترويها له .

. . مرة كانت هناك فتاة ليس لها منزل تأوي إليه . ولم يكن في مقدورها أن تتقدم إلى الأرض الجميلة وترى الأشياء الطيبة لأن ( إيريمو ) كان في الطريق .

- متى سوف تخبر بهم ؟

- الليلة .

وغمره اليأس . بعد اسبوع سيذهب إلى الكلية . لو أنه استطاع أن يقنعها أن تنتظر ، إذا تمكن من الإفلات ثم العودة بعد أن تنحسر العاصفة والنقمة . ولكن عندذاك ربما سحبت الحكومة منحة . كان خائفاً وتخللت صوته نبرة توصل حين التفت إليها قائلاً :

- انظري ياواماهو . منذ متى أنت حا . . . أعني على هذه الحال ؟  
- أخبرتك مرة بعد مرة أنني حامل منذ ثلاثة أشهر ، وتزداد يوماً ربية  
أمي . أمس فقط قالت إنني اتفلس مثل امرأة تحمل طفلاً .  
- أنظنين أنك تستطيعين الانتظار ثلاثة أسابيع أخرى ؟ ضحكت .  
آه . تلك الساحرة الصغيرة . عرفت حيلته ، ضحكها دائماً يثير في نفسه  
انفعالات عديدة .

قال :

طيب . أمهليتي إلى الغد فقط . سأجد حلاً . سأخبرك غداً بكل  
شيء .  
- أوافق . غداً . لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك إلا إذا كنت تنوي أن  
تتزوجني .

لم لا أتزوجها ؟ إنها جميلة . لم لا أتزوجها ؟ أليها أم لا ؟

وغادرت . وشعر جون أنها تستغله عن عمد . وارتحت ركبته وفقدنا  
القوة . وعجز عن الحركة وخرّ على الأرض متكوماً . وتصبب العرق بغزارة  
على خديه ، كما لو أنه كان يركض بشدة تحت شمس قوية . ولكن عرقه هذا  
كان بارداً . واستلقى على الحشيش ، وما كان يجب أن يفكر . آه . لن  
يستطيع أن يواجه أباه . أو أمه . أو المحترم كارستون الذي كان يثق به أشدّ  
الثقة . أدرك جون أنه - على الرغم من تعليمه - كانت يفتقر إلى الأمان مثل  
كل شخص آخر . وما كان يفضل واماهو بشيء . إذا لماذا لا تتزوجها ؟ لم  
يكن يعرف . كان جون قد ترعرع على يد أب كالفيني ودرس على يد معلم  
كالفيني - راهب . وجربّ جون أن يصلي . ولكن لمن كان يصلي ؟ لرب  
كارستون ؟ بداله ذلك زيفاً . وبداله أشبه بالتجديف على الإله . أكان  
يستطيع أن يصلي لرب القبيلة ؟ لقد سحقه الشعور بالإثم .

واستفاق . أين كان ؟ ثم فهم . كانت وإما هو قد تركته . اعطته يوماً واحداً . وقف . وشعر بأنه تحسن . وسار إلى البيت بخطا واثية . ومن حظه أن الظلام كان يخيم على الأرض كلها وعليه . وكان يتردد في اذنه صدى الضحك من الأكواخ المختلفة ، وصدى الأحاديث الساخنة والمشادات . وكانت تترأى له من خلال شقوق الأبواب ذبذبات النيران الحمراء . أين نجوم السماء ؟ سأل جون نفسه ؟ ونظر إلى الأعلى . كانت نجوم السماء باردة نائية ونظرت إليه نظرة غير ذات معنى شخصي . وكانت تسمع هنا وهناك أصوات مجموعات من الصبيان والبنات في ضحك أو صراخ . وبدأ أن حياتهم تسير كالعتاد . وعزى جون نفسه بالتفكير في أنهم أيضاً سوف يضطرون لمواجهة يوم تجربتهم .

كان جون حائراً . لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا لا يستطيع تحدي كل التوقعات ، وكل فرص المستقبل ويتزوج الفتاة ؟ لا . هذا مستحيل . كانت محتونة ، وكان يعرف أن زواجه بها لن يحظى بموافقة أبيه والكنيسة . ولم تكن متعلمة . ولم تتجاوز الصف الرابع بالأحرى . إن الزواج بها سيدمر كل فرصة يمكن أن تتاح له للذهاب إلى الجامعة .

حاول أن يتحرك بنشاط . عادت إليه قوته . . وانسرح فكره وخياله . حاول أن يفكر موقفه أمام عالم يشير إليه بإصبع الاتهام . وقد فعل ذلك سابقاً عدة مرات منذ أن عرف الأمر . وظل يتساءل ماذا كان في مقدوره أن يفعل . لقد أغرته الفتاة . كانت جذابة ، وكانت ابتسائها ساحرة . ولم يكن هناك من يباثلها بين فتيات القرية ، وكذلك لم تفقها أية واحدة منهم في مستوى التعليم . كان تعليم النساء ضعيفاً . وربما كان هذا هو السبب الذي حدا بالشبان الإفريقيين الذين يتعلمون في الخارج أن يحضروا معهم الزوجات . وكان هو نفسه يرغب في أن يذهب مع الآخرين ولا سيما مع المجموعة الأخيرة

الكبيرة من الطلبة الذين أموا أمريكا . آه . لو أن واماهو كانت متعلمة ، وغير مختونة ، ... لربما إذا كان أعلن ثورته .

كان الضوء مازال يلتمع في كوخ أمه . وتسائل ما إذا كان عليه أن يذهب للقيام بصلوات الليل . ولكنه نفى الفكرة . وربما لم تكن لديه الجرأة لمواجهة أبويه . وكان الضوء قد انطفأ في كوخه . وغنى لو أن والده لم يلاحظ ذلك .

نهض جون مبكراً . كان خائفاً . ولم يكن عادة ذا وساوس ، ومع ذلك لم يحب أحلام تلك الليلة . حلم بالختان على نحو ما كانت عادات القبيلة تفرضه . وأتى شخص ما - لم يتبين ملامحه - وأخذ بيده لأنه أشفق عليه . وذهبا ، ذهباً إلى أرض غريبة . وبطريقة ما وجد نفسه وحيداً . واختفى الشخص . وأتى شبح . وعرف فيه شبح البيت الذي تركه . وجرة الشبح إلى السوراء . وأتى شبح آخر هو شبح الأرض التي أتى إليها . وقاده من ناحيته ، وتنافس الشبحان . ثم أنت أشباح أخرى من جميع الجهات وجرته إلي جميع الجهات حتى أخذ جسمه يتساقط كسفاً . وكانت الأشباح هلامية ولم يكن في مقدوره أن يتشبث بأي منها . كانت كلها تتجاذبه وكان يتناهى إلى لاشيء . لاشيء . . . . . ووجد نفسه يقف بعيداً ولكن لم يكن ذاك نفسه . كان ينظر إلى الفتاة ، الفتاة في الحكاية . لم يكن لها مكان تذهب إليه . ولكن حين توجه إليها فقد طريقه . . . . . كان وحيداً تماماً . . . . . كان هناك شيء مدمر يتجه إليه ، يقترب ، يقترب . . . . . واستيقظ . كان غارقاً في عرقه .

الختان في الحلم لا يبشر بالخير . إنه نذير موت . . . . . أزاح وطأة الحلم بضحكة . وفتح النافذة ليرى أن المنطقة كلها مكسوة بالضباب . كان الطقس نموذجياً لليمورو . وكانت التلال والهضاب والوديان والسهول التي تحيط بالقرية قد ضاعت تحت غطاء الضباب . وبدا المكان غريباً جداً . ولكن

كان فيه شيء من فتنة السحر . كانت ليمور وأرض تباين ، وكانت تشير  
انفعالات مختلفة في أوقات مختلفة . وكان جون يفتن بالأرض ويمن إلى لمسها  
ومعانفتها أو إلى مجرد الاستلقاء على العشب . وفي أوقات أخرى كان يشعر أن  
كل شيء يصده : الغبار والشمس الحادة ، والطرق المليئة بالحفر . ولو أن  
كفاحه كان فقط ضد الغبار والضباب والشمس والمطر لقتنع بذلك ، قنع  
بالعيش هنا . على الأقل ربما شعر أنه لا يجب أن يموت ويدفن في أي مكان  
آخر سوى ليمورو . ولكن كان هناك العنصر الإنساني الذي تجسدت ردائله  
وخبائثات الناس بعضهم لبعض في القرية الجديدة القبيحة . وقفز إلى ذهنه  
حادث الليلة الماضية وطفئ ، وردّه إلى ضعفه السابق ، وانسلّ من تحت  
أغطيته ، وخرج من الكوخ . سيذهب اليوم إلى السوق . ولم يكن يشعر  
بالارتياح . كان يراوده شعور غريب بأن علاقته مع والده ربما كانت غير  
طبيعية . ولكنه أبعد الفكرة عن ذهنه . الليلة ستكون ساعة الحساب . وهزته  
رجفة بمجرد التفكير في ذلك . لسوء حظه أن هذا الجرح عكر حياته في وقت  
ينتهي فيه للذهاب إلى ماكيريري ، ويدونه كان يمكن أن تغدو علاقته مع والده  
أفضل من ذي قبل .

ذهباً إلى السوق . وطوال النهار كان جون هادئاً وهما يتنقلان من حانوت  
إلى حانوت يشتريان الأغراض من التجار الهنود الذين كانوا طوالاً ناحلين  
ولكن يقظين . وطوال النهار تساءل جون في نفسه لماذا يخاف أباه إلى هذا  
الحد . لقد نشأ على الخوف من أبيه والارتجاف كلما سمع منه كلاماً أو أمراً . ولم  
يكن جون وحيداً في ذلك . كان الجميع يخافون ستانلي .

كان يعظ بقوة عارمة كأنها تتحدى أبواب الجحيم ذاتها . وحتى في أوقات  
الاضطراب كان يستمر في الوعظ مؤبداً مقرأ ، أمراً . وكل أولئك الذين لم  
يلغوا الخلاص كان مصيرهم جهنم . وفوق ذلك كان ستانلي معروفاً



بملاحظات العظيمة المتشددة أخلاقياً - لعلها كانت مسرفة في التشدد وأقرب الى طبيعة التزمت . وما كان أحد يلاحظ ذلك ، ولا سيما من الرعية التي كان يرعاها . وحين كان رجل راشد يفرق القوانين كان يتعرض للزجر أو الحرمان . وكانت مجموعات الشبان والشابات ، ممن يأتون لكسب رضى الله والكنيسة ( وهما شيء واحد ) ، عرضة لايقاع عقوبة الحرمان ، وهكذا كان على الكثيرين من الشبان أن يخدموا سيدين في آن واحد ، فيسهرون عند خليلاتهم في الليل ويقصدون الكنيسة في النهار . وكان البديل الوحيد هو أن يتركوا الكنيسة نهائياً .

وكان موقف ستانلي أبويماً من جميع أهل القرية . فعلى المرء أن يكون صارماً بالنسبة لما يمتلكه . وبسبب ذلك أراد ليبنه أن يكون مثلاً طيباً للجميع ، وأراد لابنه أن ينشأ على الخلق القويم . ولكن الدوافع التي تحرك أعمال الانسان قد تكون مختلطة . فما كان في مقدوره أن ينسى أنه فسق قبل الزواج . وكان ستانلي أيضاً نتاجاً لما أصاب القبيلة من تمزق تحت تأثير الرياح الجديدة .

ولم تستغرق جولة الشراء وقتاً طويلاً . والتزم والده بها كان يسود بينهما من صمت ولم يشر الى الليلة السابقة لا بالتصريح ولا بالتميح . ووصلا الى البيت ، وكان جون يطمنن نفسه الى أن كل شيء على ما يرام ، وفجأة ناداه أبوه .

- جون .

- نعم يا أبي .

- لماذا لم تأت للصلاة في الليلة الماضية ؟

- نسيت . . .

- أين كنت ؟

لماذا تسألني ؟ أي حق لك في أن تعرف أين كنت ؟ يوماً مأسائور  
ضدك .

ولكن جون أدرك فوراً أن هذا العمل العصياني أبعد من طاقته - إلا إذا  
طراً طارئاً ما ودفعه إلى ذلك دفعاً . كان العصيان يحتاج إلى إنسان يمتلك  
مالاً يمتلكه جون .

- أعني .. أنا .. أنا كنت ...  
- عليك ألا تنام مبكراً قبل أن تتم صلواتك . تذكر أن تأتي هذه  
الليلة .

- سأفعل .  
شيء ما في صوت الصبي جعل الأب ينظر إليه . وانصرف جون .  
وحتى الآن كانت الأمور معقولة .  
حل المساء . ليس جون كالليلة الماضية ومشى بخطوات مترنحة نحو  
المكان المصيري . أنت ليلة الحساب . وما كان قد فكر بشيء . بعد هذه الليلة  
سيعرف الجميع . حتى المحترم كارستون سيعرف الأمر . وتذكر المحترم  
كارستون والكلمات الطيبة التي باركه بها في المرة الأخيرة . وما كان يجديه تذكر  
مثل هذه الأشياء ، ومع ذلك خطرت له الكلمات . كانت تبدو مكتوبة بوضوح  
في الهواء أمامه أو في القسم المظلم من عقله :

« أنت ذاهب إلى الدنيا . والدنيا تنتظر مثل أسد جائع لتبتلعك  
وتلتهمك . لذلك احذر الدنيا . قال يسوع : تمسك ب ... »  
وشعر جون بألم . ألم يخزه في لحمه وهو يتذكر تلك الكلمات . وأخذ يتأمل  
سقطته المقبلة . نعم ، إنه ، جون ، سوف يسقط من بوابات السماء منهجداً  
إلى بوابات الجحيم المفتوحة . آه . إنه يرى ماسيحدث ويعرف كل ماسيقوله  
الناس . سوف يجنبون صحبته وسوف ينظرون إليه شزراً ينظرات ذات معاني

عديدة . ومشكلة جون أن خياله ضخم سقطته من الأعالي إلى حدود تتجاوز كل معقول . وأدى الخوف من الناس ومن العقابيل إلى امتلاء تصورهِ للسقطة بالرعب القاتل .

واقترح جون لنفسه كل أنواع العقوبات . وحين خطر له أن يفكر في مخرج لم يفتق ذهنه إلا عن أساليب خيالية ومستحيلة . وعجز عن الاستقرار على رأي .

ولأنه عجز ، ولأنه كان يخشى أباه والناس ، ولأنه كان يجهل حقيقة موقفه من الفتاة ، أتى إلى البقعة المتفق عليها وليس لديه ما يقوله لها . وبدأ له كل ماسيفعله سيكون قاضياً عليه .

وفجأة قال لها :

- انظري ياواماهو . دعيني أمتحك نقوداً . ويمكن أن تقولي إن غيري هو المسؤول . هناك فتيات كثيرات فعلن ذلك . وعندئذ يمكن أن يتزوجك الشاب الذي تلصقن به التهمة . بالنسبة لي الأمر مستحيل ، وأنت تعرفين ذلك .

- كلا . لا أستطيع أن أفعلها . كيف تجرؤ على . . على . .

- أعطيك مئتي شلن .

- كلا .

- ثلاثمئة .

- كلا .

وكانت قد أخذت تبكي تقريباً . ألمها أن تراه هكذا .

- أربعمئة ، خمسمئة ، ستمئة ،

كان جون قد بدأ هادئاً ولكن صوته أخذ يتهدج تدريجياً وازداد تأثره .

وأخذ يغلب عليه اليأس . أكان يعرف عم يتحدث ؟ كان يتكلم بسرعة ،

ويلهث كأنها هوفي عجلة من أمره . وكان الرقم يرتفع بسرعة - تسعة آلاف ، عشرة آلاف ، عشرون ألفاً . . . .

إنه مجنون . إنه يزيد . ويسرعة أخذ يتحرك في الظلام باتجاه الفتاة . ووضع يديه على كتفها وتوسل إليها بصوت أجش . وفي أعماقه ، كان شيء مرعب يدفعه ، هو صدى الغضب المتوعد لوالده ولقرينه . إنه يمز واما هو بعنف ، في حين أن عقله يطمئنه إلى أنه يربت على كتفها بلطف . نعم ، فقد السيطرة على عقله . لقد ارتفع الرقم الآن إلى خمسين ألف شلن وأخذ يزداد . واما هو خائفة . تنتزع نفسها من بين يديه ، وتهرب من هذا المجنون ، من الابن المتعلم لرجل دين ورع .

يجري وراءها ويمسكها ، ويناديا بكل أنواع الكلمات العزيزة . ولكنه يهزها ، يهزها ، يهزها ، . . . ها . . . ها . . . وتنشأ عنها صرخة مرعبة ثم تسقط على الأرض . وهكذا فجأة ينتهي الصراع ، وتتوقف الأرقام ، ويقف جون مرتجفاً مثل ورقة شجرة في يوم عاصف .  
ما أسرع ما سيرف الناس أنه خلق ثم قتل .

### عنوان القصة :

A Meeting in the Dark

James Ngugi

### ملاحظة :

يعود الفضل في اختيار هذه القصة المثيرة إلى السيدة مجد موفق الشرع التي نشرنا لها ترجمات من إفريقية في هذا العدد .



تشينوا أتشيبي  
رواية للكثرة، ليس للعالم الصالحين

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

قد يكون تشينوا أتشيبي Chinuo Achebe روائي افريقيا  
الأول وإن لم يكن كذلك فهو ولا شك من أكثر كتابها شعبية ، ليس  
في القارة السوداء فقط بل في الأوساط الأدبية الأوروبية والأميركية  
أيضاً . وقد تكون روايته الأولى الأشياء تتداعى Things Fall Apart  
العمل الرئيسي الذي ساعد الكاتب النيجيري على انتزاع مكان  
الصدارة بين كتاب افريقيا الغربية بشكل خاص وكتاب افريقيا  
الأنغلو فونية بشكل عام . واستطاعت هذه الشعبية المتزايدة في  
أواخر السبعينات إلى سباح دولة عنصرية مثل افريقيا الجنوبية

١ - نشرتها لأول مرة دار وليام هاينان عام ١٩٥٨ ، كما نشرت لأول مرة في سلسلة  
الكتاب الأفارقة Africn Writers Series عام ١٩٦٢ .

بندريس هذه الرواية في مدازسها الثانوية برغم مناوئتها للدخيل الأوربي ( المتحضر ) الأبيض نشرت الأشياء تنداعي عام ١٩٥٨ أي قبل استقلال نيجيريا بعامين فقط . وأصبحت بعد الاستقلال إحدى المقررات الدراسية في الصفوف الاعدادية والثانوية لارتباطها بشعور الاعتزاز بالهوية الافريقية والماضي الأفريقي . ففي عام ١٩٦٥ وحده نفذت عشرون ألف نسخة من الرواية في نيجيريا وحدها وأعيد طبعها مرات عديدة<sup>(١)</sup> .

وبالرغم من كون هذه الرواية باكورة إنتاج أنثشي فإن شهرته الأدبية تركز عليها بشكل كبير بالرغم من توالي صدور روايات أخرى له لا تقل عنها قيمة من الناحية الأدبية على الأقل مثل No Longer at Ease كيف فُقدت السكينة (١٩٦٠) وسهم الله Arrowal God (١٩٦٤) ورجل من الشعب A Man of People (١٩٦٦) .  
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

لقد نالت الأشياء تنداعي إعجاب الناقد الغربي والافريقي على حد سواء ، فقد اعتبرها الغربي أول رواية كلاسيكية تنبع من افريقيا الاستوائية تعيد خلق الميثولوجيا السوداء ، آلهتها وأساطيرها وحكاياها ، لتغني عالماً بدأ يضيق بمعرفته للميثولوجيا البيضاء ، فقط ، لتعرف بوجود كان قد أنكر ، ولتحكي فاجعة حضارة لم يأبه لها .

أما القارئ والناقد الافريقي فقد وجد في الرواية رؤية تحليلية ولكن بكثير من الشاعرية والانسانية لحياته قبل الغزو

٢ - أعيدت طباعتها عام ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ (مرتین) ، ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ (مرتین) ، ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، (مرتین) ١٩٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٧ ،

الأبيض وللتحول الفكري والنفسي والمعيشي الذي نجم عنه التماس الأوروبي الأفريقي . لقد أصبح أنثيبي بفترة وجيزة من الزمن موسي مدرسة أدبية تخلصه بطمح العديد من الكتاب إلى مجارته وتقليده فقد استطاع أن يكون لنفسه جمهوراً من القراء المحليين ومن العبث بمكان أن يتهمه أحد في أنه يتوجه في كتاباته إلى القارئ الأجنبي وليس إلى المواطن الأفريقي ، الاتهام الذي اضطر أن يعايشه أنثيبي لفترة طويلة من الزمن . كما يمكن لأي باحث في الأدب الأفريقي أن يقتصر بكل سهولة الآثار الواضحة التي تركها الكاتب على العديد من المؤلفات الشابة الأفريقية كأعمال روبرت سيردماغا Robert Serumaga من أوغندا وجيمس نجوجي James Ngugi من كينيا ، وغيرهم كثير .

لقد عمل أنثيبي على الإشارة إلى أهمية الفرد الأفريقي في صنع تاريخ أفريقيا ومن ثم حاضرها ومستقبلها ، ويعودته إلى الوراثة زمنياً إلى فترة ما قبل الغزو الأبيض<sup>4</sup> ، أراد أن يذكر أبناء قارته بالكرامة التي اعتزوا بها يوماً وبضرورة استعادتها والمحافظة عليها . يقول أنثيبي « لو كنت أنا الله ذاته لاعتبرت أعظم خطايانا قبولنا ، لسبب أو لآخر فكرة التخلف العرقي . لن يفيد الآن أن ننفل ونلوم الآخرين ، بالرغم من أنهم يستحقون اللوم والإدانة . مانحتاج إليه هو أن ننظر إلى الوراثة ونكتشف أين بدأنا نخطف ، وفي أي زمان بدأ المطر يهزمنا . كما يؤكد في مقالة له « الكاتب كمعلم » على أن مهمة الكاتب الأفريقي تتلخص في مساعدة مجتمعه على استعادة إسهانه بنفسه والتخلص من كل العقد التي ولدتها سنين من الإهانة والذل والخنوع . وماكتابات أنثيبي ذاتها إلا محاولات ناجحة لإعادة خلق ديناميكية مجتمع حي .

نعم ، استطاع أنثيبي أن يعيد خلق عالم أفريقي بحث ، وأن يعيد هذا الخلق بنفس قوة وصلابة ووضوح رؤية الخالق ؛ لم يكن في كل هذا متفجعاً وإنها ارتبط بخلقه ارتباطاً عاطفياً جعل من الخلق وجوداً حيوياً حياً ينضج بالإنسانية . وما يحاول أنثيبي قوله بكل بساطة هو أن أوروبا لم تعرف أفريقيا على الحضارة بل أن تلك لها حضارة عريقة بها . لم يكن أمامه إلا أن يدير ظهره للاله الأبيض ويتوجه من جديد إلى آلهة أفريقيا السوداء يعيد الحوار الطويل الذي انقطع بينه وبينها ويعيد تغيير وبناء مانداعي من الأشياء . ان مايلمسه القارئ في هذه الرواية هو مفهوم الحضارة الذي يمتد بجذوره إلى الواقع والحقيقة ، الواقع الذي يضم عالماً ومجموعة من الأفراد تجمعها مبادئ واضحة ومعتقدات راسخة ، عالم متكامل غير أنه صغير . وهذا بالطبع عالم مثالي لأي مؤلف فهناك الشمولية وهناك المحدودية ، هناك الوضوح وهناك المجاز ، هناك إمكانية النجاح والتفوق كما في شخصية أوكونكو Okonko البطل الرئيسي للرواية وهناك الفشل الذريع كما في شخصيته والده أوكوي . لكل شيء في هذا العالم أهميته ، ليس فقط كل حدث وكل دافع ، وإنها كل فرد وكل شيء ، لكل شيء معنى لأن مايرتبط بنظام الوجود الروحي والأخلاقي يتدفق من خلال الوجود الفيزيولوجي . ولا يعترض هذا التدفق الوجودي أي شعور مغلق من الذاتية أو الفردية أو أي حجم يصعب احتراقه .

يطرح تشينوا أنثيبي في رواياته موضوعاً رئيسياً يدور حول النتائج المأساوية التي أسفر عنها التماس الأوروبي الأفريقي .  
ويعالج المشاكل الاجتماعية والنفسية التي خلفها ولوج الرجل الأبيض وثقافته في حياة الرجل الأفريقي وثقافته ، الحياة التي ظلت متعلقة على نفسها لفترة طويلة من الزمن مما أدى إلى التداعي والاضطراب اللذين هزا الوعي الأفريقي .



اختار أن يشيبي الأسلوب المأسوي لمعالجة هذا الموضوع بدل الأسلوب الساخر الكوميدي كما فعل عدد من الكتاب الأفارقة بالرغم من أن هذا لا يعني عدم جدية هؤلاء ، والطرح للمأسوي هذا يحتاج إلى تنظيم دراماتيكي خاص للأحداث يرتبط فيها كل حدث بالآخر ليسفر عن أنموذج مأسوي كما في الرواية الكوميديّة تماماً حيث يتطلب كل موقف اهتماماً خاصاً يؤدي إلى التأثير الهزلي . فالمأساة تعني أن تطفئ قدريّة عنيفة على حياة الأشخاص تتجاوز قدرة الفرد على فهمها أو إيقاف حتمية حدوثها . وهذه المنهجية تحتاج إلى تطوير شخصيات ومواقف على حد سواء . إن أهمية روايات أنشبي عامة والأشياء تنداعي خاصة لا تنبع فقط من الموضوع بل من هذه القدرة على تمثيل وتقديم الشخصيات وهي تعمل وتتحرك وتتفاعل مع أقدارها بالإضافة بالطبع إلى رؤيته الخاصة التي تقع وراء عالمه الخيالي وتسبغ عليه واقعاً وحقيقة .

تكشف القراءة الأولى للرواية عن العناصر الرئيسية للقصة التي تدور في داخل شرقي نيجيريا ( أرض الايو ) في قرية تدعى يوموفيا فيما بين عام ١٨٩٠ و ١٩٠٠ . وأوكونكو Okonkwo بطل الرواية رجل متوسط العمر (حوالي ٣٨ عاماً في بداية الرواية ) من قبائل الايو . يقضي أوكونكو الجزء الأكبر من حياته محاولاً القضاء على صورة الانسان الضعيف الخامل التي ارتبطت بشخصية والده وكادت أن ترتبط به لولا أنه أثبت جدارته بين قومه ، أولاً كمحارب قدير ومصارع لا يقهر ، وثانياً كمزارع جد ذو وب . يكاد أوكونكو أن يكلل أحلامه بنيل لقب عال يسبغه عليه قومه ، غير أن حادثة طارئة أدت إلى وفاة صبي شاب حالت دون ذلك . فقوانين القبيلة حتمت عليه أن يهرب وعائلته إلى قرية مجاورة لسبع سنين . خلال هذه الأعوام من النفي ، تبدأ فلول الرجل الأبيض في غزو بلاده على شكل بعثات تبشيرية ومبعوثين رسميين من الحكومة البريطانية . يعود أوكونكو من نفيه ليبحث أبناء يوموفيا على مجابهة الرجل

الأبيض ومقاومته بل طرده من المنطقة كلها . غير أن أهل البلدة لا يقدمون له الدعم المطلوب . تتطور الأحداث وتؤدي إلى مقتل أحد رسل الرجل الأبيض ، يكتشف بعدها أوكونكو أنه فقد دعم قبيلته له ، وأن أبناء جلدته قد تخلوا عنه للرجل الأبيض ، فيشنق نفسه .

يكاد يكون هذا التلخيص المختضب هيكلًا أجوف لرواية أنشيبي ، فالتغييرات والتجديدات التي أدخلها أنشيبي على فن الرواية لا يمكن تلخيصها بل لا يمكن اكتشافها إلا بعد التمهيص في النص ذاته .

تنقسم رواية الأشياء تتداعى إلى ثلاثة أجزاء رئيسية . الأول ، ويشمل أكثر من نصف الرواية ، بفصوله الثلاث عشرة ، يرسم بشكل مفصل صورة واضحة ثابتة للحياة التقليدية في بلاد الأيو قبل قدوم الرجل الأبيض . يتسم هذا الجزء باهتمامه بالحيثيات الاجتماعية والبيئية غير أنه يشكل البذور التي تثمر في الجزئين التاليين حيث يبدأ الصراع بين العالمين ، القديم والجديد . يتضمن هذا الجزء جوهر الصراع الذي يمثلته أوكونكو ( المجتمع التقليدي ) في عدم قدرته على التكيف أو تقبل نمط جديد مخالف لتقاليده . أما الجزء الثاني من الرواية ، ويشمل الفصول الرابعة عشرة وحتى التاسعة عشر فهو يتحدث عن نفى أوكونكو من يوموفيا ويرسم الصراع النفسي داخل أوكونكو ورغبته الملحة في العودة إلى بلدته لتخليصها من الغازي الأبيض . يتبع الجزء الثالث ( الفصل العشرون إلى الخامس والعشرين ) عودة أوكونكو إلى يوموفيا ومحاولة العقيدة في حشد قومه لمقاومة الرجل الأبيض .

من الواضح أن في نية الكاتب في الجزء الأول من روايته التفرغ لوصف عالم محدد تقليدي بمعزل عن كل تأثيرات العالم الغربي على الإطلاق . ويكاد يخلو هذا الجزء من أية عقدة أو تطور في الحدث أو القصص الروائي فيها عدا بعض المشاكل التي تعترض بطل القصة من وقت لآخر . تستطيع مادة هذا الجزء أن

تتحول بذاتها إلى رواية بانورامية مستقلة تنصرف إلى وصف قبائل الايبوي عالمها الخاص بها ، ممارساتها وتقاليدها ، تبرز قيمتها الانثروبولوجية من التسبع الدقيق لعالم أسلوب حياتي بدأ بالاندثار . غير أن أنشيبى يساعد الحدث في الفصل الأخير من هذا الجزء فقط عن طريق اختلاق حادثة مقتل الشاب فلقي أوكونكو معلناً بذلك انتهاء المهمة السردية الانثروبولوجية السوسولوجية البحتة للفصا وابتداء التفاعل الحتمي بين الشخصيات والأحداث . تساعد قراءة هذا الجزء على فهم معنى عنوان الرواية بل الغاية التي يرمي من ورائها الكاتب : ماستداعى هو الحياة التقليدية التي جهد الكاتب في تقديمها ووصفها للقارىء حية بمتعة مختلفة غنية .

يتمتع عالم قبائل الايسو الذي يغدق أنشيبى في وصفه بمزايا تجعل منه عالماً متفرداً . فهو عالم مابين الأوتوقراطية والديموقراطية في وقت واحد ، تعيش فيه الأسر القبلية في إطار ( أنشيبى ) تتحاوور بينها وتجمع على القرارات التي تتخذها . في نفس الوقت ، يسمح هذا النظام ( الديموقراطي ) بظهور و بروز فرد واحد تميزه المكتسبات الشخصية . فمجتمع الايبوي يحترم السن من جهة ويحترم الجهود الشخصية من جهة أخرى وتكاد تعكس هذه الأخيرة التشبث المطلق بقيم الشجاعة والإقدام والقوة الجسدية . يمثل هذه القيم بفتح أنشيبى روايته معرقاً ببطله أوكونكو :

عرف أوكونكو في القرى التسع وحتى ماوراءها . ولقد بنى شهرته على منجزات فردية صلبة . فعندما كان شاباً في الثامنة عشر من عمره أصبح على قومه شرف التغلب على أمالينز الهر . كان أمالينز أعظم مصارع لم يقهره أحد لسبع سنين من يوموفيا وحتى مابينو . وقد لقب بالهر لأن ظهره لايمس الأرض . لقد استطاع أوكونكو أن يرمي هذا الرجل أرضاً في قتال أجمع المسنون

على كونه الأعنف منذ قام مؤسس بلدتهم باستقطاب روح الشر لسبعة أيام وسبع ليال<sup>(٣)</sup> .

وبالرغم من أن رواية أنشيبي تبتدىء بكلمة ( أوكونكو ) كذلك الفصول الثلاثة الأولى إشارة إلى محوريتها وأهميتها في العمل فإن ( البطولة ) في هذه الرواية تتأرجح مابين شخصيتها الرئيسية أوكونكو وبين مجتمع الايبوذاته ، فالكتاب يتجنب الوصف المباشر لشخصية ما ويفضل أن يلجأ إلى إبراز جوانب التضاد أو المقارنة مع أفراد القبيلة الآخرين : « كان أماليتز لاعباً مأكراً ، بينما كان أوكونكو ماهراً في الانزلاق كما تنزلق السمكة في الماء » . ولا يعطي أنشيبي الكثير من التفاصيل حول بنية أوكونكو الجسدية فيها عدا إشارة هنا أو هناك إلى أنه كان « طويلاً وضخماً ، وإن حاجبيه الكثيفين وأنفه العريض أسبغا عليه نظرة قاسية جداً » . ربما يذكرنا هذا بما قاله ليونغ ليونغ بأن « شعور الاحترام لدى الأفريقي . . يمنح الكاتب من التحديق في وجه الآخر كما يفعل شعبان الأنهار »<sup>(٤)</sup> .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

أو كما يفعل الكاتب الأبيض عندما يحديق في الأسود . في روايته السيد جونسون يصف جويس كاري السيد جونسون كالتالي :

ليس السيد جونسون غريباً بسبب لهجته فقط ، بل بسبب لونه . فهو أسود كالمدفاة ، يكاد يكون زنجياً ( صافياً ) بأنفه القصير وشفتيه الناعمتين المليشتين . وهو شاب ربما في السابعة عشر من عمره ، يبدو يافعاً ، أمارقته ورجلاه فهي طويلة ونحيلة للغاية بالنسبة لجسده الصغير الذي يشابه بنحوه أرنباً مسلوخاً . وأما أطرافه فسائبة كأطراف صبي . يجلس وقد رفع ركبته إلى

٣ - تشينا أنشيبي ، الأشياء تتداعى ، هابنجان ، ١٩٧٧ ، ص ٣٢ .

أنفه مبتسماً لبامو ، فوق قماش سرواله القطني الأبيض المشدود ، بدئت النرج  
الذي يرسمه طفل على وجهه وهو ينظر إلى مائدة عيد ميلاد ويقول : « يا ، يا  
أنت جميلة - فتاة جميلة » .

وإذا كان الكاتب الأفريقي يشيح بوجهه احتراماً ولا يحدق بالآخرين فإن  
أنثيبي لم يشح بوجهه تجاه الماضي الأفريقي في هذا الجزء من روايته بل انطلق  
محدقاً حتى في صغائر ممارسات معتقدات أهالي الإيويواحتا عن هوية الأجداد  
وشخصيتهم المتميزة بأعشاً لأخلاقيتهم التقليدية ، مذكراً بتنظيم الأشياء وبالمثل  
التي قومت الأعمال من تحلافاً ، محلاً ، مبرراً أو حتى مندهشاً في بعض  
الأحيان . يتحدث عن الدين مثلاً قبل التفسير المسيحي فيجده مزيجاً صاعاً من  
الغموض الروحي الصوفي والعملية البحتة ، يسد الحاجات الإلهية واليومية  
العملية في نفس الوقت ، يسير مصانير أتباعه بل تنبأ بحيوته من إخلاص  
هؤلاء الأتباع ومن دعمهم لهذا الإخلاص بالأفعال المؤمنة .  
<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

دعت ( انثروبولوجية ) هذا الجزء من الرواية إلى ذاك الانهم الذي  
يعنف الكاتب اغراقه في الشروحات الاجتماعية البيئية وتوجهه في ذلك إلى  
القارئ الغربي ليشده إلى غرابته واختلافه . تهمة طاماً وجهت إلى كتاب  
العالم الثالث عندما يتحدثون بصوت عال لدى بحثهم عن أنفسهم .

لذا يعتبر الجزء الثاني من الرواية ( الفصول ١٤ - ١٩ ) والذي يحكي  
عن سنوات نفي أوكونكو في ميانما أكثر تقليدياً ، أكثر ( غريبة من الجزء الأول )  
فالكاتب يخفف من اعتياده على الحقائق البيئية المعيشية ويزيد اهتمامه بعقدة  
الرواية وتطويع عامل التشويق فيها ، ومع هذا يتلاشى الاهتمام ببطل الرواية  
وتفاعله مع الحدث بالتدرج ويبرز غرض أنثيبي أكثر وضوحاً : تسجيل قدوم

الرجل الأبيض إلى شرفي نبحير يا ورصد اخلاف الجعبي ويس اخلاف الفردي الناحم فحسب .

يستمد هذا الجزء أهميته ليس من الأمانة التاريخية التي ترقبها الكاتب بل من تملكه القدرة على عكس الوعي الجماعي بكثير من التفهم والمحبة . لاشك أن الجزء الثاني من هذا العمل يعتبر أفضل ماكتبه روائي في تصوير التصادم الأفريقي الغربي في مراحل الأولى ، بكل عفوية وسذاجته ، بتلك التعليقات التي تصف البيض بأنهم « بيض كقطع الحسوار » أولئك التي تصف شخصاً مصاباً بالجزام بأن جلده الأبيض يجعله يبدو كرجل أبيض . أووصف الرؤية الأولى للرجل الأبيض :

« خلال فصل البذار الأخير ظهر رجل أبيض في قبيلتهم . . .

كان يركب حصاناً حديدياً . فرأولئك الذين رأوه أولاً ، غير أنه وقف وأشار إليهم . أخيراً تقدم الشجعان منهم ولسوه . أما الأكبر سناً ، فقد استشاروا كهنتهم التي أعلمتهم بأن الرجل الأبيض سيمزق قبيلتهم وينشر الخراب بينهم . لهذا قتلوا الرجل الأبيض وربطوا حصانه الحديدي إلى شجرتهم المقدسة فقد بدا وكأنه سيفر لينجد أصدقاء الرجل الأبيض . . . قالت الأرواح أيضاً أن مزيداً من الرجال البيض قادمون ، قالت أنهم الجراد وأن الرجل الأول كان الرسول الذي أتى مستطعاً الأرض . ولهذا قتلوه »<sup>(١)</sup>

في الجزء الثالث من الرواية يتوافق المبشرون بالدين المسيحي ويرصد أنثبي الانسياق التدريجي إلى الدين الجديد . لم يعتقد هذا الدين أولاً أقوىاء القوم بل ضعفاؤهم ، من كانت نبذته القبيلة والعشيرة فوجد في الكنسية مأواه . يرصد أنثبي التغلغل المسيحي في معتقدات أبناء الايسوبكثير من الحساسية والموضوعية وبخاصة من خلال تقديمه لشخصية المبشر السيد براون

وحنكته في مد جذور الدين الجديد بكثير من التؤدة والقليل القليل من المجابهة ، أراد السيد براون أن ينسل إلى قلوب وأذهان القرويين انسلالاً مدركاً تمام الإدراك أن وطأة الهويين تقود إلى الطريق الذي يبغيه دون إثارة الضجيج والغضب . يحاول أولاً أن يفهم هو الدين المحلي والمعتقد السائد قبل أن يعمل على محييه . يلخص الفصل الواحد والعشرون سياسة السيد براون المترتبة فهو يحاور الأفراد مقنعاً ومتودداً ، يقرب فكرة الاله الواحد إليهم ويرز أوجه التشابه بين الههم تشوكوو Chokwu والاله المسيحي ، وكما هي العادة في جل أوضاع العالم الثالث يفتح مدرسة ومن ثم مشفى ، يغني المتاجر بالبضائع ، يشتري السلع بأسعار أغلى ، يرسخ هو ، يتداعوا هم :

لم تكن عودة أوكونكو إلى مسقط رأسه عودة لانتسى كما تمنى . . . لقد تغيرت العشرة تغيراً كبيراً خلال فترة نفيه ولم يعد من السهل التعرف عليها . لقد أصبح الدين الجديد والحكومة الجديدة والمتاجر كلها الشغل الشاغل لعيون وأذهان الناس .<sup>(٣)</sup>

لا يدين أتشيبي في روايته المسيحية ولا يطنب في مدحها ، يعقد مقارنات فقط مع الأديان المحلية وبخاصة الأرواحية Animism التقليدية ويعترف بأن الفروق تبدو مذهلة . ما يتوقف عنده الكاتب هو المرونة التي يتحلى بها حاملوا الدين الجديد بالمقارنة مع صلابة وتشنج أصحاب المعتقد القديم . بل يشعر القارئ وكأن الكاتب يتعمد إبراز قيمة هذه المرونة في شرحه المستفيض للطريقة المترتبة المرونة المتمهلة ، التي مكنت البشر الأبيض من نشر معتقده في رقعة من الأرض تسود فيها قيم الشدة والشجاعة والبأس والتضامن ، ولربما كان من ضروب السخرية أن يهزم محارب قدير كأوكونكو لشنجه ومقاومته للتغيير ، ويتداعى مجتمع أيضاً لآلشيء إلا لأنه أبدى مرونة وتقبلاً سريعاً ( للمهد

الجديد ) . من سخرية القدر أن أوكونكو مثلاً يعود إلى بلدته ليشهد كيف يستل الدين الجديد حتى ولده نووي Nwoye :

كان هناك شاب يافع أسرته المسيحية وكان اسمه نووي وهو الابن الأكبر لأوكونكو . لم بأسره المنطق المجنون لفكرة الثلاث ، فهو لم يفهمها . أسرته شاعرية الدين الجديد ، أسره ذلك الشعور الذي تحس به وهو يسري في عظامك . لقد استطاعت التريمية التي تحكي عن أخوة جلسوا في العتمة والخوف أن تحييب عن تساؤل غامض وملح كان ينتاب روحه الشاب - قصة التوأمين اللذين بكيا بين الشجر وقصة الكهافونا الذي قتل ، شعر بالارتياح عندما انصبت تلك التريمية داخل روحه العطشى . لقد كانت كلمات تلك التريمية كقطرات مطر مجمد ذابت في الحلق الجفاف للأرض اللاهثة .

كانت حيرة العقل الغض لنووي حيرة كبيرة .

تبر زئيمة التصادم الثقافي ثيمة أخرى يحاول من خلالها أنشيبي أن يصل إلى حل وسط . فمعاشير أوكونكو أخلفية التي تلتزم بمبادئ تقليدية معروفة ومواقف مشرفة تقوده في النهاية إلى موت غير مشرف ( إذ يشق نفسه كما يبين الجزء الثالث ) . كذلك فإن مجتمعه الذي انحنى تحت وطأة الضغوط التي تعرض إليها وغير من مبادئه يقهر في النهاية أيضاً . يضع أنشيبي مسؤولية الانهيار الذي تعرض له مجتمع الأيو على أكتاف العشيرة والفرد معاً ، فهم ليسوا ضحايا ، الأمر يالية البيضاء ، بكل بساطة ، وأنشيبي فنان مرهف لا يمكن له أن يلخص الوضع بمثل هذه السهولة بل يصور الأبعاد المركبة المختلفة للموقف . فالتداعي الذي نجم كان حصيلة أخطاء داخلية بالإضافة إلى قوى خارجية قاهرة . لن يستطع أوكونكو بعد الآن أن يعتمد على قوته العضلية فقط ولن تنفعه الرجولة والصلابة التي تغنى بها أترابه في مواجهة الغزو الأبيض ، لقد فقد سيطرته حتى على أبنائه .



« تصاعد غضب فجائي داخله وشعر برغبة كبيرة في أخذ رعه والذهاب إلى الكنيسة ليبدد تلك الشرذمة الخسيسة الكافرة »

« لقد استقر دين كريمة بينهم . أصبح الواحد ( نووي ) يترك أباه وأخوته ، يستطيع أن يلعن آلهة آبائه وأجداده كما يفعل كلب صيد عندما يجن جنونه فجأة ويهاجم صاحبه . »

لقد شطر الغازي الأبيض مجتمع الايسو إلى شطرين وأوبير يكا الشخصية الحكيمة في الرواية تنذر بأن أبة مقاومة للكنيسة ستعني مقاومة أبناء العشيرة فالأبيض لم يحضر معه ديناً جديداً فقط وإنما أتى بحكومة جديدة أيضاً بدأت تتدخل حتى في أمور الأرض وملكيتهما والتزاعات حولها . يسأل أوكونكو أوبير يكا فيما إذا كان الرجل الأبيض يفهم عادات قومه فيما يتعلق بالأرض فيجيبه :

وكيف يمكن ذلك وهو لا يتكلم لغتنا ؟ غير أنه يقول بأن عاداتنا سيئة ! كذلك فأخوتنا الذين اعتنقوا الدين الجديد يقولون أيضاً أن عاداتنا سيئة . هل نظن أننا نستطيع المقاومة عندما ينقلب أخوتنا ضدنا ؟ إن الرجل الأبيض ذكي جداً ، فلقد جاء بدينه بهدوء وسلام . ضحكنا لحماقته وسمحنا له بالبقاء والآن كسب أخوتنا ولم يعد بوسع القبيلة أن تبقى يدأ واحدة . لقد وضع سكينه فوق الأشياء التي كانت تربط بيننا وجعلنا نتداعى . »

عندما يقوم اينوخ ، أحد معتنقي المسيحية الغيورين ، بإزاحة القناع عن وجهه ايفوغيو Ekwugwu المقدس يعلم الجميع أن اينوخ قد قتل بهذا روح الاجداد . بدا الامر وكأن « روح القبيلة ذاتها بكت للشر العظيم الذي يتوقعها - موتها ذاتها » . تصاعد الأحداث بشكل هستيري ويقرر أوكونكو أن يخلص قومه من اللعنة التي حلت بهم . تحرق كنيسة الرجل الأبيض ، إلا أن أوكونكو

وخمسة من قادة القبيلة يلقون في السجن بأمر من المفوض البريطاني ويتعرضون لشتى الاهانات . هنا يجبر المفوض البريطاني أهالي يوميوفا على دفع مائتي كيس من قطع نقود الكوري لاصلاح الكنيسة المحطمة ولا يطلق سراح القادة الستة إلا بعد دفع الغرامة مضاعفة . تدعو القرية لعقد اجتماع تبحث فيه ضرورة شن الحرب ضد الرجل الأبيض أوعدمها ، غير أن رسولاً (أبيض) يأمر بانفضاض الاجتماع . وينتهي الفصل ماقبل الأخير من الرواية بمحاولة أوكونكو في حث قومه على المجابهة الدامية متخذاً من نفسه مثلاً :

في لحظة واحدة استل أوكونكوفأسه . انحنى الرسول لتفادي الضربة ولكن هذا لم يفده بشيء ، فقد انهار فأس أوكونكومرتين وقبع رأس الرجل قرب الجسد المرتدي البزة الرسمية . . . توقف الاجتماع . وقف أوكونكوناظراً إلى الرجل الميت . عرف أن يوميوفا لن تخوض حرباً . عرف ذلك لأن أهل يوميوفا قد سمحوا للرسل الآخرين بالحرب وبدل الانتظام في عمل مجد سيطر عليهم الشغب ، بل لمن الخوف في ذلك الشغب . لقد سمع أصواتاً تتساءل « لماذا فعل ذلك ؟ »

مسح فأسه فوق الرمل وقفل عائداً .

(ص ١٤٤ - ١٤٥)

يعتبر الفصل الأخير في رواية الأشياء تتداعى من قسم الكتابة الأفريقية المعاصرة . ففي أقل من ثلاثة صفحات ينسج أنشبي معاً ويوحد بين المواضيع والنساذج التي كان يعمل على طرحها وتطويرها في معظم روايته ، يلقي نظرة أخيرة على المجتمع المهدد بالتداعي بكل فضائله وأخطائه إنسانية شاسعة واسعة وينقل نظرتة فجأة إلى من سبب التداعي ببرود متعمد قاس في أقل من ثلاثة صفحات يلخص أنشبي العالمين : عالم الطقوس والخرافات والأساطير ، عالم الشجاعة والكرامة والرجولة ، عالم الشعوذة والسحر ، عالماً

كاملاً مقنعاً حياً ؛ وعالم المفوض البريطاني الذي لا يجد في قصة أوكونكو وشعبه أكثر من مادة جيدة يستطيع أن يضمها في الكتاب الذي يتوي تأليفه . لقد اختار عنوان الكتاب « المصالحة بين القبائل البدائية في اقاليم نيجيريا الجنوبية » . « لاشك أن قصة ذلك الرجل الذي قتل مبعوثاً بريطانيا ، وشنق نفسه ستكون مادة شيقة . يستطيع الواحد أن يكتب فصلاً كاملاً حوله . ربما ليس فصلاً كاملاً وإنما فقرة معقولة الطول على أية حال فقد كانت هناك أشياء أخرى يجب تضمينها وعلى المرء أن يكون حازماً في حذف بعض التفاصيل » .  
( ص ١٤٧ - ١٤٨ )

يؤكد أنثيبي على المسافة الفكرية والنفسية والزمنية التي تفصل بين البريطاني المستعمر والافريقي من خلال وصفه لحادثة شق أوكونكو نفسه :  
عندما وصل مفوض المقاطعة إلى منازل أوكونكو على رأس ثلة من الجنود المسلحين ومبعوثي القصر وجد جمهرة صغيرة من الرجال يجلسون بإعياء في الخيمة الكبرى . أمرهم بالخروج فأطاعوا بدون أية همسة .  
من منكم يدعى أوكونكو ؟ سأل عن طريق مترجم ؟  
ليس هنا ، أجب أووير يكا .  
أين هو ؟  
ليس هنا ؟

غضب المفوض واحمر وجهه . أنذر الرجال بالسجن جميعاً ما لم يعرفوه على أوكونكو . تهاشم الرجال فيما بينهم ثم تحدث أووير يكا ثانية .  
( نستطيع أن نأخذك الى حيث هو ، ربما يستطيع رجالك مساعدتنا ) .  
لم يفهم المفوض ما عناء أووير يكا بقوله « يستطيع رجالك مساعدتنا » .  
فكر بأن إحدى عادات هذا الشعب المثيرة للاعصاب حبه لفائض الكلام .

يقود أوبير يكا المفوض إلى حيث شق أوكونكونفسه ، ويسأله فيما إذا كان بمستطاع رجاله انزاله :

لماذا لا يستطيعون انزاله بأنفسكم ؟ تساءل قائلاً .

هذا يعارض عاداتنا . قال أحد الرجال . من الكريه لدينا أن يستل إنسان روحه بنفسه ، إنها إهانة ترتكب ضد الأرض ، ولا يمكن لأي إنسان يقترِف هذه الإساءة أن يدفن من قبل أبناء قبيلته . فجسده شر ، ويمكن للغرباء فقط أن يمسه ، لهذا طلبنا منكم إنزاله ، لأنكم غرباء ، . ( ص ١٤٦ - ١٤٧ )

لقد استطاع أنشبي أن يعبر عن انهيار وتداعي مجتمع تقليدي كمأساة فردية وعامة في نفس الوقت . مما صاعد التداعي وزاد من حدته وسرعته هو الانقسام الداخلي من جهة والضغط الخارجية من جهة أخرى . بل يمكن أن ينظر إلى الرواية كقنبلة من عالم سالم آمن بكل أخطائه إلى عالم قلق غير متوازن بكل فضائله . ولربما حقق أنشبي في هذه الرواية ما كان يطمح إليه في كتاباته :

« سأشعر بالرضى فعلاً إذا استطاعت رواياتي ، ( وبخاصة تلك التي تدور أحداثها في الماضي ) ألا تفعل شيئاً سوى تعليم قرائي أن ماضيهم - بكل مثالبه - لم يكن ليلاً طويلاً من الوحشية أنقذه منهم الأوروبيون الأوائل . . . »

لا يعود نجاح رواية الأشياء تدعى إلى التصوير الذكي الحساس للتصادم الغربي الأفريقي وحده . كثيرة هي المحاولات الأدبية التي حاولت تحليل هذا الصراع بين الشرق والغرب ، المستعمر والمستعمر ، بالرغم من أن عمل أنشبي هو من أبكر وأنجح أعمال العالم الثالث على الإطلاق . ربما استمدت الرواية قوتها الأدبية وجاذبيتها للقراء من قدرتها المائلة على المزج والتوفيق ما بين الفن الروائي الغربي والشخصية الأدبية الأفريقية . لقد طوع

أتشبيهي الأسلوب التقليدي الغربي ، واستنبط لغة انكليزية أغنيت بالحس الافريقي والرؤية الافريقية ، لقد ساعد انتهاء أتشبيهي إلى الأدب المحلي الشفهي غير المكتوب الذي توارثه جيلاً بعد جيل ، وإلى التقاليد الأدبية الانكليزية التي اكتسبها عن طريق التعلم والثقافة ، أن يزاوج بين التراثين ليولد نثراً انكليزي اللسان ، افريقي البشارة . أطاعته اللغة بل تكيفت معه بسحر عجيب مكنه من التعبير عن أدق التجارب وأكثرها محلية ، لم يمنعه طموحه للوصول إلى كتابة عالمية تسمو فوق المحلية الضيقة من عكس الشخصية الذاتية الفردية لشعب الايبو . وربما نكون أكثر انصافاً إذا ما لحصنا الأسلوب الأتشيبي ، بأنه محاولة لتقديم رواية العالم الثالث إلى العالم الكبير ، بحيث لا يفرط باللون والحس المحلي أمام متطلبات العالمية والشمولية .

مانفرد به أتشبيهي في الخمسينات من هذا القرن وما أصبح أنموذجاً حيكت مشات الأعيال مقلدة له ، هو أفرقة الأسلوب الانكليزي عن طريق ( تعليمه ) بالمفردات والصور والرموز والايحاءات الافريقية البحتة ، ويكاد يكون استعمال المثل الشعبي للتعبير عن موقف ما من أحب الوسائل إلى أتشبيهي ، والترات الشعبي غني بهذه الأمثلة الحكيمة ، والكاتب يقرب بأن « الامثال كزيت النخل الذي لا تؤكل الكلمات بدونه » .

لانتقل الامثال المستخدمة في روايات أتشبيهي حكم الأجيال المتوارثة فقط بل تكتسب صفات أدبية بجرسها وألوانها وصورها الغريبة ، لانتشر إلى المنحى الخلقي والقيم السائدة فحسب وإنسا تسبل بعداً وعمقاً على الشخصيات ذاتها . فعندما ينتقد كبار القوم عجرفة ومبالغة أو كونكو يقول أحدهم :

« من ينظر إلى فم الملك يعتقد أن هذا الفم لم يرضع من صدر أمه »

أو « قال الضب عندما قفز من أعلى شجرة ايروكوا إلى الأرض بأنه سيمدح نفسه إذا لم يمتدحه أحد !

يستخدم أنثيبي الحكاية المحلية التي تناسلتها الأجيال من فم لآخر بنفس الاندفاع الذي يستخدم به المثل العامي ، فمثل هذه الحكايا يتوقف لدى نقطة أو غاية اخلاقية تنعكس بدورها على الموقف أو الشخصيات . وتبرز الصور المستخدمة في كل من المثل أو الحكاية أوحى أسلوب الكاتب العام غنية بارتباطات جديدة ( بالنسبة للقارئ الغربي على الأقل ) وإشارات طريفة .  
هكذا مثلاً يشكر أحد كبار القوم أوكونكو على وليمته العامرة :

بعد أن احتسي نبيذ النخيل وقف أحد الأعضاء المسنين من الأومونا يشكر أوكونكو .

لوقلت أننا لم نتوقع وليمة عظيمة كهذه ليدوت وكأننا لم نعلم مقدار كرم أوكونكو وسعة يده . نحن نعرفه جميعاً ، وكلنا توقع وليمة كبرى ، شكراً ، ندعو أن يعود كل ما أنفقنا أصغافاً مضاعفة . . . عندما يدعو رجل أقرباه إلى وليمة فهو لا يفعل ذلك ليجنبهم الموت جوعاً . فلديهم جميعاً طعام في منازلهم . وعندما نجتمع معاً في ساحة القرية التي يضيئها القمر ، لانفعل هذا من أجل القمر . فكل واحد منا يستطيع أن يرقب القمر من بيته . نجتمع معاً لأن من الجيد للأقرباء أن يجتمعوا .

يتدفق الجرس الموسيقي في كتابات أنثيبي من الأمثال والحكايا والصور ومن الاستخدام الواعي المقصود للكلمات والأسماء الافريقية . فللأساء والكلمات الافريقية بغرابتها أو بالأحرى باختلافها وقع يعطي بعداً آخر للكلمات المألوفة التي ترصف إلى جانبها .

« أصبحت ولادة أطفال لا يكوغي ، الشيء الذي يجب أن يعتبر اكليل نجاح أية امرأة ، عذاباً جسدياً لا طائل من ورائه . لقد أصبحت احتفالات

تسمية الأطفال التي تبدأ بعد سبعة أسابيع سوق احتفالات لامعنى لها ، ولقد انعكست خيبة أملها في الأسماء التي اختارتها لأطفالها « . كانت احداها صرخة محزنة أونومبيكو- » أنضرع إليك أيها الموت « غير أن الموت لم يبال ؛ مات أونومبيكو في شهره الخامس عشر . كان الطفل الثاني انثى . أوزومينا- « أدعو ألا يحصل هذا ثانية ؛ توفيت في شهرها الحادي عشر ، واثنين آخرين بعدها ، أصبحت أكويغي بعد ذلك أكثر تحدياً وأسمت ابنها التالي أونوما- ليأخذ الموت راحته ، وهكذا فعل .

إن تجربة ولوج عالم أتشيبي فكراً ولغة تجربة فريدة قد تنافس نشوتها نشوة القراءات الاغريقية والأساطير والملاحم ( البيضاء ) التي أغنت التراث الانساني لمئات السنين . لقد أزف الوقت لتغني القارة السوداء الميثولوجيا العالمية بوافد من تراثها ، وهذا ما فعلته فعلاً في السنوات الثلاثين الماضية .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>



شينوا تشيبي  
ترجمة، مجد موفق الشرع

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ولد الكاتب عام ١٩٣٠ ، أحد أوائل الخريجين من جامعة  
إبادان ، نيجيريا . كان والده مدرساً تبشيراً . بعد زيارة  
الولايات المتحدة انضم آشيبي الى شركة الاذاعة النيجيرية  
عام ١٩٥٤ . وعندما استقال سنة ١٩٦٧ كان مدير الاذاعة  
الخارجية . يعمل الآن في الجامعة النيجيرية قسم الدراسات  
الأفريقية في

( نسوكا NSUKKA ) . تعتبر روايته « الاشياء تسقط منفصلة »  
من افضل انتاجه ، كتبها عام ١٩٥٨ ، والقصة التالية « موت  
صبي » مقتطفة منها .



عندما قُتلت امرأة من عشيرة اوكونكو في بلدة مجاورة ، طلب كبار العشيرة بنتاً عذراء وصيباً في الخامسة عشرة كتعويض ورهينة . اعطيت العذراء لزوج الفقيدة ، وارسل الصبي « اكمفونا » الى عهدة اوكونكو ليربى مع ابنه « نوبي »

شجع اوكونكو الصبيين على مجالسته ، وكان يحكي لهم قصصاً عن الأرض - قصصاً بطولية ذكورية عن العنف واراقة الدماء . عرف نوبي انه يجب أن يكون ذكورياً وعنيفاً ، لكنه بقي يفضل قصص امه عن السلحفاة وطرقها الماكرة ، وعن الطير ( اينكي - نتي - أوبا ) الذي تحدى العالم كله لخلبة المصارعة ، ثم دحرته هرة . كان يتذكر قصة طالما روتها له امه عن صراع قديم بين السماء والأرض ، وكيف حبست السماء الامطار لسبع سنوات ، حتى ذوت المحاصيل ، وبقي الموتى دون دفن لأن المياول كانت تتكسر في التربة المتحجرة . من ثم بعث النسر يلمس عطف السماء بأغنية ليرق قلبها مما يكابده ابناء الانسان على الأرض .

وكلما غنت امه تلك الاغنية كان يحس بنفسه يتعد عالياً في الفضاء ، حيثما يرخ النسر ، رسول الأرض يغني للرحمة ، في النهاية اشفقت السماء واعطت النسر مطراً مصروراً بورق اليام<sup>(١)</sup> ، وخلال طيرانه عائداً ثقت مغالبه الاوراق ، وسقط المطر بشكل لم يسبق له مثيل . وانهمر بغزارة شديدة على النسر ، فطار باتجاه أرض نائية ، حيث لمح ناراً . وعندما اقترب منها وجد رجلاً يقدم ضحية ، يتدفأ بالنار ويأكل محتويات الاحشاء .

أحب نوبي هذا النوع من القصص ، ولكنه عرف الآن ان هذه الحكايا

(١) اليام : نوع من البطاطا الحلوة ، يشبه شكله جذع شجرة ، وقشرته الخارجية قاسية . يعتبر اليام الغذاء الرئيسي للشعوب الافريقية .

مخصصة للنساء الحمقى والاطفال ، وإن والده يريد رجلاً . لذا فقد بدأ يتظاهرعدم اهتمامه بالحكايات النسائية . مما سر والده منه وجعله يتوقف عن توبيخه وضربه . وهكذا أصبح نوبي واكمفونا ينصتان لقصص اوكونكو عن حروب القبائل أو كيف قنص ضحيته ، وأخضعه ونال أول رأس بشري له .

وبينما يخبرهم عن الماضي كانوا يجلسون في العتم أو وهج الحطب الخافت ، ينتظرون النساء ليتتهين من الطهي . ثم تجلب كل واحدة طاسة من الفوفو<sup>(٢)</sup> وأخرى من الحساء لزوجها . يشعل ضوء الكاز ويتذوق اوكونكو من كليهما ثم يمرر حصتين الى كل من نوبي واكمفونا .

بهذه الطريقة مرت الشهور والفصول . ثم جاء الجراد ، وذلك لم يحدث لعدة سنوات خلت . قال القدماء أن الجراد أتى مرة كل الجيل ، وكان يظهر كل سنة وعلى مدى سبع سنوات عجاف ثم يخفي الى أجل آخر . عندما حل الجراد ، عادوا الى كهوفهم في الأراضي البعيدة تحرسهم مجموعة من الرجال الجسورين الأشداء وبعد جيل كامل فتحوا كهوفهم ثانية وأتى الجراد الى يوموفيا .

ظهر الجراد في فصل الهرمتان<sup>(٣)</sup> البارد بعد جمع الحصاد والتهم كل الاعشاب البرية في الحقول .

كان اوكونكو يعمل مع الصبيين الآخرين على تقوية جدران الاكواخ الحمراء . تلك هي أحد اسهل الاعمال بعد موسم الحصاد . غطاء سميك

(٢) الفوفو : أكلة شعبية معروفة في افريقيا ، يتم تحضيرها من نبات الكسافا والنشاء ، تصنع عجينة

لزجة . يطهى الى جانبها حساء الخضراوات .

(٣) الهرمتان : رياح باردة تهب من الصحراء الكبرى محملة بذرات الغبار الناعم تعميء الجو وتحجب

الشمس ، ويصبح لون السماء ترابياً . تدعى برياح الحباسين أو الطورز . يحدث موسم الهرمتان في افريقيا خلال شهري كانون الأول وكانون الثاني .

جديد من سعف وأوراق النخيل يثبت على الجدران لحمايتها من الفصل الماطر المقبل . عمل اوكونكو على الاسطح الخارجية بينما كان الولدان يعملان من الداخل . من خلال ثقب في الطبقات العليا مرر اوكونكو الحبل ليلفه على العوارض الخشبية المستديرة ويعيده ثانية . وبهذا تمت تقوية الغطاء على الحائط .

ذهبت النساء إلى الغابة لجمع حطب الوقود ، وذهب الاطفال الصغار لزيارة اترابهم في الديار المجاورة . عباً المهرتان الهواء وولد في الناس حواساً ضبابية للنوم . اشتغل اوكونكومع الصبيين بصمت تام لم يكن يقطعه سوى عملية رفع جذع نخل جديد ليسند الحائط ، أو دجاجة ناشطة تحرك أوراقاً جافة في سعيها الدائم للبحث عما تقتات به .

وفجأة ، هيمنت ظلال في الجو ، وبذت الشمس محتجبة وراء سحابة كثيفة . نظر اوكونكو للأعلى متسائلاً عما إذا كانت ستمطر في غير ميعادها من السنة . انطلقت فوراً صيحة ابتهاج انتشرت في انحاء يوموفيا التي التهب بالنشاط والحياة ، بعد أن كانت غافية في فترة بعد الظهر الضبابية .

الجراد آت ، ردها الجميع بسعادة ، وترك الرجال والنساء والاطفال اعمالهم ولعبهم وركضوا ليرا في الفضاء المشهد غير المعتاد . لم يأت الجراد منذ زمن بعيد - بعيد ولم يسبق لأحد أن رآه من قبل سوى العجائز والمسنين .

في البداية ظهر سرب صغير من الجراد قادم ، هو سرب الرواد الذي أرسل لكي يمسح الأرض . ثم بدا في الأفق حشد يتحرك ببطء كملاء لانهاية من الغيوم السوداء ، يتجه نحو يوموفيا ، وحالا غطى نصف السماء وبدأت تتخلل الصفحة الكثيفة سهام الضوء كغبار نجمي متلألئ . كان منظرًا عظيمًا مليئًا بالقوة والجمال .

كان الجميع متأثرين ، وأخذوا يصلون كي يبقى الجراد عندهم الليلة . ورغم ان الجراد لم يكن قد زار أرض يوموفيا لسنوات عديدة ، فقد عرف الجميع بالفطرة انه آكل نهم . هبط الجراد أخيراً ، واستقر على كل شجرة وكل ورقة عشب وعلى الاسقف وغطى الاراضي الخالية . تكسرت اغصان الاشجار تحت ثقل حمله وغدت القرية كلها بلون التراب البني باجتياع هذا السرب الضخم الجائع .

كثير من الناس أخذوا يسلّهم محاولين اصطياد الجراد ، ولكن كبار القبيلة ارتأوا الصبر الى أن يحل الليل . وكانوا على صواب . فبعد ان استقر الجراد ليلاً على الاشجار اصبحت أجنته رطبة بالندى وسهل التقاطه . وعندها هب جميع أفراد يوموفيا رغم برد المهرتان لجمع الجراد . وفي الصباح التالي كان الجراد يطهى في القدور الفخارية ثم يشترى في الشمس ليجف ويصبح هشاً . ولايام عديدة كان هذا الطعام النادر يؤكل مع زيت البلح .

جلس اوكونكو في كوخه ( يقرقش ) الجراد بسرور مع اكمفونا ونوبي ، ويعب بكثرة من خمرة البلح ، عندما جاء أوجيو في ايزودو . ايزودو هو الرجل الاكبر سناً في احياء يوموفيا وسبق ان كان من اشجع المحاربين واعظمهم في زمانه ، يحمله ويحترمه جميع من في المنطقة . رفض ايزودو مشاركة اوكونكو الطعام وطلب محادثته جانباً . مشياً خارجاً والرجل العجوز يتوكأ على عصاه . خاطب اوكونكو : « هذا الولد الذي يدعوك أبي . لا تتدخل عند موته . » دهش اوكونكو واراد ان يقول شيئاً بينما تابع الرجل العجوز : « نعم ، قررت يوموفيا قتله . كهنة التلال والكهوف اشارت بهذا . سوف يأخذونه خارج يوموفيا كما جرت العادة ويقتلونهم هناك . ولا أريدك أن تفعل شيئاً ، مع أنه يدعوك أباه . »

جاء في صباح اليوم التالي مجموعة من كبار قرى يوموفيا التسع الى اوكونكو ، وقبل أن يبدأوا حديثهم الهامس ارسل نوبي واكمفونا خارجاً . لم يطيلوا جلوسهم ولكن بقي اوكونكو فترة طويلة بعد ذهابهم ذاهلاً يسند ذقنه براحنه . وفي المساء دعا اكمفونا وأخبره بأنه سوف يؤخذ في الغد الى بيته . أطلق نوبي يكي عند سماعه ذلك ، فضربه أبوه ضرباً مبرحاً . أما اكمفونا فكان حائراً . فقد غدا بيته الحقيقي بالنسبة له باهتاً بعيداً . صحيح أنه يفتقد امه واخته ويسعد كثيراً لرؤيتهما . ولكنه احس بشكل ما انه غير ذاهب اليهما . تذكر الرجال يتحدثون بصوت منخفض مع أبيه ، وشعر بتلك الجلسة والحديث تعود مرة أخرى الآن .

فيما بعد ، ذهب نوبي الى كوخ أمه وأعلمها بأن اكمفونا سيغادر الى دياره . اسقطت المذقة التي تطحن بها الفلفل من يدها ، لفت ساعديها على صدرها وتهدت ، « طفل مسكين » .  
 في اليوم التالي ، عاد الرجال ومعهم قدر من الخمر . وقد ارتدى الجميع ملابسهم الكاملة وكأنهم ذاهبون لاجتماع عشيرة أولز يارة ديار مجاورة . لفوا ثيابهم تحت ابطهم الأيمن ، وعلقوا حافظاتهم من جلد الماعز و ( غمود ) خناجرهم على الكتف الأيسر . تهباً اوكونكو سريعاً وابتدأت مسيرة الفريق واكمفونا يحمل قدر الخمر . وساد اكواخ اوكونكو صمت رهيب . حتى بدت وكأن صغار الاطفال يعلمون . خلال ذلك النهار جلس نوبي في كوخ أمه وعيناه تظفران بالدمع .

في بداية الرحلة ضحك رجال يوموفيا وتحدثوا عن الجراد ، عن نسائهم وعن بعض الرجال المختشين الذين رفضوا مرافقتهم . لكن ما إن شارفوا ضواحي يوموفيا حتى هيمن عليهم الصمت أيضاً .  
 تدرجت الشمس ببطء نحو عرض السماء وبدأ الرمل الجاف يلسع

الاقدام بحرارته المدفونة فيه . سقسقت بعض الطيور في الغابات المجاورة  
وطىء الرجال بعض الاوراق اليابسة ، كل شيء ماعدا ذلك كان ساكناً  
تساهى من بعيد قرع واه لايقاع « ايكوي » EKWE . ارتفع ونجا مع الرياء  
- رقص سلام من قبيلة بعيدة .

هذا رقص « اوزو » OZO ، قال الرجال فيما بينهم . لم يكن أحد منهم  
متأكدا من أي جهة يصدر . بعضهم قال « ازميلي » آخرون آباءم ، أو « انيتنا »  
تجادلوا لبرهة قصيرة وعادوا الى الصمت ثانية ، والرقص المحير يتعالى صوت  
ويهفومع الريح . في مكان ما هناك رجل يتم تنصيبه في عشيرته ، باحتفال كبير  
ورقص وموسيقى .

اصبح الدرب مساراً ضيقاً في قلب الغابة . الاشجار القصيرة والنباتات  
المتناثرة حول قرى الناس أخلت المكان للاشجار العملاقة والمتسلقات التي لا بد  
موجودة منذ بداية الاشياء في الكون ، لم يمسسها معزق ولا نار حريق . تنكسر  
اشعة الشمس خلال أوراقها وأغصانها تلقي عينات من النور والظلال على  
الدرب الرملي .

سمع اكمفونا همسا قريباً خلفه فاستدار بحدّة . صرخ الرجل الذي كان  
يهمس عالياً حائثاً الآخرين على الاسراع . . « مايزال امامنا طريق طويل » ،  
قال الرجل ، ومشى مع رجل آخر متقدماً اكمفونا منتهجاً خطوات سريعة .

تابع رجال يوموفيا طريقهم ، مسلحين بالخنجر المغمدة ، واكمفونا  
يحمل قدر الخمر على رأسه ، يمشي في وسطهم . ومع أنه كان مرتبكاً في  
البداية ، لم يعد يشعر بالخوف الآن . مشى اوكونكو خلفه . لم يكن يستطيع أن  
يتخيل أن اوكونكوليس أباه الحقيقي ، والواقع أنه لم يكن قط مغرماً بأبيه  
الحقيقي . وفي نهاية هذه السنوات الثلاث أصبح بعيداً جداً . ولكن أمه واخته  
التي تبلغ ثلاث سنوات من العمر .

طبعاً لم تعد في الثالثة الآن بل في السادسة . هل سيعرفها الآن ؟ حتماً  
لقد كبرت . كم ستيكي امه من شدة الفرح وتشكر اوكونكو لاعتنائه الجيد به  
واعادته لها . سوف ترغب في الاستماع إلى كل ما حصل معه خلال هذه  
السنوات الثلاث . هل سيستطيع تذكر كل شيء ؟ سيحدثها عن نوبي وأمه ،  
وعن الجراد . . . فجأة خطرت بباله فكرة ، ماذا لو كانت أمه ميتة ؟ حاول  
بيأس طرد الفكرة بعيداً عن ذهنه . ثم حاول حل المسألة بالطريقة التي اعتادها  
عندما كان طفلاً صغيراً . ما يزال يتذكر الاغنية :

از ، الينا ، الينا

... سالا

غناها في قلبه ومشى على ابقاعها . اذا انتهت الاغنية مع خطوة قدمه  
اليمنى فامه حية تَرْزُق . أما إذا انتهت اليسرى ، فهي ميتة ، بل مريضة .  
انتهت الاغنية مع القدم اليمنى امه تعيش وبخير . غناها مرة أخرى وانتهت  
عند اليسرى . لكن لا يجب حساب المرة الثانية . الصوت الأول يأتي الى  
( شوكو ) ، أوبيت الاله . ذلك كان المثل المفضل عند الأطفال . شعر اكمفونا  
بنفسه طفلاً من جديد . أيكمن سر هذا الشعور في تفكيره بالعودة الى البيت  
الى أمه ؟

تنحني أحد الرجال من خلفه . نظر اكمفونا وراءه فنهز الرجل أمراً إياه  
بالمسير وعدم النظر للوراء . قالها بطريقة جعلت خوفاً بارداً يتسرب الى ظهر  
اكمفونا . ارتجفت يده على القدر السوداء التي يحملها . لماذا انزعج اوكونكو  
نحو المؤخرة ؟ أحس اكمفونا أن ساقيه تنصهران تحته . وكان خائفاً من النظر  
إلى الخلف .

عندما سحب الرجل الذي تنحنح سكينه ورفعها ، نظر اوكونكو بعيداً .  
سمع الضربة ، وقعت القدر وانكسرت في الرمل . سمع اكمفونا بصرخ :  
« أبي لقد قتلوني » وركض باتجاهه ، كان دائحاً من الفرع ، رفع خنجره  
وطعنه . كان خائفاً أن يُظنَّ به الضعف .

عنوان القصة : Death Ofaboy

الكاتب : Chinua Achebe







ترجمة:

د. عبد الرزاق جعفر

حدث في أحد الأيام أن كان الظبي يمرح  
في دغل من الأدغال . وصل إلى ضفة النهر ،  
فرأى فرس البحر والفيل يتسامران . ولما كان  
محباً للاطلاع بطبعه ، فقد كمن خلف كومة من  
العشب ، وشرع يصفي إلى حديثهما .

كان فرس البحر والفيل ماضيين في  
التملق والمجاملة .

قال فرس البحر :

- أيها الأب الفيل إنك أقوى الحيوانات على وجه الأرض . وأنا أقوى الحيوانات التي تعيش في الماء . ما رأيك في أن نعقد صفقة بيننا ، فنسيطر على كل البهائم التي خلقها الله ، ونفرض عليها كل ما نريد ، ونأمرها بما نشاء ؟

فقال الفيل الضخم مزهواً :

- حسناً ... حسناً أيها الزميل ... ! إنني موافق على كل

ما تقول ...

ولما كان الطيبي لا يرغب في أن يعيش تحت سيطرتها ، وأن يفعل ما يأمرانه به ، فقد فكر زمناً طويلاً في وسيلة تحبط مشروعاتهما ، وتفشله . وفجأة قفز في الهواء قفزة عالية معبراً عن فرحه الشديد . فقد وجد تلك الوسيلة ...

ARCHIVE

وما إن ذهب ، كل واحد في طريقه ، حتى انطلق يبحث عن جبل ضخم جداً وطويل جداً ثم استعار من أحد جيرانه طبله صغيرة أخفاها بين الحشائش . وبعد ذلك سار على شاطئ النهر حتى التقى بفرس البحر . فقال له :

- أوه ! مرحى .. يا فرس البحر ... هل أجرو فأطلب منك

أن تؤدي لي خدمة صغيرة ؟

- أجب فرس البحر :

- تكلم ... تكلم ... وسوف أرى إن كنت قادراً على

خدمتك !

- حسناً : لقد غاصت بقرتي في الطين ، على بعد نصف ميل  
من هذا المكان . ولا أستطيع سحبها ، لكنني واثق أنك تستطيع فعل  
ذلك لأنك قوي جبار . ولن تشعر بالتعب .

تأثر فرس البحر بهذا المديح ، وقبل القيام بالمهمة رأساً . فقال  
الظبي :

- حسناً ... سوف أربطك بطرف هذا الحبل . وسوف أذهب  
لأربط بقرتي بالطرف الآخر . وعندما أفرغ من ذلك سوف أنقر على  
الطبله . حينذاك ماعليك إلا أن تجر بقوة ... بقوة لأن البقرة غارقة  
في أعماق الطين ! ...

قال فرس البحر :  
- هيه ... هيه ... ! اذهب في سبيلك ... سأقوم بعمل  
خير قيام . لا تقلق . سوف أجريها حتى لو كانت غارقة إلى  
قربها ... !

ربط الظبي الحبل حول جسم فرس البحر الضخم ، ثم  
قفز ... هوب ... هوب ... وجرى نحو الفيل ، وقال له :

- أوه ... ! من فضلك ... أيها الفيل المقتدر . هل تريد أن  
تؤدي لي خدمة صغيرة ؟  
سأله الفيل :

- وماهي هذه الخدمة ؟  
- لقد غارت بقرتي في الوحل ، على بعد نصف ميل من هذا

المكان . ولا أستطيع إنقاذها . وهذا الأمر سهل عليك بطبيعة الحال ... أنت القوي الجبار ...

أجاب الفيل مزهواً :  
- بكل تأكيد ... بكل تأكيد !

فقال الظبي :  
- حسناً ... حسناً . . سوف أربط طرف هذا الحبل الطويل حول خرطومك . وسيكون الطرف الآخر للبقرة . وعندما يصبح كل شيء جاهزاً فإنني سوف أقرع الطبل . وما عليك حينئذ إلا أن تجرّ بأقصى ماتستطيع من قوة .

قال الفيل :  
- لا تخشى شيئاً . لو كانت بقرتك بحجم عشرين بقرة فأنا قادر على جرّها من غير صعوبة .

ردّ الظبي :  
- أنا واثق من ذلك . . . لكنني أرجو ألا تجرّ بقوة في البداية ،

ربط الحبل بقوة حول خرطوم الفيل . وجرى مسرعاً ليختبئ بين الأعشاب ، وبعد قليل شرع يقرع على الطبل .

بدأ فرس البحر يجرّ الحبل بقوة ، كذلك بدأ الفيل يجرّ . أصبح الحبل مشدوداً قاسياً ،

قال الفيل في نفسه :

- ماهذه البقرة ؟ إنها ثقيلة جداً . لكنني سوف أخرجها .  
وثبت قوائمه في جذع شجرة ضخمة فزلزل الأرض .

تمتم فرس البحر قائلاً :

- ماهذا العمل ؟ لابد أن هذه البقرة في باطن الأرض !  
وأخذ يجرب بكل قوته .

كان كل واحد منها يجرب من طرفه ، لكن فرس البحر شعر بأنه  
يُسحب نحو ضفة النهر إذ أن الفيل كان يلفّ الحبل ، حول  
خرطومعه ، كلما سحبه بقوة ، لقد ثار غضبه ونسي نفسه . فوقع في  
النهر . . . وكان رأسه في المقدمة !

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

انتزعت قوائم الفيل من الأرض وانساب حتى الشاطيء ،  
فشارت ثورته إلى درجة فظيعة ، فسحب الحبل بقوة كبيرة أخرجت  
فرس البحر من النهر .

زأر فرس البحر :

- من الذي يسحبني ؟

وصاح الفيل :

- من الذي يسحبني ؟

ورأى كل واحد منها الآخر وقد لف جسمه بالحبل .

زبحر الفيل :

- سوف أريك كيف تمثل دور البقرة ! ...

- وزبحر فرس البحر :

- سوف أعلمك كيف تسخر مني ! ...

وفي هذه اللحظة أخرج الظبي سكينه وقطع الحبل ! ...  
وقع فرس البحر في النهر ثانية وقعة عظيمة ، وتدحرج الفيل  
على ظهره ... وظلت قوائمه الأربع معلقة في الهواء !

أصابها الخجل . وذهب كل واحد منهما في حال سيئه ، ومنذ  
ذلك الوقت لم يجرؤ أحدهما على رؤية الآخر .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

أما الظبي فقد أخذ يضحك ويضحك ... وهو إلى الآن  
يضحك ... !



ترجمة :

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

لويس برناردو أونغانا كاتب موزامبيقي ولد عام ١٩٤٢ . عمل منذ فتوته في ميدان الصحافة ونشر محاولاته الأدبية الأولى في صحيفة العاصمة « نوتيسايز » . اعتقل مع كتاب آخرين مكافحين من أجل الاستقلال في كانون الأول عام ١٩٦٤ حيث حكمت عليه المحكمة بالسجن لمدة عامين . صدرت مجموعته القصصية الأولى - « نحن نقتل الكلب الأجرب » عام ١٩٦٤ وترجمت إلى لغات عدة منها الروسية . « فرصة للغذاء » التي تقدم ترجمة لها في هذا العدد الخاص بالأدب الإفريقي إحدى قصص هذه المجموعة .

## فرصة للغذاء

سمع مدالا ، وقد أحنى ظهره ، ملامساً يديه الأرض ، الضربة الثانية عشرة والأخيرة للجرس . رفع رأسه فلمح بين أعواد الذرة على مسافة عشر خطوات سروال المراقب . لم يتجراً على رفع قامته ، فقد عرف أنه لا يجوز التوقف عن العمل إلا بعد سماع أمر بذلك . لذا أسند مرفقيه على ركبتيه وبدأ ينتظر بصبر .

كانت الشمس العمودية تكوي ظهره العاري ، وكان عليه تحملها . رجح أن يكون المراقب غاضباً اليوم وذلك بعد أن خُن الوقت من خلال كثافة قطرات العرق المتصبية من طرف أنفه على الحجر ، المتلألأ تحت أشعة الشمس ، أمام قدميه . لم يتغير وضع القدمين الباذيين لناظريه على بُعد عشر خطوات . رأى مدالا في البعد كذلك نقطة سوداء - كان ذلك فيلمون الذي بدا مقوس الظهر بين أعواد الذرة منتظراً الأمر بترك العمل .

أحس بآلم ممض في خاصرته ، لاسيما الآن بعد أن بشر الجرس بفرصة الغذاء . عندما تعبت عضلات رقبته من التوتر خفض العجوز رأسه ولامست يده الآن فروع النباتات الطفيلية الطرية التي يجب انتزاعها . حينما شعر بالمقاومة ، وهويشد الجذر بشكل آلي ، تشبث به بقوة أصابعه ، ومع اقتلاعه انتصب بكل جذعه فجأة . لم يصرف جهداً يذكر من أجل تخليصه من التربة ، لكنه شعر بآلم في عروق ظاهر ركبتيه ، وتناثرت ذرات التراب التي كانت عالقة بالجذور على وجهه . نظر إلى الحفرة الصغيرة المتشكلة أمامه في الأرض فأدرك أن النهار شديد الحر ، إذ لم يصدر عن التربة المحفورة أي رَهِج .



مع بزوغ الفجر وفي الساعات الأولى من العمل كانت أرض ماشامبا الخصبية الرطبة بفعل الندى الصباحي تنفس ضباباً رقيقاً وبدأ العمل غير مرهق . لكن مع ارتفاع الشمس يقل البخار الخارج من الحفرة الصغيرة المتكونة بعد استئصال النباتات الضارة .

ألقى مدالا الأعشاب جانباً وبدأ ينصت . لا شيء . كان الهواء فقط يلعب بأوراق أعواد الذرة الطويلة . تشبث مدالا من جديد بقبضة من العشب وشد جسمه إلى الوراء إلى أن اقتلعها . ساعدته هذه الطريقة على حفظ قوته ، إذ كان ينتزع العشب بثقل جسمه فقط دون حركات أخرى زائدة ، وغير مرهق يديه اللتين مانتحتا إلا لتفرض التراب العالق بالجذور .

منذ أن رن الجرس اقتلع مدالا سبعة جذور . تطلع ثانية في تلك الناحية حيث أبصر بين أعواد الذرة ساقى المراقب - خشبي ألا يسمع صوته . أنصت . لكن لم يصله أي صوت سوى خشخشة الأوراق اليابسة . انحنى العجوز إلى أمام فأحسّ بالم حاد في خصره . كان العشب ضارباً جذره في الأرض بقوة . شد مدالا جسمه إلى الخلف بقوة فانتزعه أخيراً . برزت من تحت الجذور هذه المرة عقرب ، ولكن نظراً لأن العجوز لم يشأ التحرك من مكانه ، ولم يكن بين يديه رفش أو أداة أخرى فقد ترك الحشرة تزحف هاربة . فكر مدالا أنه لولدغته هذه العقرب لتألم بشدة أياماً ثلاثة ثم مات . فعلاً فهو لم يعد الآن قوياً كما كان في الماضي ، وقد لا يقدر جسمه على مقاومة سم هذه العقرب الكبيرة .

في الساعات الأولى من العمل كانت تقفز جنادب من بين الأعشاب التي ينتزعها . أما في مثل هذا الوقت - في الظهيرة فصارت تبرز غالباً العقارب والحراذين وحتى الأفاعي السامة . فالمسكين بيتاروس مات من لدغة ثعبان هجم عليه أثناء العمل . الآن لم يعد أحد يتذكر بيتاروس . . . بيد أن الكل

يعرف أرملته . بعد موت زوجها عاشرها جميع الرجال ممن دفعوا عنها في الحانات ثمن النبيذ الذي كانت تحتسيه . في البداية قالت أنها لانتام إلا مع من يدفع لها عشرين فرنكاً ، لكن فيما بعد لم تهتم بالنقود إذا ماتوفر لها المشروب . كان عمال المناجم العائدين من جنوب إفريقيا وأوروديسيا الجنوبية يسقونها حتى السكر التام ، ثم يقودونها من الخسارة إلى دغلٍ قريب . وهناك تبقى حتى تشبع نوماً وتصحو بنفسها .

مدالا وحده لم ينم معها ، لأنه كان عجوزاً من جهة وصديقاً قديماً لزوجها من جهة ثانية .

انتزع مدالا قبضتين أخريين من العشب ثم توقف في تقرب وانتظار متكئاً بمرفقيه على ركبتيه . اعتقد أنه لن ينتظر طويلاً هذه المرة حتى يسمع أمر المراقب .

وفجأة أحسّ بالمرح . كانت تلك إحدى نوبات مرضه المألوف . فقد نسي ، وهو ينتظر بفنء صبر أمر المراقب . مايجب عليه تحاشيه . ضغط على نفسه وانكمش محاولاً عبثاً تجنب النوبة الجديدة . حاول ألا يأخذ شهيقاً فانتفخت أوداجه لدرجة شعر أنها تكاد تنفجر وتشنج بدنه . كانت قبضة العشب التي مازالت يدها متشبثين بها قد تفتت ناشرة رائحة قوية تزكم الأنوف . شعر مدالا بأن نوبة الألم قد مزقت حشوه ، لكنه عض على شفثيه بقوة كي لاتصدر عنه أنه واحدة .

قال العجوز لنفسه وهو يمد يده للامساك بقبضة عشب قريبة : « لماذا لا يأذنوا لنا ؟ منذ أن حان وقت الغذاء غدا الظل أطول بحجم الكف مرتين . . . » ، وفي سعيه للتشبث بأي شيء أطبق مدالا يده بقوة على مأمسك به ، ثم سقط على بطنه دون أن ييسط قبضته . ثم أحسّ تشنجاً في رجليه . .

بعد مضي بضعة دقائق شعر مدالا ، وهو منبسط على الأرض ، بهمود الألم . وهنا أغمض عينيهِ مترقباً زوال النوبة . ما أن عاد إليه وعيه حتى انتصب على ركبتيه وانتزع من التراب ما كان قد تفتت بين يديه من عشب . ألقى ما بيده جانباً متمتعاً بأسى : - لا أستطيع العمل راکعاً على ركبتي . . . ثم شرع يحصي عدد الجذور المقتلعة . . . واحد ! اثنان ! ثلاثة ! أربعة ! . . . ثم أرسل آهة أخرى متمتا بصوت امتزج فيه الألم بالشكوى - لا أستطيع العمل راکعاً على ركبتي . . .

ومع تنهيدة عميقة سقط العجوز على جنبه الأيمن وقلب على الأرض منكمشاً وضاماً ساقيه بيديه حتى لامست ركبته ذقنه . لكن مع ذلك كان يحس ببعض الرضى لأن الألم في أعماق جسمه قد هدأ . وضع في فمه آخر ساق نبتة قلعتها وراح يمضغها - إي شباب ! إلى الغذاء !

قفز مدالا بسرعة واقفاً على رجليه ، ثم قلع أربعة جذور أخرى على الفور : - سبعة ! ثمانية ! تسعة ! عشرة ! بعد ذلك مسح بكفه العرق من على جبهته فسالت القطرات المألحة مساقطاً بعضها على عينيهِ .

لم يشأ مدالا الذهاب فوراً كي لا يفكر المراقب بأنه مستعجل لترك العمل . فشرع يتطلع يميناً وشمالاً ، لكنه شعر فجأةً بها يشبه الوحزة في خاصرته . دار رأسه . نهض نجياناً وموتوكاتي أيضاً ورفعاً رأسيهما ، لكن المراقب صرخ بهما بغضب :

- تنتظران ترك العمل بسرعة وحسب . لا ينقصنا سوى تدليلكما .  
كان فيلمون الذي وقف بكل قامته قد أحنى ظهره ونجأ رأسه من جديد عندما سمع صراخ المراقب . لكن ما أن رأى مدالا واقفاً حتى تشجع ووقف ثانية . وبالتالي أطل تانداني ، جيمو ، موتانيبي . لكن كانت عيونهم مسمرة

يحذر صوب المراقب الذي صاح من جديد - الى الغذاء . . . وأغلق الكتاب الذي كان ممسكاً به ثم أردف هامساً وهو يلقي نظرة على صورة الغلاف - ومن يؤلف مثل هذه الكتب . . . كل عاهرة أضرب من أختها . .

سار المراقب في الامام ثم تبعه بصمت صفأً أحاديًا العمال الآخرون . شعر مدالا بالتعب ، فتوقف قليلاً ثم راح يتطلع في المدى : « ماشامبا كالبحر . . . سار الآخرون مبتعدين ، وكانوا يبدون بين أعواد الذرة كمن يمشي في البحر وقد غمرته المياه حتى وسطه .

وقف مدالا دون حراك وتسابح تفكيره متطلعاً في الأفق البعيد . . . « ماشامبا كالبحر . . . » شعر بألم في عينيه فخفض بصره وفركهما . . . « كلا ، البحر شيء آخر . . . في البحر لا يوجد عشب يتوجب قلعه . . . في البحر أسماك كالطيور في السماء . . . »

عندما وصل الى المعسكر كان الجميع هناك . حتى أن بعض مجموعات العمال قد فرغ من طعام الغذاء . كان أفراد جماعة الحراسة أول من تناول الطعام ، وهامهم الآن مستلقون في الظل للاستراحة ولتجديد القوى بعد الجهد المبذول منذ الصباح الباكر . أما مجموعة التعشيب فتأخر عادة ، وهامو طبائهم جوزيه يقوم الآن بإضرام النار .

اقترب مدالا من جدار أحد العنابر القديمة واتخذ مكانه في الظل بين عمال حظيرة الحيوانات . ما أن رأى العمال الشباب العجوز حتى أقبلوا عن الحديث حول النساء وتظاهروا بالجد . سأله أحدهم :

- مدالا ! كيف الحال عندكم في المجموعة ؟

لم يجب مدالا فوراً ، فكان من عادته أن يعيد السؤال في نفسه دوماً قبل إعطاء الجواب . قطع أحدهم صمت مدالا فأردف :

- الشمس حارقة اليوم .

- فعلاً حارقة . . .

لم يعثر مدالا بعدُ على جواب عن السؤال الأول وشعر أحدهم بضرورة متابعة الحديث فغامر قائلاً :

- لم ينزل المراقب عن ظهورنا طوال اليوم . . .

نظر مدالا بدهشة إلى الفتى المتكلم وحاول الانتباه بجذ إلى الحديث .

- مراقب حقير . . . يؤخر الناس دوماً ، لا يسمح لهم بالانصراف في

حينه ، أعرف ذلك بنفسي ، إذ عملت سابقاً في ماشامبا . لا يسمح لأي

إنسان أن يرفع رأسه ويريح ظهره ولولدىقة واحدة . . . ذات مرة عندما كنا

نعمل في ماشامبا مع هذا المراقب . . . صدقاً لا أكذب عليكم . . . كانت

الشمس حارقة وشعرنا جميعاً بالتعب . . . سأروي لكم القصة لتفتنعوا بأنه

حقير فعلاً . . .

تابع الفتى حديثه بحماسة أكبر مخاطباً الآن الجالسين جميعاً وليس مدالا

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

فقط .

نظر مدالا إلى المراقب الذي كان جالساً على صندوق خشبي في

الظل . كان أمامه صندوق آخر وعليه طناجر وصحون عدة ، وبدا يلتهم

الطعام بشره ويشرب النبيذ من فم الزجاجاة مباشرة . كان النبيذ أصفر كثيف

وبارداً . بدا ذلك له من الزجاجاة المتعركة . كان المراقب يشرب وقد جحظت

عيناه من السرور .

- مدالا ! - صرخ جيمو

- مدالا ! تعال إلى الطعام ! . . .

اتخذ أفراد المجموعات الأخرى أمكتهم في الظل . بعضهم لم يعرفه

مدالا ، لكنه كان معروف من قبل الجميع ، يحبونه دوم عندما يمرون به .

- مدالا ! لم أستطع أن أقول لك فوراً لأن المراقب كان جالساً هنا .  
- بنتك واقفة هناك بانتظارك .  
- اقتربت ماريأ أكثر  
- مرحباً يابابا !  
- أهلاً ماريأ !

- اقترب جيمو من ماريأ :  
- لقد أتيت على الفور أبحث عن أبيك لأقول له أنك هنا . لكن كان  
المراقب بالقرب منا . . . لذا لم أستطع إخباره إلا الآن فقط . . .  
- كيف الحال في البيت ياماريأ ؟  
- اذهب مع ابنتك إلى الظل يامدالا . . . هناك أفضل وتستطيعان  
التحدث براحة . . .

كان واضحاً أن جيمو معجب جداً بماريأ ، لكن يعرف مدالا أن ابنته  
نامت مع الكثيرين ، والان لا يرغب أحد بالزواج منها .  
- كيف الحال في البيت ؟  
- كل شيء على مايرام يابابا . أتيت فقط كي أراك .  
- وعندي كل شيء على مايرام يابابتي . . .

كان جميع الرجال الحاضرين يتطلعون إلى ماريأ ، تلتهم عيونهم  
جسدها المستور بالكابولان ، يحمونها وكل يحاول خطف التفاتة منها . لكنها  
ردت التحية دون أن ترفع عينيها عن الأرض .  
مرة ثانية اقترب جيمو منها :  
- لماذا لا تذهب لتناول الغذاء يامدالا ؟ نجيانا وموتوكاتي جهزوا كل  
شيء . اذهب إلى الأكل . . .

- سأبقى مع ابنتي قليلاً يا جيمو . . .
- ظهر من خلف زاوية العنبر المراقب مع سيجار بين أصابعه .
- إيه ماريا ! ماذا تفعلين هنا . . . أتريدن اصطياد مدالا ؟
- اسمعي ! مدالا عجوز لم يعد يصلح لشيء . أنت معجبة بجيمو ،  
أليس كذلك ؟
- أنا لأريد جيمو - شئت ماريا أن يكون جوابها باللغة البرتغالية .
- صار المراقب يحرك السيجار بين شفثيه .
- هل تودين النوم معه ؟
- صمتت ماريا خافضةً بصرها .
- اذهب لتناول الغذاء يا مدالا . . . حان وقت تناول طعام كل العاملين  
في ماشامبا . . .
- لم يجب مدالا فوراً / ظل لبعض الوقت ينظر في وجه ابنته محاولاً أن يرى  
كيف سيكون حالها وهي تتحدث مع المراقب <http://www.archive.org>
- بابا ! فعلاً يجب أن تذهب لتناول طعامك .
- بدأت ماريا تحفر التراب بأصابع رجليها الحافيتين ، وشبكت يديها على  
صدرها .
- اقترب مدالا من ابنته وحاول النظر في عينيها اللتين ظللتها رموش  
كثيفة .
- لماذا تتكلمين هكذا ؟
- عندما سمعت ماريا صوتاً قوياً غخوقاً قرب أذنها تماماً التفتت .
- هكذا ببساطة . لأدري . . .
- صمتت لثوان ثم قالت له بصوت أكثر ثقة :
- فعلاً يا بابا . يجب أن تذهب من أجل الطعام .

دار مدالا حول ماريا وجلس على الأرض طاوياً رجليه تحته . حاول من جديد أن يحدّق في عينيها شبه المغمضتين .

- أهذا ماتفكرين به ؟

- يجب أن تذهب لتناول الطعام - قالت له ماريا بنفاد صبر دون أن ترفع عينيها .

- معدتي لا تحس بالجوع بعد . . . وفتح مدالا ذراعيه مضيقاً : يمكن أن تتأكدي بنفسك بأن معدتي لا تطلب طعاماً . ألا ترين أنها ساكنة . لم تحب ماريا .

وأنت ألا تريدين أن تأكلي يا ابنتي ؟

- أكلت في المطعم تماماً قبل أن آتي هنا . عندما كنت أعبر الشارع دعاني أحد الأصدقاء للغداء . اشترى لي طعاماً كثيراً وقال : « خذي هذا كله لك » فأكلت .

فتحت ماريا عينيها بشكل واسع ، لكن فجأة شعرت بالخوف فأسبلت رموشها من جديد .

- فعلاً ألا تريدين أن تأكلي ؟ ألا تريدين تناول الطعام مع مجموعتي ؟ وهنا بدا صوت ماريا متهدجاً .

- كلا يا بابا . أنا شبعانة . سأنتظرك هنا حتى تنتهي من طعامك .

حاول جيمو من جديد إقناع مدالا :

- اسمع يامدالا ، ماريا صادقة في كلامها . وأخيراً وافق مدالا .

- حسناً . . . سأذهب للأكل . لكن انتظريني هنا . . . لاتغادري

المكان .

بعدما ذهب والدها رفعت ماريا رأسها وأخذت تتطلع ذات اليمين وذات الشمال . لكن مدالا كان يراها من مكانه وهو يأكل ، ولم يحوّل عينيه عنها طوال



الوقت . مع ذلك لاحظ بعد قليل كيف اقترب منها من الجانب الآخر المراقب .

أجابت ماريّا المراقب دون أن ترفع عينها . أراد مدالا ليعرف مايدور بينهما من حديث . صار يسأل نفسه كعادته :

« ماذا يقول الرجل للمرأة عندما يريد النوم معها ؟ » . لكنه لم يعثر على جواب .

بدا من الحديث كما لو أن ماريّا قد أغضبت المراقب ، لكن فجأة بدا متودداً ولطيفاً . أخرج سيجاراً من جيبه ، أشعله . صار يدخن ويتحدث وقد أحاطت به سحابة من دخان . أدار ظهره بعد ذلك إلى ماريّا واختفى وراء زاوية العنبر . بعد برهة قصيرة تبعته ماريّا .

أجهز مدالا ورسلاؤه في مجموعة التعشيب على ما قدم لهم من طعام في القدر الكبير . لم يشعر أحد منهم بالشبع ، لكنهم تركوا قطعة الفطيرة الأخيرة لنجيانا ومونوكاتي اللذين أعدا الطعام للمجموعة .

لحس مدالا أصابعه وفرك يديه ثم مرّهما على شعره . نهض عن المائدة ثم تبعه الآخرون . بقي لديهم قليل من الوقت للاستراحة قبل استئناف العمل في حقل ماشامبا . وهكذا بحث مدالا عن مكان ظليل ليستلقي بهدوء خلال الوقت القصير المتبقي .

كان أفراد مجموعة حظيرة الحيوانات قد فرغوا من طعامهم ونهضوا . رجع مدالا إلى مكانه قرب جدار العنبر القديم . كان هناك أيضاً ذلك الفتى الذي تحدث بحرارة عن المراقب . ما أن رأى مدالا حتى توجه إليه مخاطباً ، لكن بشيء من الهزء والسخرية هذه المرة :

- انظريامدالا ! ابتكت هناك خلف ذلك العنبر مع المراقب .

تلثس مدالا قبضة عشب قرب رجله اليسرى ، أمسك بها وشدها بقوة فاقتلعها من التربة .

اقترب جيمو .

- هل تريد أن أعمل معك معروفاً ؟

لم يجب مدالا .

خلف ظهر جيموسار في الطريق المؤدية إلى الحقل المراقب . وراءه على مبعدة عشر خطوات سارت ماريا مطرقة الرأس . تتبّعها مدالا بنظره وهو مستلق يحرك يديه بحثاً عن نبتة من العشب . لم يعثر على شيء ، لكن مع ذلك كان يطوي أصابعه ويشد عليهما كمن قبض على شيء يريد اقتلاعه . غيّرت ماريا المرحج الأخضر وتبعت الرجل السائر أمامها في حقول الذرة . عندما ابتعدت في عمق الحقل أسرع في مشيتها ورفعت رأسها دونها تكلف أو حرج .

توقف المراقب وسط دغل كثيف من الحشائش النامية والتفت إلى ماريا . توقفت هي أيضاً على مسافة قريبة منه .

- ألا تقبل مني معروفاً يا مدالا ؟

رأى مدالا كيف التفت المراقب إلى ماريا ثم لسبب ما تابع سيره . كان وهو يزيح سوق النباتات الطويلة بيديه كمن يعبر نهراً .

فكر مدالا أنّ عليه أن يعطي جواباً على سؤال جيمو ، لكن لم يعرف بماذا سيجيب تحديداً . تعبت يده وهو يطوي ويشد قبضتها على العشب المتخيل ، فأحسّ بشيء من التشنج فيها .

اختفى الرجل في الدغل الكثيف . رفعت ماريا يديها من جديد لتزيح أعواد الذرة الطرية ثم اختفت أيضاً في إثره . في المكان الذي اقتעדوه تحركت أوراق الذرة في أعالي الأعواد لبعض الوقت ثم هدأ كل شيء .

صاح جيموبقلق :

- مدالا ! ...

ثم صرخ بهائشبه الأمر :

- مدالا ! لا تنتظر إني هناك ...

أحسّ مدالا بانكماش وانقباض في داخله ثم دار رأسه ... لكن لم يكن ذلك إحدى نوبات مرضه ...

في الغيش الأخضر للدغل الكثيف رفعت ماريبا يديها ، لكن يداً قوية أنزلتها وضغطت على كتفيها . لم تدم المقاومة طويلاً . نزع المراقب الكابولان الذي كان يستر جسدها وألقى به أرضاً . عيثت أصابعه الغليظة بوركييه العاريتين . انتابتها قشعريرة سرت في كل أوصافها حتى خيل لها أنها قد أقيت في مغطس بارد .

حوّل مدالا نظره إلى جهة أخرى . لم ينظر أحد إليه في وجهه الآن ، لكن الجميع راقبوه بتلصص . أما ذلك الفتى العامل ضمن مجموعة حظيرة الحيوانات والذي شتم المراقب ، فقد وقف شبه مدهون وقد ارتسمت على وجهه تعابير العنف والانفعال .

يجلسون جميعاً الآن وكأن على رؤوسهم الطير . وحده جوزية طباخ مجموعة التعشيب سعل فجأة . عدا ذلك لم يتجرأ أحد على كسر ضوق الهدوء المطبق . كان المراقب بجسمه الأبيض قد ارتدى وسط حقل الدرة ظلالاً خضراء . برز وجهه الضخم ، الذي شوّه الشبق ملامحه ، مخيفاً أمام عيني ماريبا . بلّكت تهدياته الحارة شفّتيها نصف المفتوحتين ... أخيراً أغمضت عينيها واستسلمت لحركة الموجات الحارة .

كان مدالا في هذا الحين يحرك أصابع يديه ويضغط براحة كفه على الحشائش المتخيلة .

- لاتبك يا مدالا ! - قال جيمو

اقترب منه نجيانا وفيلمون ثم جوزية وماليسي ، وفي لحظة واحدة  
اجتمع حوله كل أفراد المجموعة العاملة معه في حقل ماشأبا . بعد لأي  
اجتمع هنا كل أفراد المعسكر .  
اهتزت أصابع يدي مدالا وكان كمن في غيبوبة .

- وماذا بعد يا ماريا ؟ - سألها المراقب بصوت مبحوح .  
شعرت بضيق في صدرها نظراً لثقل الجسم المتكوم فوقها وخالت الصوت  
أتياً من بعيد .

- لماذا فعلت ذلك ؟ ونظرت إليه بقرف .  
- ألم تكوني تريدين ذلك ؟ قال لها وهو ينهض مصلحاً وضع ثيابه .  
- إذن لا بأس انهضي !  
التمتعت عينا ماريا بأسي وسط هذا الغيش الأخضر :

- هذا عيب . . . كان من الأفضل ليلاً . . . رأى مدالا كل شيء . . .  
كان صوتها متهدجاً والدموع في عينيها . . . بكت مقهورة :  
- قلت لي في البداية تعالي نتفق فقط على موعد في الليل . . .  
- انهضي يا بنت . . . كففاك دلالاً . سأعطيك نقوداً .

خرج المراقب من عمق البحر الأخضر أولاً ثم سار باتجاه المعسكر .  
نهضت ماريا ونفضت التراب عن رداثها ثم سارت وراءه . كانت تسير  
رافعةً يديها لحماية وجهها من الاعواد المتمايلة التي يزيحها المراقب من أمامه بلا  
مبالاة .

أفسح عمال حظيرة الحيوانات الطريق لمرور ماريا . كانت ثمة صمت  
ثقيل يحيم فوق الجميع . اربد وجهه ذلك الفتى ضاق به مدالا ذرعاً

لكثرة كلامه . كانت تعابيره تنم عن حقد وغضب شديدين .  
 - الطقس حار اليوم يا مدالا . . . هناك حيث تعمل . . .  
 غامر مدالا ببضع كلمات بشكل عفوي :  
 - حقاً يا بني . . . حار جداً .  
 ومن جديد ران صمت ثقيل . وقفت ماريامطرقة الرأس . وأطرق كل  
 العمال الآخرين في الأرض دونها حركة .  
 تردد صوت الفتى من جديد :  
 - مدالا ! قل لنا مايجب علينا عمله . . . قل لنا ونهبي كل شيء بضربة  
 واحدة . . . يستطيعون قتلنا ، لكننا لانهاب الموت .  
 سمعت همهمات التأييد من قبل حشداً العمال المتجمهرين .  
 رفع مدالا رأسه وألقى نظرة خاطفة على وجوه رفاقه الغاضبين .  
 - رأينا يامدالا ما فعل مع ابتك . . . أحام عينيك . قل لنا ما العمل !  
 حلق الفتى في غني العجز بشيء من التوسل آملاً أن يرى فيها ولو  
 شرارة من غضب . . .  
 لكن بدا وكأن نفس مدالا في سبات ،  
 ظهر المراقب من خلف زاوية العنبر القديم . التفت إلى ماريام وألقى لها  
 قطعة معدنية قائلاً :  
 - خذي هذا مالك عندي ! . . .  
 حررت ماريام يدها التي خبأتها تحت رداؤها . لكن سعل أحدهم فجأة  
 فسحبتها وخبأتها ثانية . وبعد أن رأت قطعة النقود شبت يديها على صدرها  
 ضامةً كتفيها بقوة .  
 - مابك ياماريا - ونظر إليها بازدياء واستغراب .  
 استدارت ماريام إلى الجهة الأخرى وألصقت وجهها بالجدار .

بقي مدالا طوال الوقت ينظر إلى ابنته بوجوم .  
وضع المراقب يده على خاصرته وقهقه بصوت عال :  
- مابك يا صغيرة . . . لا تريد أن أخذ النقود ؟ أخافين أن يعرف الشاب  
أنك مومس ؟

ضغطت ماريا بيديها المتصاليتين على صدرها ، أنشبت أظافرها في  
كتفها وبكت بصوت مخنوق :  
- رآنا مدالا . . . مدالا رأى . . .

- وماذا في الأمر ؟ - فتح ذراعيه مبديا الخيرة والاستغراب .

- مدالا أبي . . . أبي .

تسمرت عيون العمال في وجه المراقب وشرارات الغضب تقدح منها .  
وقف المراقب أمامهم في حيرة وقد اصطبغ وجهه الأصفر بلون الدم .  
ما هذا ؟ من أين لي أن أعرف أنك ابنة مدالا . والله لم أكن أعرف  
ذلك . مدالا ! صدقاً لم أعرف أن عندك ابنة جميلة هكذا . . . أنا . . .  
أنا صديقها . . .

غدا صمت العمال أشبه بنذير الشؤم الذي يتهدهده ، فاقترب منهم  
مخاطباً مدالا :

- مدالا . . . بإمكانك أن تستريح الان . لاداعي لأن تعمل اليوم  
أكثر . استرح هنا في المعسكر إذا أردت وتحدث مع ابنتك قدر ما تشاء .  
أطرق مدالا في الأرض بكآبة . ضغط أصابعه على راحة كفه بقوة وكأنه  
يحاول معرفة ما إذا كان جذر العشب المتخيل ضاربا في التراب بشكل متين .  
بقي العمال على صمتهم العميق والغاصب . أحس المراقب بالخوف ،  
فقال متأنثاً وهو ينظر نحوهم بشيء من التوجس والترقب .  
- ياللمصيبة ! . . . من أين كان لي أن أعرف ! مدالا ! سأعطيك نقوداً

وبإمكانك الذهاب مع ابتك إلى المطعم .  
تفحص المراقب سحنة مدالا لعله يرى أي تعبير ذا معنى في نظرة هذا  
العجوز الكثيرة .

لكن مدالا أطرق في الأرض بشكل أخفض .  
رجع المراقب إلى الخلف بحذر ، استدار ثم أسرع واختفى وراء زاوية  
العنبر .  
في هذه الأثناء كسر طوق الصمت ذلك الفتى من عمال حظيرة  
الحيوانات :

- مدالا ! رأينا جميعاً ما فعله مع ابتك هنا ، وأمام عينيك . . .  
عبر العمال الآخرون بصمتهم عن موافقتهم على هذا الكلام . أسبلت  
ماريا يديها وأجهشت في البكاء . خفض مدالا بصره ، لوى عنقه إلى أمام  
حتى أسند ذقنه على صدره .  
ظهر المراقب من خلف زاوية العنبر ويديه زجاجة نبيذ . صاح بنبرة  
واثقة :

- هيا يا عمال ! إلى العمل ! حان الوقت . . . هيا اسرعوا سائقوا  
الجرارات إلى ضفة النهر ! عمال البستنة إلى حقل الملفوف ! عمال الحظيرة إلى  
سقاية الماشية ! عمال التعشيب هيا اتبعوني ! . . .

بقي العمال واقفين كالجمادات . . . أخيراً بسط مدالا أصابعه  
وراح يفرك يديه .

ألا تسمعوني ؟ هيا اسرعوا ! انتهت فرصة الغذاء . وفجأة وقع نظره  
على الزجاجة في يده .  
- مدالا ! خذ !  
نهض العجوز .

- وأنتم ألا تسمعون ؟ هيا تحركوا إلى العمل !

تناول مدالا الزجاجاة المقدّمة له .

- تحركوا ياكسالي ! إلى العمل يأنذال !

كانت أبصار العمال جميعاً شاخصة إلى مدالا . خرج الفتى العامل في حظيرة الحيوانات من بين الصفوف إلى الأمام :

- مدالا !

ألقي مدالا نظرةً على الوجوه الغاضبة المحيطة به . كان في الزجاجاة بقايا نبيذ أصفر عكر ، رفعها إلى فمه وشرب ما فيها دفعة واحدة مبللاً ذقنه ورقبته ثم أعادها للمراقب .

- إلى العمل يا أولاد القحبة !

واهترت الاعمدة الصامتة . صار الصمت الآن صمت هزيمة .

تابعت ماريا ماييجري بقلق ورعب .

رفع المراقب يده ماسكاً الزجاجاة الفارغة من عنقها .

- أولاد القحبة !

بصق الفتى العامل في حظيرة الحيوانات أمام قدمي مدالا وصرخ :

- كلب !

لكن مدالا لم يفهم الاهانة . استدار وخطا بخضوع صوب الطريق

المؤدية إلى حقل الذرة . وتبعه نجيانا وفيلمون .

التفت جيمو إلى العمال :

- دعونا نذهب .

- هيا ، هيا ! أسرعوا ياكلاب ! صرخ المراقب بنبرة واثقة ومتوّعدة .

تحرك العمال جميعاً وراء جيمو عدا ذلك الفتى الذي بصق في وجه

مدالا . لبث واقفاً بعناد .



نظر إليه المراقب بعينين متوحشتين وهوى بالزجاجة على رأسه صارخاً  
- هيا أسرع ! وسقط الفتى أرضاً .  
انحنى مدالاً وأمسك بقبضة من العشب . شدها قليلاً لمعرفة ما إذا  
كانت ذات جذور متينة في التربة ، ثم راح كعاداته يهوي بجسمه إلى الخلف إلى  
أن اقتلعها من الجذر . ألقى ما بيده على كومة العشب . الذابلة التي جمعها قبل  
الظهر . شخص يبصره إلى عمق الحقل فرأى جيمو ، فيلمون نجيانا ،  
موتوكاتي ، تانداني وموتامبي كل في مكانه . تنهد واستأنف العمل .  
عبر هذا المحيط الأخضر الضخم الذي تسكن أعباقه أسماك صامته  
غريبة سرت رعدة خفيفة . وروت الموجات التي ارتفعت ثم هبطت عن سر  
سكان قاع المحيط .





## الكس لاغوما

ولد ألكس لاغوما في كيثاون (جنوب افريقية ) سنة ١٩٢٥ ، وينتمي ، حسب تقسيم الناس انطلاقاً من لون الجلد المعمول به في وطنه ، إلى الملونين . كان أبوه جيمي لاغوما سياسياً مرموقاً ، مناضلاً ضد التفرقة العنصرية ، وشغل مركز رئيس مؤتمر ممثلي الشعوب الافريقية الجنوبية الملونة . سار ألكس لاغوما على خطى والده . ناضل ضد التفرقة العنصرية واعتقل مرات بسبب ذلك ، وقضى فترات طويلة في الرنزانات ، تحت الإقامة الجبرية وفي المنفى . ألف ألكس لاغوما الكثير من القصص

القصيرة ، بضع روايات ، والعديد من المقالات النقدية الأدبية .  
لكن أعماله متنوعة في بلاده . الموضوع الرئيسي لأعماله الفنية هو  
العلاقة بين الناس من مختلف الأجناس والعروق بشتى تجلياتها ،  
من الحقد المرضي وحتى الحب الذي يصل حد نكران الذات .  
وحول هذا الموضوع تدور مسرحيته القصيرة : إنسان على  
الشجرة .

تبدأ المسرحية بهدوء ، ببساطة وعفوية . ثم تتابع بمهارة  
حتى الانفجار المفاجيء القصير . تبدأ « باطلالة رائعة على  
الحديقة » ، « يا له من مكان مريح وفسيح » ، « نوافذ مظلة على  
الحديقة » . لكن ها هو إنسان على شجرة ! وهذا يقلب كل شيء  
رأساً على عقب .

ARCHIVE  
<http://Archives.Sakhrit.com>

### شخص المسرحية

- السيد مايلز : سمسار عقارات

- بيت هزلىر

- إينغريد : زوجته

- أفرام : عجوز من « الملونين »

( وقع خطوات على الشرفة )

مايلز : وهكذا وصلنا ، انظروا كم هي فسيحة هذه الشرفة . انها تمتد على طول واجهة المنزل .

إيني : فعلا المكان لطيف بما فيه الكفاية ، اطلالة رائعة على الجبال .

مايلز : بالضبط . وبالجمال هذا المكان صيفا ياسيدة !

هزلر : انتظروا قليلا سأحضر المفتاح .  
( تبين أن الباب غير مقفل )

تفضلوا اسمحوا لي بالدخول أولا لأدلكم على الطريق .

تعالوا نلقي نظرة على البيت ثم نهبط الى الحديقة بعد ذلك .  
لا تغلقوا الباب فالمكان يحتاج الى بعض التهوية .

إيني : ياله من مكان مريح وفسيح ، أليس كذلك يا بيت ؟

بيت : حقاً يا إيني انه لطيف جداً .

مايلز : أنا واثق سيعجبكم المنزل . قلت لكم ان محطة الباص قريبة من هنا وكذلك المخزن .

هذه غرفة المدخل ، هنا يمكن وضع خزانة الملابس .

بيت : وهل جرت اصلاحات هنا ؟

مايلز : طبعاً . جرى اصلاح شامل للمنزل بعد أن غادره مالكوه

السابقون . كان قبل الاصلاح في حالة جيدة . لكننا أعدنا طلاءه من جديد وغيرنا صنادير الماء . ويستطيع المالكون الجدد - إذا ما شاؤوا - أن يغيروا كل شيء حسب ذوقهم . الى هنا من

فضلكم . هذه غرفة الاستقبال .

بيت : قدنا ياسيد مايلز .

إيني : عاش هنا ملونون ، اليس كذلك ؟

مايلز : عفواً ماذا قلت ؟

إيني : ألم يكن المالكون السابقون من الملونين ؟

مايلز : آه . . نعم . لكنهم اناس محترمون . كان عليهم ان يغادروا من كل بلد . فالقضية ان هذا الحي قد غدا بموجب القانون الجديد « للبيض » لكن كما ترون فقد نظف البيت وأصلح بعد مغادرتهم له .

بيت : أرى ذلك فعلاً . وقد غادروا جميعاً ، أليس كذلك ؟

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

مايلز : تعني الجيران ؟ نعم أصبح الشارع كله نظيفاً . وبالمناسبة فجميع البيوت هنا قد بيعت لساكنين جدد ، وهذا آخرها . وهكذا فلا داعي للخوف أو القلق مطلقاً ياسيد هزلر .

إيني : يبدو انهم كانوا اناساً جيدين . تعجبني هذه الحجرة انها كبيرة مضيئة .

مايلز : حقاً ، بعض الملونين لطيفون جداً كبشر . نوافذ هذه الحجرة ، كما ترون ، تطل على الشرفة . اطاراتها من الحديد المقاوم للصدأ وتفتح على مصراعيها ،

بيت : حجرة جيدة ويدخلها الهواء . ما رأيك يا إيني ؟

إيني : نجعل هذا المكان ردهة استقبال . رأيت في المخزن ستائر صغيرة مناسبة لها تماماً .

مايلز : ( مبتسماً بخبث ) أرى ياسيد هزلر أن ربة المنزل قد اتخذت قرارها .

بيت : ها - ها وما لهذه السقوف ؟

مايلز : انها في حالة جيدة . اعتقد أن المالك السابق نفسه كان يمتهن البناء .

بيت : ألايمكن أن نستدعي مهندساً معمارياً لنكون مطمئنين تماماً ؟

مايلز : مهندس معماري ؟ طبعاً في أي وقت تشاء ياسيد هزلر . والآن الى هنا من فضلكم . هذه هي حجرة للنوم ويوجد بالاضافة لها اثنتان أخريان ، نوافذها تطل على الحديقة وهذا هو المطبخ .

إيني : آه . . رائع جداً .

مايلز : فعلاً ليس ذلك جنة بالنسبة للسيدة هزلر ؟ مطبخ عصري ، ماء ساخن وبارد ، نافذة عريضة تطل على الحديقة ، حديقة رائعة ، لكنها مهملة بعض الشيء . يمكنكم مستقبلاً تسوية كل شيء حسب ذوقكم . لايمكن معاينة مثل هذه المناظر الطبيعية الا في افريقيا الجنوبية .

بيت : لا استبدلها بأي شيء في الكون .

إيني : من هنا سأستطيع رؤيتك يابيت وأنت تقص العشب . انه عمل مفيد لك .

- بيت : من الصعب المرور من هنا فالنبات طويل وكثيف .
- مايلز : الحديقة مهجورة ولذا نمت فيها النباتات الطفيلية . مساحة كبيرة حوالى خمسين الف قدم بالاضافة الى عنبر . ها . . ها .
- إيني : انظروا ياها من شجرة ضخمة .
- مايلز :
- شجرة تفاح . وتطل على حجرة النوم .
- إيني : مثمرة ؟
- مايلز : ( ساخراً ) لست متأكداً ، لا أعرف تماماً .
- إيني : سنزرع خلف المنزل جنائن أزهار . في الحقيقة لن تتمكن يا بيت بمفردك من كل ذلك .
- سنجد من يساعدك في ذلك .
- بيت : لانفكري يا إيني أني سأنظف هذا الدغل وحدي .
- مايلز : أنا واثق أن السيدة هزلر ستقدر هذا الأمر بنفسها .
- إيني : سأتركك يا بيت مع السيد مايلز وأذهب الى الحديقة فأنا نشأت في القرية وأحب الطبيعة . هل الباب الخلفي مقفل ؟
- مايلز : هناك مزلاج ياسيدة هزلر . سأساعدك في ذلك ( يزيج المزلاج ويفتح الباب ) .
- بيت : إياك أن تتعثري بالدرجات ، كوني حذرة يا إيني

**إيني** : لاتقلق ياعزيزي لست طفلة . ( يسمع وقع خطواتها على عتبة الدرج الخلفية ، وكذلك حفيف الأعشاب ) . سنحرق النبات الطحلي ، نقص العشب وستبقى عندنا روضة مخضلة ، وهذا مكان للهاكورة ، سأزرع هنا البطاطا والجزر ، يا إلهي ماأكثر النباتات السري ، وهذه شجرة التفاح الكبيرة . هومة جداً متقصصة . لوكان أبي حياً لاعتنى بها وأحياها . كان بستانياً أصيلاً . بقعة لابس بها . بوجه خاص الآن بعد أن هجروا الملونين . سنرى فيما اذا كان بيت سيقرر في النهاية . لاضير يا اينغرد ستستطيعين إقناع هزلر إذا احتاج الأمر اقناعه . وهذا هو العنبر . سنراه الآن . . .

( يسمع صوت افرام . يغدو أعلى وأوضح مع اقتراب اينغرد من العنبر ) .

**افرام** : . . . . . لابس ياسيد ادوار . سترى ان كل شيء سيكون على مايرام . سنبقى معاً هنا ياسيد ادوار في كل الأحوال . نعم ياسيد ادوار ابق على الشجرة قدر ماتشاء . لن يطردك أحد . . .

**إيني** : من هنا ؟ إني اخرج من هنا وإلا صرخت للرجال .

**افرام** : لن يطردك أحد ياسيد إدوار . . . ماذا ؟ من هناك ؟  
( يفتح الباب ويسمع صرير له )

أوه عفواً يامدام ، ساعيني من فضلك . نهارك سعيد يامدام .

**إيني** : ماذا تفعل هنا ؟ هذا منزل ، ملكية خاصة - للبيض فقط . ماذا ؟ هل كنت تعيش في هذا العنبر ؟

**افرام** : يعني تقريباً يامدام . حرست المنزل . هل ستستدعين الشرطة ؟



- إيني : كنت تحرس المنزل ؟
- افرام : يتسلق الأولاد على السياج ويرمون النوافذ بالحجارة .
- إيني : وهل أنت حارس ؟ السيد مايلز لم يقل لنا شيئاً من هذا القبيل .
- افرام : يعني تقريباً يامدام . كنت أعمل عند أصحاب هذا البيت السابقين ، اساعدهم في أعمال المنزل . كانوا يطعمونني ، يعطونني الملابس وكذلك بعض النقود في أيام الجمعة . عشت عندهم سنوات عديدة ، ثم رحلوا بعدئذ .
- إيني : هذا مفهوم . لكن غير مسموح لك أن تبقى هنا . هل تسمع ؟
- افرام : آه مدام ، لم استطع مغادرة المنزل وترك العجوز السيد ادوار وحده . رحل الجميع وتركوه .
- إيني : سمعت وكأنك كنت تتكلم مع أحد ما في العنبر . قل للسيد ادوار هذا ان يخرج من هناك على الفور .
- افرام : من أين ؟ أوه كلا مدام ، لأأخذ هناك .
- إيني : يا إلهي بماذا تهرف . منذ دقيقة سمعتك تتكلم مع أحد ما في العنبر ، والآن الآن قلت لي ان هناك سيداً ما . . . ادوار أو ماشابه .
- افرام : مدام هذا أنا فقط العجوز افرام ، أنا هنا وحيد . أحياناً أتكلم مع نفسي . ولا يوجد أحد آخر هناك مدام .
- إيني : كذاب ، عجوز محتال ، هيا دعني سأرى بنفسي .
- ( يسمع صرير الباب )

فعلا لا أحد هنا ، فراش عتيق ويعض الصرر فقط .  
( ملتفتة الى افرام ) مابك ؟ معنوه ؟

افرام : ساعيني مدام . قلت لك إني أشعر بالضيق أحيانا . فأنا وحيد  
هنا .

إيني : مادمت تحس بالوحدة انصرف من هنا قبل ان تجني على نفسك  
ما لايسرك .

افرام : أرجو عفوك وطيبك مدام .

إيني : يتكلم مع نفسه - سمعته بأذني . من هو ادوار هذا ؟

افرام : السيد ادوارد مدام . صاحب المنزل .

إيني : تعني مالكة السابق ؟  
  
<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

افرام : نعم ، مدام .

إيني : لماذا لم ترحل هه ؟ فالحكومة أمرت بأن تنصرفوا جميعاً من هنا ؟

افرام : لم لم أرحل معه ؟ كلا مدام لم يكن ممكنا فالسيد ادوار لم يرحل الى  
أي مكان .

إيني : لم يرحل ؟ مالك تهذي أيها المغفل وأين هو برأيك ؟ لاوجود له لافي  
العنبر ولا في البيت .

إفرام : نعم مدام ، أردت أن أقول لك أن السيد ادوار قد مات هنا .

إيني : مات هنا ؟

افرام : نعم مدام . وحول هذا كتبت الصحف . السيد ادوار شئت نفسه مدام ...

إيني : شئت نفسه ؟

افرام : نعم مدام ، على هذه الشجرة .

إيني : على شجرة التفاح ؟

افرام : نعم مدام .

إيني : يا إلهي ، وبسبب أي شيء ؟

افرام : السيد ادوار ، مدام ، عاش هنا طوال حياته وعاش أبوه وأمه في هذا البيت . بعد ذلك أعلنت الحكومة إن هذا الحي سيكون للبيض وأن على الملونين أن يرحلوا عنه . لكن السيد لم يستطع الرحيل من هنا . لم يقو على مغادرة منزله القديم . وفي الصباح مع حلول الموعد النهائي ، انتحر ، علق نفسه على هذه الشجرة .

إيني : لأنه لم يشأ الرحيل ؟

افرام : نعم ، مدام ، كان ذلك مرعباً ، رحلت السيدة ادوار وأطفالها الثلاثة .

إيني : ولماذا ؟ ماذا استفاد من وراء ذلك ؟ ياله من غباء . . كان مجنوناً على ما يبدو . .

افرام : ربما ، مدام ، كنا والسيد ادوار صديقين حميمين جداً . قال الناس انه فعل ذلك كعلامة . . احتجاج .

إيني : احتجاج ؟ وهل تفهم في هذه الأشياء ؟ « احتجاج » - هذه كلمة خطيرة جداً .

افرام : بلى ، مدام ، هكذا قال الناس . وفعلاً يبدو أن السيد ادوار انتحر احتجاجاً . عندما احضروا له الانذار قال « كيف يجوز أن تسلب الحكومة الناس بيوتهم هكذا بدون سبب ؟ كان عمره أقل من الستين بقليل ، وكان منزله غالياً على قلبه . .

إيني : ما العمل ، يجب أن نمثل لأوامر حكومتنا . أه يعني ان السيد ادوار شق نفسه على شجرة التفاح هذه ؟ فظاعة !

افرام : بلى ، مدام ، على هذه الشجرة ذاتها .

إيني : لكن لماذا كنت تردد - فأنا سمعت هذيانك - انه يستطيع البقاء على الشجرة قدر مايشاء ؟ ما هذا الهذيان ، وكأنه لم يرحل الى أي مكان ؟

افرام : أو مدام ، أتصور أحياناً وأنا وحيد هنا أني أراه ، إنه مازال معلقاً على الشجرة .

إيني : أنت مجنون أيضاً . مازال معلقاً حتى الآن انظر - لاأحد هناك ، لاأحد معلق على الشجرة . عموماً تحصل أوامم مختلفة للناس . وقد حصل معي شخصياً مايشابه ذلك . ذات مرة خيل لي إنني أرى احصنة تعدو في السهب ، لكن لم يكن ذلك في الواقع سوى ظلال غيوم . وفي حينه سخرت أمني من خيالي .

افرام : بلى ، مدام ، يحصل ذلك من الوحدة . أشياء كثيرة تقفز إلى الرأس . كنت والسيد ادوار صديقين حميمين ، ومازلت أتخيله

معلقاً على الشجرة . ربما لاننا كنا أصدقاء .

إيني : كفى ! اقلع عن هذا الهراء واغرب من هنا . هل تسمع ؟ لن تكون مسروراً اذا ماجاء زوجي ورأك هنا .

افرام : بلى مدام ، وخصوصاً اليوم ، في آخريوم من الشهر .

إيني : ماذا تقول ؟

افرام : دائماً في آخريوم من الشهر أرى المسكين إدوار على الشجرة .

إيني : هذا كله هراء . ذات مرة تصورت اني أرى كنيسة على قمة جبل ، لكن تبين أن ذلك ليس سوى كومة صخور . وبالنسبة لماذا يحصل ذلك في آخريوم من الشهر تحديداً . ربما تكون سكراناً دائماً في مثل هذا الوقت . أليس كذلك ؟

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

افرام : كلا مدام . ففي آخر الشهر تماماً تنقضي المهلة لاستكمال التهجير . رحل جميع سكان الحي عدا المسكين ادوار . حاول اقاربه اقناعه ، لكنه لم يشأ الاستماع لأحد . اقترب الموعد - مع ذلك كانت الشرطة ستلقي الجميع في الشارع في حال عدم طاعة الأوامر - صارت الاسرة تستعد لمغادرة المنزل عدا المسكين السيد ادوار الذي ظل جالساً يفكر بأمر ما . وفي آخر صباح نهض السيد ادوار باكراً خرج الى الحديقة عندما كان الجميع نياماً بعد وانتحر .

إيني : والآن يترأى لك في كل آخر شهر معلقاً على الشجرة ؟ ( تفهقه بصوت عال ) . أنت على ما يبدو تكون سكران وقتلداً تماماً . ربما لاتفارقك الزجاجة أبداً ، أليس كذلك ؟

- افرام : كلا كلا مدام أنا . . .
- بيت : ( من بعيد ) اينغرد ، أين أنت ؟ نحن جاهزون ، أي من معك هناك ؟
- مايلز : ماذا يعمل هذا الرجل هنا ؟ هل أساء اليك ياسيدة هزlr ؟  
( أصوات الرجال تغدو قريبة ويسمع حفيف الأعشاب )
- بيت : من هذا ، من هذا العجوز المنحوس ؟
- مايلز : ماذا تفعل في بيوت الغير ؟ بأي حق أنت هنا يا حيوان ؟
- افرام : سامحوني أيها السادة . أنا ذاهب الآن . فقط كنت أتكلم مع السيدة .
- إيني : ( تفهمه ) قص لي حكايات عن تحيلاته . لقيته في هذا العنبر .
- بيت : كان يجدر بك أن تكوني أكثر حذراً .
- إيني : ولكنه غير مؤذ .
- مايلز : عم تحدثت ؟ ماذا اختلقت أيها السافل ؟
- افرام : سامحوني ياسادة .
- مايلز : اخرس ! أمل ألا يكون قد تحجراً على فعل شيء ياسيدة هزlr . لم أكن أظن أنه . . .
- إيني : لا تقلق . لكن أمره غير عادي .
- بيت : غير عادي ؟

إيني : كان يعمل ، على ما يبدو ، لدى أصحاب البيت السابقين - لدى هؤلاء الملونين . يظهر أن عند بعضهم خدماً .

مايلز : بلى عند بعضهم أحياناً .

إيني : هذا العجوز المنحوس عمل خادماً لديهم . يقول أنه عندما حان موعد رحيلهم من هنا شق صاحب البيت السيد ادوار نفسه في الحديقة على هذه الشجرة . لم يقو على مفارقة منزله الغالي .

بيت : ربما لم يكن في كامل عقله . هل يعقل أن يتحرر الإنسان لسبب تافه كهذا ، ولقد افردت لهم الحكومة أحياء أخرى . ألم تسمع بذلك ياسيد مايلز ؟

مايلز : آآ نعم . حول موضوع كهذا كتبت الصحف شيئاً ما على ما أعتقد . لكن - لا علاقة لنا وإياك . يمثل هذا الأمر - سمعت ان التحقيق قد توصل الى أنه فعل ذلك وهو في حالة اختبار .

بيت : يتحرر بسبب تغيير مسكنه وعلى كل حال لا أنا ولا أنت من يصدر هذه القوانين .

مايلز : بالضبط . الحكومة أعلنت ان هذا الحي « للبيض » وعلى « الملونين » الانتقال الى مكان آخر ، وهذا كل ما في الأمر .

إيني : لكن هناك أمر آخر . فالعجوز يؤكد بأنه يرى - أوبالاحرى نجيل له - في آخر كل شهر سيده السابق معلقاً على الشجرة .

مايلز : ماذا تقول أيها الشيطان . لقد نفد صبري . اغرب عن وجهي وإلا استدعيت الشرطة .

- إيني : اتركه ، اطلق سبيله ، أرجوك سيد مايلز .
- مايلز : لأجلك فقط ياسيدة هزلر . إني بوي انصرف ! هل تسمع أيها الغبي !
- افرام : نعم سيدي ، حسناً سيدي ، سيرحل العجوز افرام ، اسمحوا لي فقط بأخذ أشيائي ياسادة .
- مايلز : لكن اسرع هيا .
- ( يسمع صرير باب العنبر ، افرام يجمع خرقة ويتردد صوته باكياً في الداخل )
- افرام : سيرحل العجوز افرام أيضاً ياسيد ادوار . ساعني سيد ادوار أرجوك . . . سارحل .
- مايلز : مع من يتكلم هناك ؟
- إيني : لقد تطلعت فلم أر أحداً . يبدو أن العجوز لشدة حزنه ووحشته يتكلم مع سيده الميت . يتصوره حياً .
- بيت : يا لها من وقاحة .
- إيني : ويظهر في آخر كل شهر .
- مايلز : هذا أمر مضحك وحسب سيده هزلر . ولا استغرب اذا ما سمعت أن المحرضين من « الملونين » يحكيون المؤامرات .
- بيت : وأنا لا أستغرب . فهؤلاء الملونون والسود جن جنونهم .



- مايلز : آمل الا تؤثر هذه الحادثة على قرارك سيده هزلسر . فقد اتفقت وزوجك على كل شيء .
- إيني : طبعاً لن تؤثر . كانت ثروة طريفة وحسب من قبل هذا العجوز . واضح انه مخبول . ألا تذكر يا بيت كيف سخرتما أنت وأمي مني عندما قصصت لكما مثل هذه الرؤى .
- افرام : وداعاً سيد ادوار . لاتبال ، كل شيء سيكون على مايرام ، سترى ذلك ( يخرج من العنبر ويلتفت الى الناس البيض ) سامحوني من فضلكم فقد ازعجتكم .
- إيني : مارأيكم . . هل نتركه حارساً للحديقة ؟
- بيت : لا لا لا ينقصنا سوى الملونين المجانين هنا . سنجد خادماً عاقلاً .
- مايلز : وأنا لانصحك به ياسيده هزلسر .
- افرام : وداعاً مدام ، وداعاً ياسادة .
- مايلز : انصرف ! تحرك بسرعة . . .
- افرام : ( يتعد صوته ) مساكين نحن . يطاردوننا أبدا . .
- بيت : وهكذا خلصنا .
- مايلز : آمل الا يكون قد ازعجكم . لا يعرف الانسان ماينتظره من هؤلاء . تمادوا كثيراً . والآن سيد هزلسر بقي أمامنا تحرير العقد .
- بيت : مارأيك اينغرد ؟ اعتقد أن المنزل مناسب لنا .
- إيني : وأنا أوافقك الرأي . المنزل واسع . حول السعر . آمل الا يكون

غالياً . غرفتنا نوم . سيكون بوسع الماما أن تضيفنا أحياناً .

بيت : يا إلهي . . . قرار نهائي سيد مايلز .

مايلز : رائع والآن سنقفل المنزل اذا سمحتم ونذهب الى المكتب ،  
اسمحوا لي أن اتقدمكم مرة ثانية

★ ★ ★

إيني : صباح الخير يا عزيزي . الساعة صباحاً الآن . ها قد أحضرت  
لك القهوة وجريدة اليوم .

بيت : ( متاثراً ) صباح الخير عزيزتي . كيف حالك ؟

إيني : استرحت بعض الشيء بعد وعكة الباردة . لانستطيع ترتيب كل  
أمرنا في يوم واحد ، لكنني متفائلة .

بيت : بقي أن نعلن عن حاجتنا الى خادم ، بعدها تنتهي متاعبك .

إيني : مرحى ! مرحى ! رائع . كيف حال جيراننا . فهم أيضاً من  
السكان الجدد ، اعتقد أن الاسرة التي تقطن في المنزل المجاور من  
الناس الجيدين .

بيت : أولئك الذين يركبون الميكروباص ؟ كنيتهم - بيرس . تحدثت مع  
رب الأسرة . انه مهندس .

إيني : هكذا ؟ أما أنا فتحدثت مع السيدة كارلسون وعلمت أنها تتقن  
حرفة التنجيد .

بيت : بالمناسبة ، ازيحي ستارة النافذة ، دعينا نقرأ ما تكتبه صحيفة اليوم .

إيني : دقيقة واحدة :  
( تسمع خشخشة صفحات الصحيفة ووقع اقدام إيني التي تقترب من النافذة وتزيح الستارة ) .

بيت : شكراً . لنر ما الجديد في الأخبار . هذه اعلانات عرض بيوت للبيع .

إيني : ( مع قهقهة ) صرت معتاداً بشكل عفوي ياعزيزي على تقليب صفحات الاعلانات . لم يعد ثمة داع الآن . صار عندنا بيت .

بيت : ( مبتسماً ) طبعاً بشكل عفوي . بالمناسبة ماتاريخ اليوم ؟

ARCHIVE  
http://Archivebeta.Sakhrif.com

إيني : لماذا ؟ عيد ميلادك بعيد .

بيت : اليوم آخر الشهر . يجب دفع القسط الأول للسيد مايلز .

إيني : آ . . . بالطبع

بيت : آ . . . كيف الطقس اليوم ؟

إيني : صباح رائع ياعزيزي . . يجب أن نعمل طوال اليوم في تنظيف الحديقة .

بيت : يجب استئجار عامل لهذا الغرض . لكن لم نرحتى الآن ماتكتبه الصحيفة ( خشخشة صفحات الصحيفة ) . . .

إيني : ( بصوت مرتعد ) بيت !

- بيت : نعم ماذا ؟  
إيني : بيت ! . . انظر انه هناك في الحديقة .  
بيت : في الحديقة ؟ ماذا في الحديقة ؟  
إيني : ( بصوت قريب من الصراخ ) هناك على شجرة التفاح .  
بيت : ماذا حصل يا عزيزتي ؟  
إيني : على الشجرة . بيت ! هناك ! معلق ! إنسان معلق على  
الشجرة ،





د. عبدالنبي اصطفی

أولادیل تیوو

الثقافة والرواية النيجيرية\*

ماكملان ، لندن ، ١٩٧٦ ، ٢٣٥ ص

إذا عرف المرء أن هذا الكتاب هو أول كتاب يكرس للرواية النيجيرية ، وأنه كتب من قبل داخل عرف بطول باعة في حقل الدراسات الأفريقية ، فإنه يستطيع أن يدرك أهميته كخطوة متقدمة في تاريخ نقد الأدب الأفريقي .

ومن الجدير بالذكر أن الدكتور أولادیل تیوو قد تلقى تعليمه الجامعي في جامعة دَرم في انكلترا ، ودرس التربية فيما بعد

Olade le Taiwo

Culture and the Nigerian Novel

Macmillan, London, 1976.

في كلية ترينتي في دبلن ، ثم تقدم برسالة دكتوراة عن الرواية النيجيرية إلى جامعة ستيرلنغ في اسكتلندا ليعود بعدها إلى لاغوس ويدرس اللغة الانكليزية وأدائها في جامعتها حيث يشغل منصب أستاذ محاضر فيها . وللدكتور تيوو- إضافة إلى مقالاته العديدة عن الأدب الأفريقي - حوالي اثنا عشر كتاباً مدرسياً تدرس في نيجيريا وسواها من الأقطار الأفريقية . وهو معروف بشكل خاص بكتابته « مدخل إلى الأدب الأفريقي الشرقي » الصادر عام

١٩٦٧ .

إن كتاب تيوويتمى إلى نتاج جيل جديد من الدارسين الأفارقة جمعوا بين المعرفة الوثيقة بمجتمعاتهم وثقافتهم وبين المنهجية والتقاليد الجامعية الرفيعة في البحث والتأليف . وقد تقدم هذا النتاج الجديد بالنقد الأفريقي أسواطاً واسعة وجعله بحق ينتمي إلى العصر الذي نعيش فيه . يتفحص المؤلف في كتابه أكثر من ست وعشرين رواية نيجيرية من أجل سبر موقف الروائيين النيجيريين من الثقافة الأهلية لأوطانهم وشعوبهم وتحديد مدى وثاق صلة تراثهم الوطني وتجربتهم الحديثة . ويعني المؤلف بتعبير الثقافة النيجيرية الأهلية مجموعة العادات والمعتقدات والمواقف التقليدية التي تسود المجتمع النيجيري .

وتراه يعير انتبهاً خاصاً للطريقة التي تحاول بها الرواية النيجيرية هذه الثقافة . فهو يراها - على ما يبدو - محاولة جادة لنقل العادات والمعتقدات والمواقف التقليدية إلى سياق جديد تماماً هو سياق القرن العشرين بلغة يستطيع القارئ النيجيري أن يستجيب لها . وقد انصب اهتمام المؤلف الرئيسي على معرفة مدى نقدية تقديم الروائي لتلك الأوجه من التراث الأهلي التي اختارها للمعالجة في رواية ومدى نجاحه في تقديمها الفني .

وبعبارة أخرى لقد كان المؤلف مشغولاً بالبحث عن أجوبة لجملة من الأسئلة كانت تؤرقه كباحث داخلي مثل :

ماهي القيم الخاصة التي ينادي بها الروائي أو يعارضها ؟  
وماهو موقفه تجاهها ؟

ماهي النتائج العاطفية والثقافية التي يأمل أن يحققها عمله ، وهل ينجح في تحقيقها ؟

وإذا فاتهم له ذلك فبأي طرق التوصيل ؟ وأي هذه الطرق كان أكثر توفيقاً من تحقيق أهدافه ؟

ثم إنه إذا ماكان قد أخفق ، فبسبب أي عائق من عوائق التوصيل كان هذا الإخفاق ، وما هو تأثير هذا الأخير على القارئ ؟

ماهي الاستجابات التي أثارها الروائي لدى القارئ ؟  
وأخيراً ماهو الحيز الذي يشغله عمل معين من أعمال المؤلف بالنسبة إلى آثاره كلها فيما يتعلق بمواجهة الثقافة الأهلية المحلية ؟

وثمة أمر آخر على قسط كبير من الأهمية هو مشكلة اللغة . إن الكاتب النيجيري يستخدم على الغالب لغة غير لغته الأم ، واللغة ثقافة ومنحى معين في التفكير ، ومن خلالها ينعكس وعيه الفردي رؤية للعالم . ومعنى هذا أن المؤلف مضطر لدراسة لغة الروائي النيجيري ومن هنا كان اهتمامه أيضاً بمشكلة التوصيل .

قسم المؤلف كتابه إلى مقدمة وستة فصول وخاتمة . وتحدث في مقدمته عن منهجه وحدود بحثه ومنطلقاته في هذه الدراسة .

أما الفصل الأول فقد خصصه لدراسة المؤثرات التاريخية والثقافية في الروائيين النيجيريين وتوقف بشكل خاص عند تأثير النظام الاستعماري وتجارة الرقيق وما جراه على الحياة في نيجيريا من عواقب ، إضافة إلى اهتمامه بتأثير

الأعمال الأفريقية الأدبية الأولى ، وبآراء الروائيين النيجريين بالثقافة النيجيرية المحلية والتراث الشفوي . وناقش المؤلف في الفصل الثاني قضية النقد الاجتماعي في الرواية النيجيرية وتوقف عند مجموعة من الروايات كـ « شيخو عمر » لأبي بكر تفاعيليو و « ربح مقابل تعدد الزوجات » لـ أوبي إغبونا ، وأشياء كثيرة لا تفهمها » لـ أدورا أولاسي و « داند » لـ إنكيم أونوانكوو و « الصوت » لغابرييل أوكارا .

وأما الفصل الثالث فقد كرسه لروايات « أموس توتولا » ، وناقش في بدايته موقف هذا الروائي من الموروث الشفوي والأدبي وتأثيره على نتاجه ، وأتبع ذلك بدراسة مفصلة لرواياته الست :

« مدمن خمر البلح » ١٩٥٢

« حياتي في أجمة الاشباح » ١٩٥٤

« سيمي واساطير الغابة المظلمة » ١٩٥٥

« الصيادة الأفريقية الشجاعة » ١٩٥٨

« امرأة الغابة ذات الريش » ١٩٦٢

« أبياي وفقره الموروث » ١٩٦٧

ليني فصله بحديثه عن تطور توتولا الأدبي ويشير بشكل خاص إلى نمو قدرته المستمر على صقل فنه ككاتب . إذ أنه كلما ازدادت كتابته صقلاً كلما ازدادت أفكاره حداثة . وكذلك فإنه يبين كيف حاول توتولا أن يتقل موروثه المحلي بلغة إنكليزية تظهر كل خصائص اللغة الأم .

والواقع أن توتولا كما يوضح المؤلف مثال واضح على الكاتب الذي يستخدم مواهبه الأدبية وقدراته الإبداعية الغريبة لإقامة رابط متين بين الموروث والحياة الحديثة . فعلى الرغم من انغماس أدبه بتقاليد اليوروبا ، فإن قيمة رواياته تكمن في الطريقة التي يوسع فيها من آفاق خياله التقليدي الجامح الذي



أتاحت له حكايات اليوروبا الشعبية بحيث يستوعب وجوه الحضارة الصناعية الحديثة . إن توتولا يذكر قارئه دائماً بالقيم والشروط التي كان عليها مجتمع الماضي . ومع أنه بدأ من موقف غير نقدي للثقافة الأهلية ، ومن قبول تام لها . إلا أنه في النهاية استطاع الوصول إلى الشك في الافتراضات الأساسية لهذه الثقافة .

ويتناول المؤلف في الفصل الرابع أعمال كبير روائي القارة شينواشيبي فيقدم تحليلاً موسعاً لأربع من رواياته هي :

« أشياء تتحلل » ١٩٥٨

« لا راحة بعد الآن » ١٩٦٠

« سهم الله » ١٩٦٤

« رجل الشعب » ١٩٦٦

مركزاً بشكل خاص على مشكلة التوصيل التي يدرسها على مختلف مستوياتها ، إذ أن أشيبي كان مسكوناً بها فيما يبدو . فهي تطرح نفسها في أدبه على نحو صارخ وغالباً ما يؤدي الانقطاع في التوصيل في رواياته إلى كارثة أو مأساة .

ومن الجدير بالذكر أن المؤلف لا يقتصر في دراسته لهذه المشكلة على روايات أشيبي بل يأخذ بعين الاعتبار مقالاته ودراساته ويُقدم إشارة واسعة لها .

أما الفصل الخامس فيناقش المؤلف فيه ألوكونجاء نيجيريا الأول ويدرس مجموعة من رواياته منها « رجل واحد ، زوجة واحدة » ١٩٦٧

« رجل واحد ، ساطور واحد » ١٩٦٥

« الزعيم ؛ الوزير الفاصل » ١٩٧٠

« صاحب الجلالة المبعجل » ١٩٧٣

ليبين كيف أن السوكوق قد نظر إلى ماحوله في الخمسينات النيجيرية فرأى الفساد في السياسة والإدارة والناس العاديين فانصرف إلى كل ذلك يهجو ويمرارة . وليوضح كيف أن الصلة التي يقيمها هذا الروائي بين الموروث والحياة الحديثة غالباً ماتزيدنا وعياً بشروط الحياة الإنسانية في المجتمع الحديث وتنميتها .

ويتوقف المؤلف في الفصل السادس والأخير عند روايات أونورا أونزيكوكو وإيلنشي أمادي فيشير إلى تأثير أشيبي على نتاجها . وبين كيف أن أعمال هذا الروائي الكبير قد قدمت حافزاً هاماً لفنانين موهوبين استطاعوا تقديم أعمال أصيلة ومختلفة . ويختم حديثه عن تطورهما الأدبي بالإشارة إلى أنها يشتركان في الخلفية الثقافية ( ثقافة الإيبو ) ولكنها يختلفان من جهة أخرى بالطريقة التي يوظفان فيها هذه الثقافة فنياً . وربما كان من أهم ما يميزهما هو نجاحهما في استخدام اللغة الانكليزية وحسن استعمالهما لأشكال الإيسو ومصطلحاتها وكلماتها وحتى أصورها .

<http://Archivebeta>

أما الخاتمة فقد خصصها المؤلف لإيجاز نتائجه وتقديم تقويمه لمحاولة الروائيين النيجيريين إقامة جسر بين موروثهم الثقافي الوطني والتجربة الحديثة .

يقول أشيبي إن هدفه من الكتابة هو أن يساعد مجتمعه على استعادة إسمائه بنفسه ويواجه الظلم ويدحره . ويبدو أن هذا الهدف المزدوج كان الحافز الرئيسي عند غالبية الروائيين النيجيريين في توظيفهم لعناصر موروثهم الثقافي الوطني وهو ما استطاع المؤلف مناقشته بشكل واف ومنهجي حقاً . رغم أنه لم ينتبه إلى الخيار الصعب الذي يواجهه الروائي النيجيري ( والأفريقي عامة ) عندما يحاول التعبير عن موروثه الثقافي الوطني بلغة أوروبية لها تراثها الخاص بها .

شانتو آرثر غاكا واندي

### الرواية والتجربة المعاصرة في أفريقيا\*

هينمان ، لندن ، ١٩٧٧ ، ١٣٦ ص

يقع الكتاب في مدخل وستة فصول وخاتمة . تناول المؤلف غاكواواندي ، وهو كبير الأساتذة المحاضرين في جامعة ماكيري في كامبالا عاصمة أوغندا ، في المدخل الخلفيتين التاريخية والأدبية ، ثم درس في الفصول الستة موضوعات الرواية الأفريقية من خلال أعمال محددة . وهكذا توقف في الفصل الأول عند موضوع « الظلم الاستعماري » في رواية أويونو « صبي البيت » ورواية لاغوسا « مشي في الليل » ، وتفحص في الفصل الثاني « وهم التقدم » من خلال رواية شينو أشيبي « لراحة بعد الآن » ورواية بني « مهمة إلى كالا » ، ودرس موضوع « القومية » من خلال رواية أبرامز « إكليل ورد لأودمو » ورواية ألكو « رجل واحد » ، وساطور واحد . وفي الفصل الرابع ناقش المؤلف موضوع « خيبة الأمل » في رواية سوينكا « المترجمون » ورواية أشيبي « رجل الشعب » ، وخصص الفصل الخامس لموضوع « الحرية كابوساً » فعالج رواية أوما « الجميلات لم يخلقن بعد » ورواية دويرو « صبية الشريرة » . أما الفصل السادس فتناول المؤلف فيه موضوع « الالتزام » وحلل فيه رواية أونوغوي « حبة قمح » ورواية سمين عثمان « أشياء الله الخشبية » ، وأما الخاتمة فقد خصصها لمناقشة موضوع « الواقعية والرواية الأفريقية » . وفيها يشير إلى ماورثته الرواية الأفريقية عن رواية أوربا في القرن التاسع عشر من « واقعية اجتماعية » إذ أن الرواية الأفريقية في الجوهر والتقنية قد استعارت

C. A. Gakawandi

\*

The Novel and Contemporary Experience in Africa,

Heinemann, London, 1977.

الكثير من الرواية الأوروبية . والواقع أن هذه الرواية إذا ما قورنت بما أنتجته القارة من شعر ومسرح كانت على شيء من خفر في ميدان التجريب . فعلى حين اخترع الشعراء الأفارقة نماذج جديدة تجسد استجاباتهم للحياة الحديثة ، وأفاد المسرحيون من تراثهم الشعبي في انتاجهم المسرحي ، اكتفى الرواة بتوظيف التقنيات ، التي طورتها الواقعية الأوروبية ، في التعليق على التجربة الأفريقية . صحيح « أن اللون المحلي موجود - في نتاج أشيبي ، ولايي ، وأنغوغو ، وأويونو ، ولكن الشكل الأساسي يبقى غير معدل » ص ١٢٧ . إنه الشكل الأوربي الموروث عن واقعية القرن التاسع عشر الاجتماعية .

والواقع أن الروايات التي ناقشها المؤلف تشكل المجرى الرئيسي للرواية الأفريقية ذلك المجرى الذي شكله وعي اجتماعي سام . ولقد غذي هذا الوعي بدوره من قبل هذه الروايات التي سعت وعلى نحو جاد إلى زيادة وعينا للقضايا الرئيسية لعصرنا والتأثير عليه . إن هذه الروايات كما يؤكد غاكا واندي تقدم تقويماً نوعياً للحياة الأفريقية الحديثة . وأكثر من هذا إن مؤلفيها ينظرون إلى أنفسهم على أنهم نقاد اجتماعيون وليسوا مهرجين يبحثون عن امتاع القارئ وتسليته .

ورغم ذلك ، وحتى ولو حاكمنا الرواية كوثيقة اجتماعية ، فإننا ينبغي أن نعترف بأن على الكاتب أن يخضع إلى توجيهات الضرورات الفنية حتى يعرض آراءه بالتأثير الذي يتوخاه . وهكذا فإننا ، وإن كان علينا أن نشبه لنوع النقد الذي يوجهه الروائي الأفريقي لمجتمعه ، لانستطيع أن ننظر إلى هذه الروايات كمعالجات اجتماعية بل ينبغي النظر إليها على أنها أعمال فنية . « إن الصورة العامة التي تنبثق من قراءة نقد المجتمع الأفريقي هي صورة أفريقية كحديقة ملأى بالطفليات وفعل كتابة القصة نفسه - كان بالنسبة لكل روائي - إسهاماً نحو نزاع هذه النباتات الطفيلية من الحديقة » ص ١٣٠

المحرر : إلدرد دور سيمى جونز

الرواية في أفريقيا ، وهو العدد الخامس من المجلة السنوية : الأدب  
الأفريقي (\*\*).

الطبعة الرابعة(\*) ، هينمان - لندن ١٩٧٧ ، ٥٨

ويضم إضافة إلى افتتاحيه التحرير ثمانى مقالات مخصصة للرواية  
الأفريقية ، وقسمًا للتعليقات وآخر للمراجعات .

أما قسم المقالات فيشمل :

- « الأدب الأفريقي : متطلبات نافذه » لارنس إمينونو من جامعة

ويسكنسن

- « حكاية إيكونو المدورة غير المصقونة » ليول إدوارد من جامعة ادنبرة

- « روايات أونور أونوريكو » لـ ج. لاكيلام من جامعة دار السلام

- « ت. م. ألكو : أهجاء النيجيري » لـ بيرنث ليندفورس من جامعة

تكساس

- « الدين وأخياة في رواية جيمس أوبوغوي نهر الماين » للويدويليامز من

كلية كلبازو- في ميشيغان .

- « رواية الزواج المنتهى والمراجعون المنتهون » لـ جاك ، ب ، مور من

جامعة جنوبي فلوريدا

---

Eldred Durosimi Jones,

The Novel in Africa

Hinemann, London, 1977.

African Literature Today

\*\*\*

- « اللغة والحديث في روايات شينو أشيبي » - لـ غاريت غريفس من  
جامعة إيست أنغليا  
- « المضمون التقليدي لمسرحيات وولي سونيكا » - لـ أوين أوغونبا من  
جامعة عبدان .

وأما قسم التعليقات فيتضمن تعليقاً إضافياً على رواية آبي كوي آرما  
« الجميلات لم يخلقن بعد » كتبه مارغريت فلورين من جامعة إلف ، وتعليقاً  
آخر على رواية كمارا لابي « طفل أفريقي » كتبه ديفيد كارول من جامعة  
تورنتو .

وأما قسم المراجعات فيتضمن قراءات موجزة لمجموعة من الروايات  
الأفريقية المكتوبة بالانكليزية أو الفرنسية إلى جانب نقد مجموعة من الكتب  
التي تعنى بالرواية الأفريقية .

وربما كان من أبرز مواد هذا العدد المقالة الأولى التي يناقش فيها إرنست  
إمينونونقاد الأدب الأفريقي هذه الظاهرة المحيرة التي جعلتهم يستجيبون لها  
استجابات متباينة في تفهم اسهامتها للأدب المعاصر في العالم ولصلتها بظروف  
انتاجها ، دون أن يكونوا مؤهلين حقاً لمواجهة الانشاء الأفريقي الذي يتطلب  
تكويناً ثقافياً معيناً واستعداداً نفسياً محدداً وموقفاً فكرياً ناضجاً .

يقول شينو أشيبي كبير أدباء نيجيريا :

« نحن لسنا معارضين للنقد ، ولكننا أصبحنا متعبين من كل الانهاط  
الخاصة للنقد التي صممت لنا من قبل أناس معرفتهم بنا محدودة جداً » ص ١٠  
( من المرجع السابق ) إن مقالة إمينونو هي مساهمة جادة في نقد هذه الأنماط  
وطموح مشروع نحو نقد أدبي أفريقي حق .

المحرر كريستوفر هيوود

### منظورات في الأدب الأفريقي \*

الطبعة الثانية ، هينملن ، لندن ١٩٧٥ ، ١٧٥ ص

يضم هذا الكتاب الذي حرره البروفيسور هيوود كبير محاضري الأدب الأنكليزي في جامعة شيفيلد والأستاذ الزائر لجامعة إلف مختارات من وقائع مؤتمر الأدب الأفريقي الذي عقد في جامعة إلف عام ١٩٦٨ . وتشتمل هذه المختارات على ثلاثة عشر بحثاً وزعها المحرر على أربعة أقسام هي :

١ - الأدب والتقد « وضم ثلاثة بحوث لـ جيمس أونوغوي الذي ناقش موضوع « الأديب الأفريقي وماضيه » ولـ أبيولا إيريلي الذي تحدث عن « نقد الأدب الأفريقي الجديد » ولـ و. ص. - إيزيغبابه « التقد والأدب في أفريقيا » ؛  
٢ - اللغة والأسلوب واشتمل على ثلاثة بحوث أيضاً هي « تطور كتابة النثر الأفريقي بالانكليزية : منظور » لـ لالاغي بون و « اللغة ومصادر أموس توتولا » لـ أ. أفوليان و « بعض مشكلات الترجمة في الأدب الأفريقي » لبرنارد باكمان .

٣ - الاشكال الأدبية : وضم ثلاثة بحوث كذلك هي : « المسرح الحديث في غرب أفريقيا » لـ أوين أوغونبا و « طبيعة القصة الشعبية في غانا » لايبي إيكيدو و « التقليدية والأدب الأفريقي » : ج. ب. كلارك » لـ إ. أوفوري أكايي

Christopher Heywood ( edit )

\*

Perspectives on African Literature

Heinemann, London, 1975.

- مؤلفون وأعمالهم : وناقش فيه أربعة باحثين أعمال ثلاثة من كبار كتاب أفريقيا هم وولي سونيكا وكمارا لامي وبيتر أبرامز إضافة إلى أدب شرقي أفريقيا . وهكذا درس الدرد جونز « التقدم والحضارة في أعمال وولي سونيكا » وناقش ديفيد كوك « أهمية الملك في رواية كمارا لامي Le Regard du Roi » وتحدث ديفيد روياديري عن « تطور الكتابة في شرقي أفريقيا » وحلل كريستوفر هيود « روايات بيتر أبرامز » .

إن المستويات النقدية هامة لتطور الأدب الإفريقي ، وأهمية هذه المجموعة من البحوث تكمن في كونها تضع وجوها مختلفة من هذا الأدب في منظوراتها الصحيحة ، وبالتالي تتيح لنا رؤية أكثر قرباً من حال هذا الأدب الغني المتميز وخاصة فيما يتصل بالعلاقة بين تقاليد اللهجات المحلية والوسائط الأدبية القابلة للنشر ، بين التراث الشفوي المنقول باللغات الأفريقية المختلفة وبين أدوات التعبير والأجناس الأدبية التي حملتها المواجهة المعقدة والمتعددة الوجوه مع الغرب المستعمر .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

يوستيس بالمر

### مدخل للرواية الأفريقية

الطبعة الثانية ، هينملن ، لندن ١٩٧٣ ، ١٧٦ ص

وهو أحد كتاب سلسلة « دراسات في الأدب الإفريقي » التي تصدرها دار النشر هينمان والتي صدر منها حتى الآن ما يقرب من بضعة عشر عنواناً منها « دليل القارئ للأدب الإفريقي » وه همسات من قارة » وه الاحتجاج

Eustace Palmer

✻

An Introduction to the African

Novel, Heinemann, London, 1973.



والصراع في الأدب الأفريقي « و » ومنظورات في الأدب الأفريقي « و » الأدباء الأفارقة يتحدثون « و » أدباء أفارقة يكتبون عن الكتابة الأفريقية « و » روايات شينو أشيبي « و » روايات مونغوبيتي « و » كتابات وولي سونيكا « و » شعر ل. س ، سينغور « وغيرها .

يتناول الدكتور بالمر وهو كبير محاضري الأدب الانكليزي في جامعة سيراليون في هذا الكتاب اثنتي عشرة رواية لـ شينو أشيبي ، وجيمس أونغوغوي ، وكهارا لامي ، وإليثي أماري وآي كيوي أرمبا ، ومنغوبيتي ، وغابرييل أوكارا ( جميعها كتبت باللغة الانكليزية .

وربما كان من أهم ما يميز عمله الطابع الأدبي . فعلى خلاف كثير من النقاد الذين يتناولون الأدب الأفريقي بالدراسة لاعتبارات فوق أدبية : سوسيولوجية وتاريخية وغير ذلك ، يحاول الدكتور بالمر أن يوضح - من خلال تحليلاته التفصيلية للرواية المدروسة - كيف تحقق للعمل الأدبي مستواه الفني البارز .

ومن الجدير بالذكر أن الدكتور بالمر ولد في سيراليون وحصل على درجة الدكتوراة من جامعة أدنبره على رسالة في هنري فيلدينغ . ومنذ عام ١٩٦٦ وهو يقوم بتدريس الأدب في كلية فوره بيه في جامعة سيراليون حيث عرف باهتمامه بالدراسات النصية للأدب الأفريقي ، وبعنايته الخاصة بتقديم الروايات الأفريقية إلى القراء الجدد . ومن هنا كان عمله حصيلة قراءة على قسط وافر من الحساسية النافذة والاهتمام الحقيقي بمستقبل الأدب الأفريقي الجديد .

هذا وقد حظيت أعمال شينو أشيبي وجيمس أونغوغوبنصيب الأسد من اهتمام الدكتور بالمر إذ أنه درس ثلاث روايات لكل منها فتناول في الفصل الأول روايات « لاتبلك ياولدي » و « نهر الماين » و « حبة قمح » لأونغوغوي وناقش في

الفصل الثاني روايات « أشياء تتحلل » و « لراحة بعد الآن » و « رجل الشعب » لشينو أشيبي .

أما الفصل الثالث فقد خصصه لـ كيارا لامي وحلل فيه روايته « الولد الأفريقي » و « إشعاع الملك » ، على حين تناول في الفصل الرابع رواية إيليتشي أمادي « الجارية » ، ورواية « الجميلات لم يخلقن بعد » ، لآبي كيوي أوما في الفصل الخامس ، ورواية « مهمة إلى كالا » لمونغوبي في الفصل السادس ليختم كتابه بدراسة رائعة غابرييل أوكارا « الصوت » .

يقول الدكتور بالمر في مقدمته لكتابه الممتاز إن ظهور محصول واف من الروايات الأفريقية بالإنكليزية والفرنسية هو من أبرز التطورات الأدبية التي شهدها ربع القرن الأخير . لقد كان من المحتم أن تنتج حركة تقرير المصير ، وبروز نخبة أفريقية متعلمة تعليماً ممتازاً وقادرة على الإفصاح ، عدداً من الأعمال الفنية التي صممت « لتعبر عن قوة وصلاحية وجمال الحياة والثقافة الأفريقيتين » وعلى حين انصرف نقاد الأدب الأفريقي الآخرون إلى التركيز على ما أراد الروائيون الأفريقيون أن يقولوا حاول الدكتور بالمر أن يوضح في تحليلاته النصية الممتازة كيف قال هؤلاء الروائيون ما قالوه . وهذا طموح مشروع . صحيح أن رسالة العمل هامة ، ولكن النقد الفني لتقنيات الرواية عمل مشروع أيضاً . « فالرواية المتقنة الصنع هي نسج من الرسالة والتقنية ، وأي عمل مختل في أي منهما هو عمل مفتوح للنقد واهتمام الدكتور بالمر بفنية الرواية الأفريقية هو تأكيد على صلاحية هذه الرواية فناً كتعبير أدبي قادر على تقرير المصير الأفريقي .



# الصبي الخادم

فرديناند أويونو

محمود فتدري

مؤسسة الأبحاث العربية

بيروت

الطبعة العربية الأولى ١٩٨١

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

في روايته «الصبي الخادم» يرصد «فرديناند أويونو» واحدة من أهم المراحل في تاريخ إفريقيا هي المرحلة المبكرة من الغزو الاستعماري لها. وهذه المرحلة مبكرة لدرجة أن ظهور «الرجل الأبيض» كان لا يزال «حدثاً» بالنسبة للمواطن المحلي، وأما موته فحدث رعباً يشهده لأول مرة. إنها المرحلة التي كان الرجل الأبيض فيها يرى أنه لا يحتاج لتدجين إفريقيا «البداية» إلى أكثر من بعثة تبشيرية ومركز للشرطة. وقد استطاع «أويونو» في روايته الهامة هذه أن يجسد بدقة بالغة جانين متناقضين أعظم تناقض مبراً هذه المرحلة من تاريخ إفريقيا: ماذا فعل الرجل الأبيض، وكيف ردت إفريقيا عليه.

إن التدقيق في الشكل الفني لرواية « أويونو » يظهر أنه يتخدم تماماً مايرمي الكاتب إلى تجسيده . فجسم الرواية الاساسي هو يوميات يسرد فيها شخص واحد - تاوندي - تاريخ حياته القصيرة زمنياً الغنية بتفاصيل كثيفة ودلالات يسهل الامساك بها . وتسبق هذا السرد البسيط لليوميات مقدمة هي في حد ذاتها قصة قصيرة تشكل تلخيصاً مكثفاً ووافياً لحدث هو في الحقيقة محور الرواية بكاملها ( صبي - تاوندي - من احدى قرى الكاميرون يهرب عن قريته وأهله وينتهي إلى الموت بعد تعذيب وحشي على يد الرجل الأبيض ) . هذا الشكل ، الذي يكشف النهاية منذ البداية ، يوحي بأن ( أويونو ) لا يريد لهذا الحدث في حد ذاته أن يستحوذ على أقصى اهتمام المتلقي وإنما يريد ذلك لمجمل الصورة التي تتشكل من نسيج اليوميات التالي . وبكلمات أخرى فإن ( أويونو ) يريد أن يضع في حكم الطبيعي أن من ينسلخ عن انتسائه الوطني ويحاول التماثل مع عدوه ، كما في حالة تاوندي ، سيكون مصيره المحتوم هو الموت ، وهذا لا يحتاج ، في سياق الرواية ، إلى أكثر من هذه المقدمة لتثبيته . وأما ما يحتاج إلى التركيز عليه وكشفه فهو الكيفية التي تم فيها الحدث - موت تاوندي - والمسار الذي أوصل إليه فذلك يتضمن الكشف عن الجانبين اللذين أشرنا إليهما : ماذا فعل « الرجل الأبيض » وكيف ردت إفريقيا عليه .

لقد كان لقاء الكاتب الوحيد مع « تاوندي » والأخير على فراش الموت وقد استيقظت ، بكل عنفوانها ، إفريقيا التي أراد في لحظات تمرد « طائش » أن يتخلى عنها . وقد تجلّى هذا العنفوان في تلك الصرخة المترعة بالاحساس بالقهر والألم والمرارة : « أخي ! ما نحن الرجال السود المسمون ( فرنسيين ) » . كما تجلّى هذا العنفوان أيضاً في إحساسه العميق بالندم لأنه تخلى في وقت مضى عن انتسائه - عن قريته وقبيلته : « أنا من الكاميرون يا صديقي . . . أنا من « الماكا » . كنت سأعيش طويلاً حتى تشيخ عظامي لو

كنت ولداً طيباً ولزمت بيتي . . . ،

فها هو «أويونو» ، منذ السطور الأولى في روايته يحدد مقومات بقاء الأفريقي المستهدف بالغزو ، ويفشي ، في نفس الوقت وباختصار شديد ، سبب مأساة « تاوندي » التي ستكشف تفاصيلها في يومياته . مقومات بقاء الأفريقي ، أمام هذا الغزو ، تتمثل في تمسكه بقيبلته وبتراثه القبلي . هذا التراث الذي قدم « اتشيبى » لوحات متكاملة منه في رائعته « الأشياء تتداعى » بينما تلمسه في كل خيط من نسيج رواية « أويونو » ففي المشهد الأول منها أبرز الكاتب بلغة شاعرية حيمية العلاقات القبلية عند مضيفيه في غينيا الاسبانية . ولا تكاد تخلو فقرة من يوميات تاوندي من أثر التراث والتقاليد على نظراته وتقييمه لكل ما يفعله « الرجل الأبيض » . لكن الكاتب رغم تأكيده على فعل التراث الإيجابي ثابر في كل روايته على إرسال نقد هنا أو هناك لما هو متخلف في هذا التراث والتقاليد بل إنه في بداية يوميات « تاوندي » يبرز وطة التقاليد التي كانت سبباً في موت الأب لأن ابنه قد هرب الى قسيس أبيض قبل يوم واحد من تكريسه<sup>١١</sup>؟ وهي التي دفعت « تاوندي » إلى الهرب والالتجاء إلى هذا القسيس . ويعطي الكاتب كثيراً من الاهتمام لهذه الحادثة ويعرضها بصورة يستشف منها ميله إلى إشارة تعاطف مع « تاوندي » أمام صرامة والده ووطأة تقاليد الطاعة المبالغ فيها . فحين يطارد الأب ابنه ليقع به عقوبة الضرب المبرح - التي خبر الصبي فيما مضى قسوتها - دون أن يقتنع الابن أنه يستحقها ويحاول الهرب يلجأ الأب إلى « ابتزاز » ابنه باعتبار هربه دليلاً على أنه يمكن أن ينام مع أمه . ويلجأ « أويونو » على إبراز قسوة هذا التقليد فيكرر المشهد مع استبدال الأم بالجدة هذه المرة .

وواضح أن « أويونو » يريد أن يحمل هذا النوع من التقاليد بعض

(١) التكريس : احتفال الشعائر والطقوس الذي يبدأ به الانتساب - إلى ديانة مثلاً .

المسؤولية في الحدث . يرفض الصبي العقوبة ويصر الأب على حرمانه من دخول البيت . وحين يتسلل الصبي إلى البيت ويروح يتلصص من شقوق الحائط الطيني ويرى والده وعمه يلتهمان قطع لحم « النيص » المطبوخ ووالدته تبكي لا نكاد نحس بالمفاجأة ونحن نسمعه يقول : « ولأول مرة في حياتي فكرت في قتل والدي » . ولولا أن « أويونو » قبل ذلك بقليل قد ألقى بجزء كبير من المسؤولية على « الرجل الأبيض » لساد الاعتقاد أن الكاتب يحمل التقاليد المسؤولية كاملة . لكن المشكلة كلها في الحقيقة قد ثارت بسبب تصرف « الرجل الأبيض » الذي يستدرج الأولاد ويغريهم بتوزيع قوالب السكر عليهم « قوالب ناصعة تستحق كشوط الركب وتورم العيون وآلام الجروح المبرحة . وأحياناً كانت هبات السكر هذه تؤدي إلى شجارين آبائنا » وإحدى هذه الشجارات هي التي دفعت والد « تاوندي » إلى ملاحظته وأدت في النهاية إلى هربه والتحاقه بخدمة الأب « جيلبرت » في « دانغان » .

لم يعط « أويونو » أهمية كبيرة للفترة التي قضاها « تاوندي » في خدمة الأب « جيلبرت » . لقد أبرز في الصفحات القليلة التي كرسها لذلك إحساس « تاوندي » بالانطلاق والسعادة لأنه « مقدم على اكتشاف المدينة والتعرف على الرجال البيض والعيش كما يعيشون » . لكنه في الوقت نفسه ألمح للنهاية التي يجنبها - الكاتب - له حين جعله يضبط نفسه وهو يفكر بأنه يشبه « تلك البيغاوات التي كنا في القرية نستدرجها بحبوب الذرة الصفراء » . وهو بذلك يكون قد أرسى أساس مأساة « تاوندي » وفاقمها حين جعله يحس أنه يسير باتجاهها . ورغم ذلك فالكاتب لا يريد أن يكون لرجل الدين من البعثة التبشيرية دور كبير في مأساة « تاوندي » وأكثر من ذلك فلا يبدو أنه معني بابرار كره شديد لرجل الدين أو توجس من تصرفاته ، والنقد الذي وجهه لرجال الدين - الأب جيلبرت والأب فاندردماير - رغم أنه لاذع في كثير من الأحيان

لا يتضمن بشكل واضح علاقة بالنشاط الاستعماري ونجد أن « أويونو » يحاول تأكيد أن الصلة التي نمت بين « تاوندي » والاب جيلبرت كانت حقيقية ومتينة رغم أنها علاقة تابع بسيد وعبر عنها على لسان تاوندي بعد موت الاب جيلبرت : « لقد مت للمرة الأولى » .

إذن فمأساة « تاوندي » تبدأ بالفعل مع « القومندان » . هذا ما يريد أن يقوله « أويونو » . مع القومندان بدأ « الخوف » الحقيقي : « كنت أنهيًا للرجوع إلى ( الموقع ) بعد أن أنهيت عملي عند منتصف الليل حين طلب القومندان أن أتبعه إلى مكتبه . لقد كانت لحظة مفزعة . . » هذا الخوف الذي ابتدأ الآن سينسحب مع الرواية حتى آخرها وسيلف كل الشخص الافارقة في الرواية ، ولكننا سنلاحظ بعد سطور قليلة أن هذا الخوف سيتحول بعد لقاء الرجل الأبيض إلى شكل آخر : « ودار في خلدي أن القومندان إنسان مضحك فسلعت كي لا يأتيني الضحك » . لم يتيق من الخوف عند « تاوندي » إلا شكلاً منه يمكن اعتباره اذعاناً بسبب الحاجة والضعف مثلاً أكثر منه خوفاً . ورغم أن تاوندي يقدم في بعض فقرات يومياته تفصيلات عن قوة القومندان وصلابة بنيته ( جذع الماهوغاني ) ، وعن ضعفه هو وانثنائه أمام العاصفة بالمقارنة إلا أنه بعد ذلك يكشف أن القومندان غير محتون « لقد واساني ذلك الاكتشاف . . قتل شيئاً ما بداخلي . . وتيقنت أنني لن أخشى القومندان بعد ذلك » . ومنذ هذه اللحظة سيعلو صوت السخرية عند « تاوندي » . ( قبل ذلك كانت يوميات تاوندي « غير ساخرة » ، بالنسبة لتاوندي ، لكنها ساخرة بالنسبة لأويونو ) . سنسمع « أوندوا » الطبال يوقع على طلبه رسالة ساخرة عن الرجل الأبيض ، ولن يوفر تاوندي مناسبة لا يسخر فيها في يومياته من « الرجل الأبيض » عائلة « سالفين » المتحذلقة ، الطبيب الفخور يزي الكابتن ، الأتستين « دوبا »

بضفيري ذييل الخنزير وزوجة مدير السجن والسيدات اليونانيات يعرضن ملابسهن الحريرية ، غاليت رئيس الشرطة ذوالعنق الرفيع الطويل والمهندس الزراعي الذي استطاعت خليلته الأفريقية أن تخدعه فتسرق منه أمواله ورواتب العمال وتهرب إلى غينيا الإسبانية وحتى السيدة « زوجة القومندان التي التحقت به مؤخراً بعد فترة من قدومه وأصبحت عشيقة السيد مورد مدير السجن وكذلك القومندان الذي أصبح بالنسبة للأفارقة « القومندان الذي تفتح زوجته ساقها في الخنادق والسيارات » .

لقد كان وصول « السيدة - زوجة القومندان - إلى دانفان حدثاً هاماً أعاد الخوف إلى نفس تاوندي « سرّت في جسدي انتفاضة للمس يدها الصغيرة الرطبة وارتجفت هي كزهرة رقصها نسيم عليل . . . إنني أحس بالخوف . . . أحس بالخوف . . . » . وحين ابتدأت علاقاتها الغرامية بمدير السجن تسارع اقتراب « تاوندي » من نهايته . لقد قدم « أويونو » ذلك بصورة دقيقة ومسهبة وأظهر كيف أن مجرد « معرفة » تاوندي بها يجري كانت كافية لتحديد نهايته رغم إخلاصه الشديد للقومندان وحتى إحساسه بالألم لما يحدث من خيانة له ودون أن يجعل ذلك ينعكس بعدم احترام للسيدة . وقد لاحظت زوجة القومندان ذلك ورد فعلها كان حقدًا طاغياً عبرت عنه بأبداء تهذيب ينم عن الازدراء تجاه تاوندي . فصارت تناديه « ياسيد جوزيف ! » مرفقة مناداتها بنظرات ذات معنى . والقومندان الذي قدر موقف تاوندي أول الأمر وأظهر حزمًا تجاه زوجته عاد وتخاذل « فتضاهم » معها وصار بدوره ينادي تاوندي « ياسيد جوزيف » أيضاً . ولقد لاحظت ذلك خادمة غرفة نوم السيدة - وهي بالطبع أفريقية - فحذرت قائلة « حين يبدي البيض تهدياً تجاه مواطن أصلي فذلك يعني إشارة

(٩) جوزيف : الاسم الذي صند الأب جيلبرت به تاوندي .



سيئة » ، ونصحته بالرحيل إلى غينيا الاسبانية قبل فوات الأوان . لكن تاوندي لم يفعل ، وابتدأت بالفعل خطوات « تصفيته » بين مدير الشرطة ومدير السجن . وبعد أن أشرف على الموت نتيجة التعذيب قرر أن يهرب إلى غينيا الاسبانية . أراد أن يغتنم ماتبقى له من فرصة لكنها كانت بالفعل « فرصة ضئيلة » .





ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrat.com>

بالنسبة للكاتب « أندريه يرنك » من - جنوب أفريقيا - لا يفترق الأدب عن النضال من أجل العدالة . إنه يكتب من أجل أن يقول لليبيض ما لا يريدون أن يعرفوه عن السود .

أندريه يرنك ، ٤٥ عاماً ، استاذ الأدب في جامعة « غراهامستون » . ترجم للغة الأفريقية - النيرلانديريه وهي لغة جنوب أفريقيا الرسمية إضافة إلى الانكليزية ، ترجم شكسبير وكامي « العادلون »

أهم كاتب باللغة الأفريقانية ، مناهض للفصل العنصري ( أبارتيد ) ،  
تعالج مؤلفاته مسألة العلاقات بين مختلف المجموعات البشرية والقوميات التي  
تشكل جمهورية جنوب أفريقيا ، شاهدٌ على عصره . ويعتبرُ « برنك » نفسه  
كاتباً مُلتزماً ، وهو يسمي - ككاتب أبيض - إلى أن يُنبه البيض ويحذرهم .  
ترجمت خمسُ من رواياته إلى الفرنسية ، صدر منها عن دار النشر « ستوك » :  
« فصل أبيض وجاف » ، ظهرت عام ١٩٨٠ وحصلت على جائزة « ميديسيس »  
للأدب الأجنبي . صدرت له أخيراً رواية « الصمت الصاخب » التي تتحدث  
عن تمرّد للعبيد داخل بلاد الكاب عام ١٨٢٥ .

سؤال : - ماهي الطريقة التي تتبعها ؟ كيف يمكن أن تكون كاتباً مناهضاً  
للفصل العنصري ( أبارتيد ) في جنوب أفريقيا وبالوسائل التي تمتلكها  
ككاتب ؟

ARCHIVE  
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

- كان أبي قاضياً ، قضيتُ طفولتي بين مجموعة قرى في جنوب أفريقيا .  
هذا يعني أنني عشت في عالم إتفاقي ومحافظ . حتى قدومي إلى باريس لم أكن  
قد إلتقيت بملونين . كان عليّ أن أعيش في باريس بين عامي ١٩٥٩ و ١٩٦١  
لدراسة الأدب المقارن في السوربون ، لالتقي ولأول مرة في حياتي بأناسٍ سود  
قادمين من شتى أنحاء العالم . كنا نستطيع أن نجلس سوياً وحول طاولة واحدة  
من أجل أن نتحدث .

ما اكتشفته حينذاك هو أنه ليس ممكناً أن نقيم علاقات طبيعية مع هؤلاء  
الناس المحترقين والمضطهدين في جنوب أفريقيا ، والذين لم أجد المناسبة  
لأحدثهم كأصدقاء أو كأنداد لي فحسب بل زيادة على ذلك لقد فتح هذا  
الاكتشاف أمامي منافذ جديدة .

في عام ١٩٦١ ، عدت الى جنوب افريقيا وعُينت أستاذاً في الجامعة . كنت أدرّس الأدب الأفريقي والهولندي المعاصرين . وبدأت أكتب ، كنت معدوداً ضمن مجموعة شباب تُسمى « كتاب الستينات » ، بدأنا وبشكل منتظم تقريباً نحطّم الاصنام البالية التي سيطرت على أدب جنوب أفريقيا ، أصنام على الصعيد الأخلاقي والديني والسياسي أيضاً .

لكنني عدت إلى فرنسا في نهاية عام ١٩٦٧ وبقيت فيها طوال عام ١٩٦٨ . كنت قد عدت وفي يدي البقاء فيها بشكل نهائي . لكنني أدركت وبسبب أحداث عام ١٩٦٨ أن على الكاتب - إذا كانت الكتابة بالنسبة له شيئاً مهماً لا « تزجية للوقت » - أن يكون في علاقة مع المجتمع بكامله .

أيقنت أنه لا يمكنني أن أعيش خارج مجتمعي . كان من السهل عليّ أن أقيم على بعد عشرة آلاف كيلومتر متقدماً ومتجنباً النتائج المتوقعة لكتاباتي . إن الكتابة بالنسبة لي ليست تسلية . إنها فهم حقيقي وعميق للحياة . لا أستطيع أن أتصور الوجود دون كتابة ، ذلك لأنني أعيش الشيء عند كتابته ، أكتشف معناه .

## ( الأدب الخاضع للنزعة القومية )

سؤال : كيف كانت الأوضاع في جنوب أفريقيا في عامي ١٩٦٨ ،

١٩٦٩ ؟

كيف كان هؤلاء الكتاب الذين تتحدث عنهم يكتبون وينشرون ؟

كان ذلك صعباً في تلك الفترة ذلك لأن قانون الرقابة قد صدر بالضغط عندما بدأ هذا الجيل « جيل الستينات » بالظهور . كنا قد بدأنا بمجلة أدبية صغيرة من أجل نشر أفكارنا الجديدة في تلك الحقبة . كنا نريد أيضاً أن نهاجم

أدب اللحظة ، أدب تجاوزه الزمن لأنه يعود الى القرن التاسع عشر : البيض المساكين ، الخفاف ، المزارعون . أدب خاضع للنزعة القومية للبيض ، خاص جداً بجنوب أفريقيا ، ينوء من تعصب ديني قاسٍ .

كذلك عندما بدأنا نطرح تساؤلاتنا حول مواضيع مثل الأخلاق ، الآداب ، الفلسفة ، الدين ، جوبها برودود فعل خيالية . ليس الأدب وحده هو الذي خلق مثل ردود الفعل تلك ، بل نتج عما كنا نقوله مقاومة من الحكومة ، من أيديولوجية الساعة ، من فكرة الأمة المتجانسة . . أن نتجاسرونتساءل حول أشياء كانت مقبولة من قبل الجميع ، لقد بدا ذلك كما لو كان انتهاكاً للحرمان .

إبتداءً من عام ١٩٦٨ ، كان « برتيناخ » بالذات و« جان رابي » وأنا ، من الذين بدأنا بقيادة المعارضة على الصعيد السياسي . حتى ذلك الوقت لم تكن الرقابة قد منعت كتاباً واحداً من النشر . كانت السلطات تعتبرنا أفراداً من العائلة ، أفراداً غنّيين لكننا مع ذلك جزء من العائلة . لم يكن من المفضل رفضنا تماماً . . بشرط ألا نعتنق مقدساتهم السياسية (١١)

كانت روايتي « أكثر سواداً من الليل » أول كتاب يمنع . إبتداءً من هذه اللحظة بدأت الأشياء تتغير . بمنعهم كتابي من النشر كانوا أكثر صراحة ، بعدها أصبح الأمر سهلاً بالنسبة لهم . إبتداءً من عام ١٩٧٤ منعت كتب كثيرة بالأفريقية من النشر .

سؤال : - أي نوعٍ من أنواع الأدب كان موجوداً في جنوب أفريقيا حتى ذلك الوقت ؟

حتى ذلك الوقت ، كان هناك ثلاثة أنواع من الأدب : أدب السود ، الأدب الأنكليزي المكتوب من قبل البيض ، والأدب المكتوب بالأفريقية . كان

لكل واحد منها طريقته الخاصة والمختلفة عن الأخرى . كان هناك شيء من العلاقة بين الأدب الانكليزي وأدب جنوب أفريقيا لأن كليهما مكتوب بالإنكليزية .

في بداية السبعينات نشأ أدب جديد ، كتاب بيض وسود يلتقون باستمرار . كان هناك شكل من أشكال التضامن بين المعارضين للنظام . خلال هذه الأعوام وجد الكتاب أنفسهم جميعاً في حركة يقودها كتاب من « سوتيو » . لأول مرة في جنوب أفريقيا يجتمع كل الكتاب المعارضين ، يناضلون سوية ، يلتقون من أجل أن يقرؤوا شعرهم ، أو أن يعالجوا مشاكلهم الأدبية ، أو الاجتماعية أو السياسية .

نتج عن ذلك للأسف أن الكتاب السود قد خسروا قراءهم السود بسبب تعاون هؤلاء الكتاب مع زملائهم البيض .

## « لا أستطيع أن أخرج من جلدي »

سؤال : - وأدب السود . . عما يتحدث ؟

باختصار شديد إنه أدب معارضة . الكتاب السود يكتبون بشكل خاص شعراً أو مسرحاً . لا يرغبون كثيراً في كتابة الرواية ، لأنه يُفترض أن تتوجه إلى القارئ بشكل مباشر وبالوسائل الأكثر نجاعة .

بالنسبة لهم يُعتبر الأدب أداة نضال . الأدب البعيد عن المعركة هو أدب ترف من السهل الاستغناء عنه . عندما تصدر مجموعة شعرية جديدة يذهب الكتاب وأصدقاؤه الي الناشر حيث يأخذون المجموعة لبيعها في الشارع . عندما تكتشف السلطات وجود المجموعة تكون الطبعة قد نفذت .

سؤال - : كيف يمكن تحديد التمزق الذي يعاني منه أدب البيض الحديث ؟ في كتاباتك مثلاً ؟

حتى الستينات وبالمخصوص في الأدب المكتوب باللغة الانكليزية ، كان هناك نوع من الليبرالية الإفريقية الجنوبية المبالغ فيها ، أوحى يمكن أن نسميها « أبوية » ، كان الكتاب يريدون أن يتكلموا من أجل السود . أما اليوم فإن السود يقولون - وهم على حق - إننا نستطيع أن نتحدث عن أنفسنا بأنفسنا ، يمكننا أن نتحدث عن أحوالنا ، لسنا بحاجة إلى ناطق أبيض باسمنا . اعتقد أنهم على حق .

أنا ، مثلاً ، أحاول دائماً ككاتب وكأنسان أن أعيش وأفهم ما يحدث في حياة الانسان الأسود ، لكني لا أستطيع أن أخرج من جلدي . إنها واحدة من مآسي الوجود ، الوضع البشري . إنني أبيض ، وسأظل كذلك رغم المناسبات والمحاولات العديدة التي أردت فيها أن أكون إنساناً آخر أو شيئاً مختلفاً . لكنني وككاتب أبيض يمكنني أن أنبه البيض إلى خطر ما يقومون به ضد السود . أن أحدثهم عما يعنيه الانتساب الى مجموعة البيض ، المجموعة التي تضطهد السود .

كذلك يمكن للكاتب الاسود أن يقول للسود مايعنيه أن تكون أسود في جنوب أفريقيا ، أنا كأبيض ، لا أستطيع أن أقول للسود مايعرفونه ، لكني أستطيع أن أحدث البيض عما لا يريدون أن يعرفوه . وهذا عمل لا بد منه ، لأنه في نظام الابارتيد والتمييز العنصري ، حيث العزلة المفروضة على الجميع ، يتحول الآخرون الى كائنات مجهولة ، يكفون عن أن يكونوا كائنات بشرية ، تلك هي اكبر المشكلات ، استحالة التواصل بين المجموعات البشرية . بإمكان الأدب أن يساهم في عبور هذه الهوة أو ردمها .